الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو بكر بلقايد– تلمسان
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم: الفلسفة.

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ل.م.د، تخصص : فلسفة غربية معاصرة

الموسومة ب:

المعرفة و السّلطة بين ميشال فوكو وميشال دوسارتو
(دراسة مُقارِنة في المفهوم واستعمالاته)

إعداد الطالب:
جلولي عبد الحكيم.

إشراف أ.د:
محمد شوقي الزين

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
عبد القادر بودومة	أستاذ	جامعة تلمسان	**رئيسا**
محمد شوقي الزين	أستاذ	جامعة تلمسان	**مشرفا ومقررا**
نذير حابل	أستاذ محاضر "أ"	جامعة تلمسان	**عضوا مناقشا**
رايس زواوي	أستاذ	جامعة سيدي بلعباس	**عضوا مناقشا**
عبد الله عبد اللاوي	أستاذ	جامعة وهران 2	**عضوا مناقشا**

السنة الجامعية:

2022م/2023م–1443 هـ/1444هـ

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو بكر بلقايد– تلمسان
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم: الفلسفة.

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه ل.م.د، تخصص : فلسفة عملية

الموسومة ب:

المعرفة والسلطة بين ميشال فوكو وميشال دوسارتو
(دراسة مقارنة في المفهوم واستعمالاته)

إعداد الطالب:
جلولي عبد الحكيم.

إشراف أ.د:
محمد شوقي الزين

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة	الصفة
عبد القادر بودومة	أستاذ	جامعة تلمسان	**رئيسا**
محمد شوقي الزين	أستاذ	جامعة تلمسان	**مشرفا ومقررا**
نذير حابل	أستاذ محاضر "أ"	جامعة تلمسان	**عضوا مناقشا**
رايس زواوي	أستاذ	جامعة سيدي بلعباس	**عضوا مناقشا**
عبد الله عبد اللاوي	أستاذ	جامعة وهران2	**عضوا مناقشا**

السنة الجامعية:

2022 م/2023م– 1443هـ/1444هـ

كلمة شكر

أتوجه بجزيل الشكر والعرفان للأستاذ محمد شوقي الزين الذي لم يدخر جهدا في إفادتنا ومرافقتنا، ولأساتذة قسم الفلسفة لجامعة تلمسان عرفان وتقديرا لمجهوداتهم في سبيل تكويننا، كما لا ننسى أن نشكر أعوان الإدارة وهم رجال الخفاء، والطّلبة الأعزّاء رفقاء الدّرب، وكلّ من ألفنا صُحبته العلمية من زملاء في التّخصصات الأخرى.

إهداء

هدى هذا العمل للوالدة الفاضلة عربون تقدير وعرفان على دعمها وسندها لنا طيلة مشوارنا الدراسي والجامعي، أطال الله في عمرها وأدام عليها الصحة والعافية.

مقدمـــــة

مقدمة:

"المعرفة" (savoir) في التّقليد "الابستيمولوجي" هي ما أنتجه العقل بتراكم الخبرات تنظيرًا وممارسةً، سواء داخل ما أنتجه العلم أو خارجه في السياسة والاقتصاد والاجتماعيات، ومُهمّة المعرفة على الأرجح هي البحث عن الحقيقة، والتّأسيس لها بمنهج يتحرّى الموضوعية واستقلالية الذّات فالعالمُ أو الخبَيرُ المختصّ أو رجل الاقتصاد أو السياسة، من الشخصياتُ التي تنتج المعرفة وتوزعها داخل النّسيج الاجتماعيّ ليَتَحَقّقَ غرضها.

أما "السُّلطة" (pouvoir) في – معناها التقليدي المتداول– فهي جهاز قانوني وسّياسي يحكم الأفراد عن طريق بسط النّظام، وإدارة المصالح العامة للناس عن طريق ما يتم تسخيره من ترتيبات مادية وبشرية ، وقد تطوّرت السلطة عبر التاريخ من صورتها البدائية القديمة (كالنّظام القبلي)، إلى صورته الحديثة (كالنظام السياسي المدني).

هذا الافتراض الأولي قد يدفع – بمن يتبناه– إلى الإقرار بأن **السّلطة كيان مستقل عن المعرفة لأنها تقع في موضع آخر مختلف تماما**، و **أنّ السلطة والمعرفة قطبان مختلفان مستقلّان عن بعضهما**، لأنهما متعارضان من حيث المضمون والغايات، كمثل تعارض شخصية الطبيب الذي يبحث عن حقائق موضوعية، وشخصية الشرطي الذي يبحث عن فرض النظام العام .

جدلية السّلطوي والمعرفي تشبه إلى حدّ ما **جدلية الدّيني والسياسي**، فالدّين في مساره التّاريخي بقدر ما ادّعى بُغضَه للسّياسة ونفوره منها بحجّة أنها تتعارض مع مبادئه وتعاليمه، بقدر ما تماهى معها وتشكّل داخلها، والسّياسة بدورها قمعت الأديان لكنها وظّفتها لخدمتها في الآن نفسه.

"تَدْيِينُ" ما هو سياسي وتَسْيِسُ ما هو ديني، دفعنا بإلحاح إلى التّفكير والتّساؤل عن **ما هو معرفي داخل السّلطة، وما هو سلطوي داخل المعرفة ، وبأي صورة تتشكل العلاقة بينهما؟**.

لقد وجدنا أنفسها أمام **إشكالية معقّدة** لها حمولتها التاريخية، فقد طُرحت **جدلية المعرفة والسّلطة** بشكل أكثر حدّة في الكتابات المعاصرة، نظرا لما أحدثته حروب القرن التاسع 19 و20 من "انتكاسة" على مستوى مفاهيم الفلاسفة وموقفهم من الأنوار والتّقدم، ما استدعى مراجعة النّظم المعرفية ومدى تورطها في الصراعات القائمة، وخدمتها لأيديولوجيات الهيمنة.

ومن أمثلة هؤلاء الفلاسفة نذكر "كارل ماركس" (Karl Marx 1818-1883) الذي يفترض في أطروحاته أن الصّراع المادّي (السلطة)، و الأوضاع الاقتصادية داخل المجتمع هو ما يرسم شكل نظام التّعليم والفكر والقضاء والسّياسة؛ **فالبُنى التحتية (المادّية) – في معنى ما يقول– هي أساس الذي تقوم عليه البُنَى الفوقية للدولة (نظام الفكر)**، وقد درس أيضا تغلغل النّظام البرجوازي (كسلطة) في نسيج المجتمع الغربي عن طريق الوسائط المعرفية، كالمناهج التربوية و الوعظ الديني والحكم السياسي.

أما " فريديريك نيتشه" (Friedrich Nietzsche 1844-1990)، فالمعرفة- في نظره- ليست اجتهادا عقليا يُقبل بالمنطق والدليل العلمي، وإنّما ما يُدفع – بمنطق القّوة- إلى ساحة الوعي الجمعي من حقائق، فتصير تلك الحقائق المعنى المطابق للحياة.

لقد وقع اختيارنا على فيلسوفين فرنسيين لدراسة **"جدلية المعرفة والسلطة"**، وهما "ميشال فوكو" (Michel Foucault 1926-1984) و"ميشال دوسارتو" (Michel de Certeau 1925-1986) نظرا لما أولاه كل منهما من اهتمام بالغ لهذه الجدلية.

يفترض "فوكو" أن المجتمع الغربي انتقل من كونه مجتمعا **" قمعيا"** (société répressive) إلى مجتمع **" انضباطي"**(société disciplinaire)، وقد صَحَبَ هذا الانتقال تحوّلا في "ممارسة السّلطة"؛ فإذا كان "المجتمع القمعي" يرتكز على "التّعذيب" المباشر للجسد، فإنّ "المجتمع الانضباطي" ينزع إلى التّأديب والمراقبة. **لكن السؤال المطروح ما هو موقع المعرفة في الممارسات السّلطوية؟، وما هو الدور الذي لعبته في هذا الانتقال؟.** كيف يثبت فوكو افتراضه القائل بأن السّلطة ليست في علاقة خارجية (تقابليّة) مع السّلطة، وإنما تنشط داخلها ولا تتحقق إلا بها، وأن المعرفة بدورها لا تصل إلى أرضية ابستمولوجية إلا إذا كانت علاقات القوى دافعة لها ؟.

يقدم "ميشال دوسارتو" هو الآخر قراءته لجدلية المعرفة والسّلطة، فهو يرجح بأنّ السّلطة تتعدّى الأطر الاجتماعيّة، لتتعيّن في مجالات أخرى **كاللّغة والتّاريخ والدّين على غرار المجتمع**، ويفترض أيضا أنّ المعرفة إذا ما حللنا شروط نشأتها (المادية) بعيدا عن النظرة الابستيمولوجية المعتادة، لوجدنا

أنّ السّلطة تشكلّ أهم شروط تبلورها ، **لكن بأي صورة وعلى أي هيأة يكون للسلطة حضور في نشاط المعرفة؟.**

إذن ما هو تصور "ميشال فوكو" وميشال دوسارتو "للسلطة"؟، ما هي خصائصها؟، وكيف تمارس في سياقها التاريخي، وفي العلاقات الاجتماعية ؟. هل هي قابلة الامتلاك و التداول؟، أم أنها موزعة على جبهات ؟. هل لها منطق داخلي يحكمها، أم أنها تسير وفق صراع قوامه الفوضى؟.

ما هي طبيعة المعرفة في منظور الفيلسوفين؟، وما هي شروط نشأتها؟، وما صلتها بالممارسات الاجتماعية والسياسية و البنى الاقتصادية؟، هل هي من طبيعة "نسقية"، أم أنها خاضعة لوعي الأفراد وإرادتهم ؟.

وبدافع المقارنة نتساءل: من أي زاوية، وبأي منهج قرأ كل منهما جدلية المعرفة والسلطة؟ ما هي مجالات التّلاقي والاختلاف في تحليلاتهما ؟.

من دوافع اختيارنا لجدلية المعرفة والسلطة هو ما تحمله من رهانات جدّية، حيث أنّ مخرجاتها قد تؤدي إلى تقويض ذلك التقليد الفلسفي الذي يجعل من المعرفة نشاطا محايدا، وإن كان لها صلة بالمجتمع فهي بريئة من علاقات الصراع التي تنتجها السلطة، والتي خلفت حروبا طاحنة.

لكن أحداث القرن العشرين، والنكبات التي حلت بالإنسان المعاصر، دفعت بالكثير من الفلاسفة – بما فيهم فوكو ودوسارتو– إلى إعادة النظر في المظاهر الزائفة للتّقدم، والمكاسب الخادعة التي ظن الإنسان أنه جنى ثمارها في عصر الأنوار. كما امتد نظرهم إلى الشّك **في حيادية المعرفة،** و توجهوا بفكرهم إلى **نقد المؤسسات،** بفحص بنيتها، ومراجعة أدوارها، و فضح ارتباطاتها بالأيديولوجيات السائدة، وتوجه الدولة التي تموّلها وتتدخل في نشاطها.

والرهان الثاني الذي تحمله اشكاليتنا – والذي نراه لا يقل أهمية عن الأول– هو أنها **تعيد التفكير في موقع الانسان (الذات) في ظل ما يحيط به من أطر اجتماعية، ونظم سياسية وأوضاع اقتصادية؟ هل هو من يُسيّر هذه الكيانات بإرادته ويوجها حسب وعيه،** أم هي من تشكّل وعيه وتنحت جسده وتحدد اختياراته وإمكانات عيشه؟. هل يصح قول "الوجوديين" أن الإنسان سيد نفسه، وأنه يمكن أن يكون صاحب قرار مهما أحيط بإكراهات، أم أنّ سلطة الانسان على نفسه مفقودة، لأن هنالك مؤسسات وقوانين وأطر يخضع لها إجبارا أو طواعية ؟، وهل هنالك إمكانية لوجود فسحة للهروب والانعتاق من تلك الأطر والأنساق ؟.

من بين الصّعوبات البحثيّة التي اعترضتنا **شمول الموضوع واتساعه**، لأن مصطلحي المعرفة والسلطة من أكثر المصطلحات تداولا بين تخصصات العلوم الاجتماعية والقانونية والسياسية، لهذا كان لزاما علينا وفق ما تقتضه الضرورة المنهجية أن نتجنب السرد التاريخي، أو الشرح المعجمي الحرفي الذي يوقعنا في التبسيط والتجريد، ويبعدنا عن الإشكالية التي نود طرحها، وأن نضيّق من دراستنا حتى تشمل فقط تداول للمصطلحين في الفلسفة المعاصرة دون أن نغرق في التعميم، خصوصا إذا علمنا أن للمصطلحين حضور في الفلسفات السابقة كالفلسفة الحديثة واليونانية. كما لا ننسى أن الدراسات المقارنة من أصعب المناهج البحثية، لأن الدارس يجد نفسه أمام فيلسوفين أو مفهومين، مما يدفعه إلى مضاعفة القراءات والمجهودات.

إن المنهج المقارن هو **عملية فكرية نستخرج من من خلالها ما هو مختلف ومتشابه بين موضوعين أو مفهومين**، وهو أسلوب فهم وتأويل قائم على حركية التفكير وعمق التحليل، يمكّن صاحبه من النظر إلى الأطروحات والمواقف من زوايا ورؤى مختلفة، بغرض الخروج بفهم مركب وأصيل لطبيعة المشكلة والوصول إلى ما هو مشترك وأساسي.

لكن فعل المقارنة ليس بتلك البساطة التي نعتقد، فاستخراج المتشابه والمختلف **يستوجب قراءة هذا بذاك، وفهم هذا بذاك**، و معالجة المفاهيم في علاقاتها ببعضها داخل نظام نصّي، مما يتيح فك مركزية التفكير الأحادي، و فتح المنظور الفلسفي على أفق نقدي، كما يتطلّب الابتعاد عن التفسيرات الجاهزة، و التحيز الذي يوقع صاحبه في التعصب للمذهب والانتصار للرأي الشخصي.

إن رهان المقارنة هو في حد ذاته رهان التفكير، **إذ لا نفسر – كما يقول "دوركايم"– إلا ونحن نقارن on n'expliquent qu'en comparant**، **ونذكر أيضا ما** ورد في تقرير "فتغنشطاين" عندما قال « : **من المهم أن نغير دائما الوضعية (الجسد)** [...] **أن لا نبقى لمدة طويلة واقفين على رجل واحدة، حتى نتجنب "التشنجات"(ankyloser(s))،كذلك الذي يتسلق جبلا لمدة طويلة، أحيانا ينزل مسافة من الجبل حتى يريح ويُمرّن العضلات الأخرى** » .

فالمقارنة وفق ما يشير إليه "فتغنشطاين" تمنح الفكر المرونة من خلال تبديل المنظورات ومقاربة الأطروحات، وهو أشبه ما تمنحه حركات متسلق الجبل لجسمه من رشاقة أثناء تغيير الوضعيات.

من مبررات اختيارنا لهذين الفيلسوفين كنماذج للمقارنة هو أنهما ينتميان لنفس السياق التاريخي، فقد كانا معاصرين لبعضهما (بحكم أنهّما فرنسيان)، وشاهدين على أزمات القرن العشرين بتمزقاته الاجتماعية وصراعاته السياسية، سواء على المستوى المحلي داخل فرنسا (ثورة 1968 الطّلّابية) أو خارجها (الحرب العالمية الثانية، الثورة الإيرانية...)، وتعد الحقبة التي واكبت حياتهما من أخْصَبَ فترات الفلسفة المعاصرة التي شهدت منعرجات حاسمة في مجال الفكر، مما مكنهما من الاطّلاع على مختلف المناهج الفلسفيّة المتاحة بمختلف توجهاتها كالمنعطف اللغوي، والمنهج الوجودي و البنيوي و التّحليل النفسي و الماركسية و السيميائية و غيرها.

من دواعي المقارنة أيضا هو أن جدلية المعرفة و السلطة هي محور مناظرة وسجال بين فوكو ودوسارتو، فهما يتقاربان حينا في وجهات النظر ويتعارضان حينا آخر، مما يجعل هذا الاهتمام المشترك بينهما حقلا خصبا للدراسة الفلسفية، بدليل أنه أخذ مساحة أرحب في مؤلفاتهما، ويبقى رهان بحثنا في الجانب المنهجي هو أن نقيم مناظرة داخل نصوصهما استعانة **بالتفكير العلائقي** الذي يقضي بأن نحلل السلطة في علاقتها بالمعرفة عند الفيلسوفين، وأن ونرصد كيفية توظيف كل منهما للمناهج المختلفة في قراءة **علاقة المعرفة والسلطة**.

سنعتمد في دراسة "إشكالية جدلية السلطة و المعرفة" عند "فوكو" و"دوسارتو" على خطة بحث تتكوّن من ثلاث فصول وكل فصل يتضمّن ثلاث مباحث: سوف نخصّص الفصل الأول لجدلية المعرفة والسلطة عند "فوكو"، و الفصل الثاني لجدلية المعرفة و السلطة عند "دوسارتو"، أما الفصل الثالث فسوف نخصصه للمقارنة بين استعمالات المصطلحين عند كل منهما، وسنقف عند قراءة كل منهما لتلك العلاقة، وسنخصص المبحث الأخير من الفصل الثالث لنقد **فرضية "عمومية السلطة"** عند ميشال فوكو من خلال فكرة **"التكتيك"** التي وردت في مؤلفات دوسارتو.

الفصل الأوّل

فهرس الفصل الأول

جدلية المعرفة والسّلطة عند ميشال فوكو

(قراءة في المفهوم والمنهج)

توطئة:

المبحث الأول: قراءة في مفهوم المعرفة عند ميشال فوكو.

المبحث الثاني: مفهوم السلطة عند ميشال فوكو.

المبحث الثالث: علاقة السلطة بالمعرفة عند ميشال فوكو.

خلاصة الفصل الأول.

توطئة:

احتلت إشكالية علاقة المعرفة بالسلطة مكانة بارزة في أغلب كتابات "ميشال فوكو"، فقد انشغل في مؤلفاته الأولى- من كتاب "تاريخ الجنون"(histoire de la folie a l'âge classique1962) إلى غاية كتاب "أركيولوجيا المعرفة"- (l'archéologie du savoir1969) بالتفكير في مشكلة المعرفة في صلتها **بالتاريخ الذات والسلطة،** ويكون بذلك قد طرح ثلاثة أسئلة مركزية: **وفق أي شروط تاريخية تتشكل المعرفة؟ هل هي نتاج "بنية" (ونسق)، أم نتاج نشاط الذات؟.** وأخيرا: **كيف يدخل الصراع (السلطة) كشرط أساسي في تكوين النظم المعرفية وتوجيه خطاباتها؟.**

موقف فوكو من المعرفة – وإجابته عن هذه الأسئلة- مرهون باعتراضه على فرضيتين كانت ترددهما فلسفات الوعي، الأولى تتعلق **بالموقف الذي يجعل من "الذّات" محور كل نشاط معرفي وأصل كل خطاب،** وهي فرضية تُكرس للمنظور "المتعالي" للمعرفة" وتمثلها "فلسفات الذات" على وجه الخصوص (كالوجودية)، أما الفرضية الثانية مفادها أن التاريخ محكوم **"بمنطق داخلي"** تسير المعارف بمقتضاه في مسار خطي نحو التّطور (كالهيغلية).

ولعل الرهان الأبرز الذي كان يشغل "فوكو" في نقده لهاتين الفرضيتين هو كيف نخلص المعرفة من **قبضة التاريخ المثالي والنسقي؟، وما السبيل إلى مقاربتها بمنظور متحرر من سلطة الذّات وهيمنة الوعي انطلاقا من أسلوب بحث تاريخي لا يماثل مناهج التاريخ التقليدي (الأركيولوجيا)؟.**

كتاب " المراقبة والعقاب" (surveiller et punir, Gallimard 1975) هو إعلان صريح عن توجه "فوكو" نحو دراسة موضوع "السلطة" (وإن كانت مؤلفاته الأولى لا تخلو ولو بشكل ضمني من بعض التحليلات والإشارة إليها)، فقد خاض نقاشا فلسفيا مع أصحاب المقاربة القانونية والسياسية الذين يجيزون امتلاك السلطة باسم القانون أو الشرعية السياسية، ومع أصحاب النزعة الماركسية الذين يصوّرونها كأداة اضطهاد ومنع تديرها "أجهزة الدولة". لكن أطروحات "فوكو" جاءت على الأرجح **لتوسع وتعميق فهمنا للسّلطة، فهو ليس صاحب نظرية ولا يدعو لأي نموذج للحكم،** بل إنّ مهمته هي **تشخيص ورصد الكيفية التي تمارس بها السلطة في الجوانب المجهرية للمجتمع، بين من ومن؟ بأي كيفية تمارس على الجسد؟، ما هي طبيعة السلطة؟، ماهي استراتيجياتها ووسائل تنفيذها؟، هل هي أداة هدم أم بناء؟، كيف تتجدّد مع مُستجدّات الأحداث و متغيرات المجتمع؟ كيف تنفلت من الاستحواذ وتخترق الأفراد والخطابات و المؤسسات؟.**

في كتابه "تاريخ الجنسانية-إرادة المعرفة-" (la volonté de savoir1976)، يصل "فوكو" إلى افتراضه الأساسي الذي يقضي **بأن السلطة تحل في المعرفة فتُنتجها، والمعرفة بدورها تقوي السلطة وتوسع من آثارها،** فيكفي - فيما يعتقد- أن نُفكك بنية المعارف في المجتمع الغربي الحديث لنجد السلطة فاعلة فيها، تنسج النظريات وتتّحد بالخطابات، ويكفي أن نرصد علاقات السلطة داخل المنظومة الاجتماعية الغربية ليتضح لنا كيف تكونت المعارف في كنف الصراعات.

افتراضات "فوكو" تحمل رهانات بالغة الإحراج: فهو يسير برأيه عكس تقليد فلسفي بأكمله يفصل بين المعرفة والسلطة، على أساس أن السلطة ناتجة عن صراع الأفراد على الحكم وتحصيل القوة والمعرفة هي محصّلة بحث نظري ومنهجي عن الحقيقة، وبالتالي فالمعرفة مستقلة بنفسها وهي ليست من جنس السلطة إلا ما قد نلمسه في ذلك التوظيف الإيديولوجي لها، كأن تقوم الدولة بصياغة البرامج الدراسية أو الإذاعية وفق ما يخدم توجه الأمة وقيمها.

ألا يضفي افتراض فوكو إلى **الاعراض عن تراث ابستيمولوجي بأكمله؟، ويغض الطرف عن مجهودات العلماء الذين أنتجوا حقائق بعيدا عن الصراعات السياسية و الاجتماعية؟، وكأن لسان حاله يقول لهم: إن ما يشكّل نظرياتكم ومعارفكم هو قوة تتعدّاكم وتخترقكم وتعبركم. الصراع هو مثل البحر الذي تتحرك فيه سفنكم**. لكن هل يعقل أن نحيل المعرفة إلى السلطة دون أن يكون لإرادة العلماء أثر في تشكيلها؟. بالمحصلة نقول: **أي معرفة وأي سلطة يقصد فوكو؟، من أي زاوية وبأي منهج درس العلاقة بينهما؟.**

المبحث الأول للفصل الأول:

قراءة في مفهوم المعرفة عند ميشال فوكو

تمهيد:

1. ميشال فوكو والمراجعة النقدية لمفهوم للمعرفة:

1.1 نقد المنظور التاريخي القائم على فرضية "الاتصال".

2.1 نقد مركزية الذات.

2. قراءة فوكو لمفهوم المعرفة.

1.2 مفهوم المعرفة.

2.2 مصطلحات فوكو الأساسية (المعرفة، العلم،connaissance).

مُحصّلة المبحث.

تمهيد:

يدعو فوكو إلى إعادة التفكير بشكل جاد في مفهوم "المعرفة"، كونه الفيلسوف الذي أفرد عناية خاصة لهذا المفهوم حتى صار سمة بارزة في أغلب مؤلفاته الأساسية، وقد نجمل أهم أسئلته فيما يلي:

إذا كانت أغلب كتب التاريخ التقليدي تروي لنا تاريخ المعرفة انطلاقا من الذآت (الرّاوي)، فهل بمقدورنا أن نروي تاريخ الذّات (الغربية) نفسها انطلاقا مما تشكّل من موضوعات داخل الخطاب؟، وكيف تحوّلت "الذات" من كونها مُمَارِسة للمعرفة إلى موضوع يُمَارس عليه الفعل ذاته؟.

هل المعرفة انعكاس مباشر لمنتجات الوعي، أم أنها خاضعة لنظام بنيوي يتجاوز سلوك الأفراد وعقلياتهم؟.

كيف نُقارب تاريخ المعرفة بمفاهيم "الانفصال" و"العتبة" و"التحول" تجاوزا للفكر الاتصالي التقليدي؟، إلى أي مدى تؤثر الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في صياغة المعارف والنظريات؟.

1.ميشال فوكو والمراجعة النقدية لمفهوم للمعرفة:

اهتم "ميشال فوكو" منذ كتاباته المبكرة بمشكلة "المعرفة" (savoir)[*] (من تاريخ الجنون إلى تاريخ الجنسانية)، وقبل أن يطرح تصوره حول "المعرفة" كان لزاما عليه أن يباشر مهمة نقدية يراجع من خلالها المفاهيم التقليدية، وقد توجّه بنقده للمنظور التاريخي القائم على فكرة "الاتصال"، ومركزية الذات.

*"المعرفة" (savoir): في لسان العرب تعني "الانكشاف"، والمعارف عند العرب هي "الوجوه" (والمعروف هو الوجه الذي يُعرف به المرء)، وتعني أيضا "الاعتراف بالذنب" (والمعترفون من أقرّوا على أنفسهم ما وجب عليهم فيه الحدّ أو التّعزير). راجع ابن منظور، لسان العرب (المجلد التاسع) حرف الفاء، دار صادر، بيروت (د.ط.س) ص237-238-239. والمعرفة في اللغة اللاتينية تقابل لفظة (sapere) وتعني: (امتلاك الذّوق والذكاء، والرزانة في الحكم). وفي اللغة الإغريقية تقابل عدة مصطلحات منها: مصطلح "ماثيما" (Mathêma) وتعني: "برنامج التعليم" في جمهورية أفلاطون، ومنها اشتقت لفظة "ماتيسيس" (Mathesis) وتعني: التّدارس والتّحاور والمناظرة بالأسلوب السقراطي. والمصطلح الثاني هو: "إيدينيا" (eïdenïa) وتعني: المعرفة التي ينشدها العقلاء، لقول "أرسطو" في مقدمة كتابه "الميتافيزيقا" (كل الرجال يرغبون بحكم طبيعتهم في المعرفة- أي في إيدينيا).راجع:
Evan Gobry, *Vocabulaire grec de philosophie*, Ellipses, Paris, 2000,p81-82.

1.1نقد المنظور التاريخي القائم على فرضية "الاتصال":

اعترض "ميشال فوكو" على مقاربة "المعرفة" من منظور تاريخي قائم على فكرة "الاتصال" (continuité)[*]. وتعني فكرة "الاتصال" في التاريخ أن المؤرخين إذا ما أرادوا أن يدرسوا موضوعا معرفيا ما انشغلوا بالبحث في أصله، من أين بدأ وأين ينتهي، وانصرفوا إلى وصل السّابق من الأحداث باللاحق، ظنا منهم أن المعرفة هي نتاج تطور وعي الإنسان بالوقائع والأحداث التي ترتبط فيما بينها ارتباطا "سببيا" في مسار خطي. لقد حرص هؤلاء- فيما يقول فوكو- على « رصد الاستمرار والاتصال، والانتقال من حالة إلى أخرى، واستباق الأفكار الممهدة للأخرى، وهو غالبا ما يعكس التناقض ويجسد المفارقة » [1].

الأخذ **"بالفرضية الاتصالية"** حوّل المؤرخين إلى مؤولين للوثائق التاريخية، فقد حصروا عملهم في « حفظ آثار الماضي وتحويلها إلى وثائق» [2]، والاشتغال على التاريخ من الزاوية الضيقة لاختصاصهم، جعلهم عاجزين عن تقديم تفسيرات جادّة لتلك التناقضات الصّريحة و التّصدعات

---

[*] **التصور الاتصالي** : هو المنظور الفلسفي الذي يقرأ الأحداث التاريخية والأنشطة المعرفية في امتدادها الخطي التراكمي، من لحظة بدايتها أو ميلاد نشأتها (origine) إلى الغايات التي تسير إليها تلك الأحداث (télos) وفق مبدأ السببية، وكأن الحدث الراهن هو امتداد للحدث السابق وسبب للحدث اللاحق.
Judith Revel, *le Vocabulaire de Foucault*, éditions Ellipses, Paris, 2002, p 42.

[1] ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الطبعة2 منقحة، بيروت1987، ص157.

[2] Michel Foucault, *L'archéologie du savoir* ,Gallimard, 1969, édition 2012, p 14 .

الفاضحة والاختلافات العميقة التي انطوى عليها مسار المعرفة في تاريخ الغرب الحديث، وهم ينفرون – فيما يعتقد– أشد النفور من المفاهيم الغريبة التي تهدد نسق التاريخ وتماسكه.

وعليه فإن فوكو يُنكر أن يكون للتاريخ **"منطق داخلي"** يحكمه أو **"معقولية"** تسيره نحو غاية (déterminisme)**(*)**، وينكر أيضا أن نختزله كحقل لصراع الطبقات، (**وهو بذلك يفكر مع "نيتشه" ضد "هيغل" و"ماركس"**)، ويستشهد بكتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" ليبين أن "المقاربة الاتصالية" و"المعارف النّسقية" عجزت كل العجز عن تقديم رؤية متماسكة "للجنون"(folie)، لأن حالات "الاستيلاب"(aliénation) في الثقافة الغربية لا تُقرأ إلا في خطابات "مبعثرة" لا يحكمها أي نسق معرفي أو خطاب نصي.

لقد تبنى فوكو **"مقاربة انفصالية"**(discontinuité)**(**)** تتيح له التفكير في التاريخ بوصفه أحداثا مبعثرة وموزّعة في وثائق (الخطاب)، وأن فحص وتدقيق الوثائق كفيل بكشف

---

*__الحتميّة :__ المقصود بها المعنى الفلسفي وليس الفيزيائي، وهو المبدأ الذي تتبناه بعض التيارات الفلسفية والدينية الذي يقضي بأن الموجودات على اختلافها بما فيها الإنسان مسيرة لغاية محددة، وخاضعة لضرورة شاملة وحتمية كونية، وبالتالي لا مجال للإقرار بحرية الإنسان.

Michel Blay, Larousse, Grand dictionnaire de la philosophie, CNRS éditions , Montréal, 2005, p275.

**__التصور الانفصالي:__ هو أسلوب في التحليل التاريخي يميل أصحابه إلى قراءة الأحداث التاريخية بوصفها وقائع تحكمها سياقات اجتماعية، وتحركها الخطابات والصراعات المحلية، مما قد يحدث تحولات على مستوى البنيات المعرفية أو السياسية أو الاقتصادية، وبالتالي لا وجود في نظر هؤلاء لتاريخ كوني شامل تشترك فيه كل المجتمعات مادامت تلك الانفصالات (أي التحولات) تحدث داخل المجتمع الواحد بمستويات وكيفيات مختلفة. وقد اشتهر هذا النمط من التحليل عند بعض فلاسفة ما بعد الحداثة أمثال "نيتشه" و"باشلار" و"ميشال فوكو".

"عتبات"(seuil) [*] و"منعطفات" للفكر تتعارض مع ما ترويه السرديات التاريخية الكبرى، وعليه فمفهوم "**الانفصال**" يعني التفكير الذي يبحث عن "الانقطاعات" (ruptures) ويرصد "التّحولات" التي طرأت على "نُظم المعرفة" دون أن يولي اهتماما لأشكال الاستمرارية والاتصال.

"المقاربة الانفصالية" مكّنت "فوكو" من كتابة تاريخ للجنون، الذي وصفه في عبارة بليغة فقال عنه أنّه:« **المعنى في حالة تشظّي**»[1]، أي أنه لا يمكن قراءة "الجنون" إلا خارج النسق والنّظام العام للخطاب السائد، فقد أرخ له مقتحما شتات خطاباته وتعدد مرجعيّاته، من خلال البحث في الروايات الأدبية، وأثره في النصوص القانونية، والتّقارير الطّبية، والقرارات السّياسية والممارسات الاجتماعية.

عندما يؤرخ فوكو لموضوع اشتغاله (كالجنون، الجنس، أو الجريمة مثلا...) لا يبحث في أصله التاريخي ولا في أشكال امتداده وتطوره، وإنما يرصد "**شرطيته التاريخية**" التي أنشأته، وكيف أن هذه "الشرطية التاريخية" التي يطلق عليها مصطلح "القبلي التاريخي"(l'a priori historique)[**] تكوّنت

---

[*] العتبة: هي وصف فلسفي لما قد يطرأ على "نظام معرفي"(أو خطاب) من تحول بطيء وخفي (وأحيانا مفاجئ).

[1] Michel Foucault, *Histoire de la folie a l'âge classique*, éditions Gallimard, Paris, 1972, p 181.

[**] pour aller plus loin consultez: Mohammed Chaouki Zine, *L'apriori historique et le diagnostic de l'actualité chez Michel Foucault*, Edition Madarij, 2016, Tlemcen (l'a priori historique et le mythe de la continuité), p77.Paul Veyne, *Comment on écrit histoire, suivi de Foucault révolutionne l'histoire*, éditions du Seuil, 1978.

بفعل تلاقي منظومة من الخطابات والممارسات التي وجب إعادة تفكيكها ورسم مساراتها من جديد حتى نفهم الكيفية التي تشكلت بها المعرفة في صورتها المكتملة والنّسقية، وحتى نفهم « الكيفية التي أضحت فيها الذات تتشكّل وتتحوّل » [1].

ويعلق "فرانك إفرارد" (Frank Evrard 1960-2013) على "المقاربة الانفصالية" التي طرحها "فوكو"، حيث يقول أن الهدف منها ليس: « إحياء اتصال جديد، ولا تاريخ شمولي جديد، وإنما تهتم بكل ما يُعدّ مدخلا للانقطاع، **وكل ما يبرزُ بصورة غير قابلة للتّكرار**[...]**وكل ما يمنع التّاريخ من نزعته الشّمولية**» [2].

ونستشهد أيضا برأي المؤرخة الفرنسية "أرلت فارج"(Arlette Farge1941) التي قالت أن: « التاريخ عند فوكو لا يسرد قصصا لموضوعات بشكل تطوري- جنون، جريمة، جنسانية- وإنّما يستفهم حول تلك الموضوعات، انطلاقا من المكان المخصوص الذي مورست فيه وانبثقت - سجن، مصحة، حجز، ثكنة- وهدفه ليس تحليل ممارسات الأفراد والمقاصد الاجتماعية، وإنّما وضع موضع

[1] Naima Riahi, *Subjectivité, pouvoir et éthique*, l'Hamarttan, Paris, 2011, p 72.
[2] Frank Evrard, *Michel Foucault et histoire du sujet en occident*, Bertrand –Lacoste, Paris, 1995, p 31.

سؤال الكيفية التي تشكّلت بها المعارف والخطابات، وأنظمة السّلطة التي بدورها تتحكّم في ممارسات الأفراد» [1].

إذا كانت معرفتنا التاريخية لموضوع ما (كالجنون مثلا) مرهونة بلمّ شتات الخطابات، وفرز المقولات، والتّدقيق في العبارات، فهذا يعني دون شك بطلان وجود **"معرفة كونية"** ينشدها "تاريخ كوني"، فأغلب الظن أن "فوكو" يحصر المعرفة في أحداث تاريخية خاصة بكل مجتمع. والتاريخ كما يعرفه وفق هذا المنظور هو: « **كيفية من الكيفيات، التي يدبّر بها مجتمع مادة وثائقية لا ينفصل عنها**» [2].

2.1نقد مركزية الذات(*):

قام "فوكو" بزحزحة **ذلك الموقع الذي كانت تدعي الذات أنها تحتله في الخطاب المعرفي**، من خلال قلب السؤال الذي كان سائدا عند مؤرخي الفلسفة والذي كان كالآتي: "من أي أصل تمكّن

[1] Frank Evrard, *Michel Foucault et histoire du sujet en occident*, op.cit, p 115.

[2] Michel Foucault, *L'archéologie du savoir*, op.cit, p15 .

(*) **نقد مركزية الذات**: نعني به اعتراض فوكو على "فلسفات الذات" التي تكرس لمنظور متعال يجعل من الإنسان محور كل شيء، بحيث تُعلّق كل المسائل بما فيها المعرفة بوعيه وكينونته، وتبتعد كل البعد عن تحليل الممارسات والخطابات.

الإنسان من معرفة العالم"[*]؟، أما السؤال الذي طرحه فكان كالآتي: "وفق أي إجراءات تاريخية تشكلّت صورة الذّات في خطابات المعرفة"؟ [**] .

بدل أن نجعل من "الذات" منطلقا أساسيا للتفكير في المعرفة بوصفها "الذّات المفكّرة" (ديكارت)، غير "ميشال فوكو" زاوية النّظر ومنحى السؤال، **فجعل من التّاريخ وما ينطوي عليه من صراعات وصدف هو ما يمنح لتلك الذّات صورتها حول نفسها، وهو ما يجعل مواضيع المعرفة ممكنة،** « فلم يعد الإنسان هو منطلق التفكير في عالم الأشياء، بل أصبح هو ذاته موضوع تفكير ومُساءلة» [(1)].

ويبدي "فريديريك كروس" (Frédéric Gros- 1965) رأيه حول هذه الإزاحة قائلا:« فالمسألة في نظره- ويقصد فوكو-لا تتعلق بالتّفكير في وجود "ذات أصيلة" مُعطاة سلفا ، والتي بمقدورها التّأسيس لمعارف حقيقية، ولا بناء حقل حقائق عميقة وأبدية، لكنّ الأمر يتعلّق بوصف تاريخي لإجراءات من خلالها - في التاريخ- تحوّلت واغتربت وتشكّلت الذّوات في خطابات الحقيقة» [(2)].

---

[*] Depuis quel fondement un sujet peut-il connaître le monde ?

[**] Selon quels processus historiques s'est formée l'image du sujet dans les discours de savoir?, Michel Foucault, *Philosophie et anthologie*, établît et présenté par :Arnold I Davidson et Fréderic Gros, Gallimard, Paris, 2004, p 11-12.

[1] Michel Ngeuti, *Critique de structuralisme à partir de Michel Foucault* (l'homme est-il mort ?), l'Hamarttan, Paris, 2013, p62.

[2] Michel Foucault , *Philosophie et anthologie*, op.cit, p 12 .

تميزت "فلسفات الذات" بردّها **"العَالَمَ إلى الذّات"**، والقلب الذي مارسه "فوكو" يهدف أساسا إلى تفكيك هذا الإرث الميتافيزيقي **(*)**- ممثلا في فلسفة "ديكارت" على وجه الخصوص والفكر الوجودي الذي يزعم أن: « العالم ليس له معنى آخر، غير ما يمنحه له كل فرد بذاته في كل لحظة ومن خلال مشروعه المتناهي»[1].

وبشكل معكوس تميّزت فلسفة "ميشال فوكو" بردّ **"الذّات إلى العالم"**، وهو ردّ يوحي من جهة بنزعته اليسارية، ومن جهة أخرى بنزعته "الإسمية"(Nominalisme)**(**)** التي يعتبرها **"جوهان راجمان"** (Johan Rajhman 1946) بأنها تشكّل أحد أساليب فوكو في إزاحة الذّات، وهو يقول في هذا السياق: « لقد أنتج فوكو في الميدان التّاريخي أعمالا أقل ما يقال عنها أنها ذات نزعة إسمية، إنّها لا تحلّل الوقائع، بل المفاهيم والمقولات والتقنيات»[2].

---

* لا يدعي فوكو أنّه أول من أزاح مركزية الذات، فهو يحيلنا إلى من سبقه في ذلك في كتابه "أركيولوجيا المعرفة"و يشير إلى كل من "كارل ماركس" و"فرويد" ونيتشه"، ويعتبر إزاحته بمثابة رجّة رابعة أصّمت أذان فلاسفة الوعي وأثارت سخطهم . راجع ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الطبعة2 منقحة 1987، بيروت، ص 14و15.

[1] Jean de Lacroix, *Marxisme, existentialisme, personnalisme*, Presses universitaires de France, Paris, 1971, pp 49-50.

** **النزعة الإسمية** في كتابات فوكو تعني أن تحليلاته تجاوزت الوقائع والأحداث والسلوكيات، وتوجهت نحو تحليل الخطابات.

[2] Johan Rajhman, *Michel Foucault (la liberté du savoir)*, Traduit de Langlais Sylvie Durastanti, Presses Universitaires de France, Paris, p 66.

"الذات" لا تُفهم – في نظر فوكو- بالماهيات، (ماهيتها العقل، النفس و الحرية...)، وإنما تُفهم بثالوث آخر هو التاريخ، الخطاب والممارسات (لهذا وصف بصاحب النزعة الإسمية). فالذات عنده ليست وعي الإنسان بذاته واستقلاله عن العالم، وإنما هي نتاج ما نسجه التاريخ من خلال "خارجية"(extériorité)، وهاته "الخارجية" هي مجموع الممارسات والخطابات التي خضعت لها الذات وتشكلت في نسيجها، "فذات المجنون" مثلا لم تكن لها صلة مباشرة "بماهية" المرض، وإنما تشكلت تاريخيا بين "خطاب طب المرض العقلي" بتفرعاته المختلفة وبحمولته القانونية والاجتماعية وبين ممارسات مؤسسات الحجز بحمولتها الأخلاقية والسياسية، والتي كانت تختص بإخفاء المجانين ومعاقبتهم وعلاجهم.

إن نقد "فوكو" لفلسفات الوعي هدفه على الأرجح تخليص المعرفة من **"مأزق التاريخ التقليدي المثالي (métahistoire) (*) الذي يتم بموجبه رد المعرفة من الكثرة إلى الوحدة**، وتحريرها من المفاهيم التقليدية والتقسيمات التاريخية الجاهزة، وهو نقد يسوق فوكو إلى **تفكيك مركزية الذات عندما يرد وحدتها إلى الكثرة**، أي تحليل التقنيات والممارسات التي أنتجت الذات الغربية (الجينيالوجيا).

* Le dilemme métahistorique :selon " Johan Rajchman" désigne : l'attitude qui réduit la diversité d'évènements à la cohérence de quelque ordre objectif. Johan Rajhman, *Michel Foucault (la liberté du savoir)* op.cit,p66.

نقد "فوكو" لفلسفات الذات في كتابه المشهور "الكلمات والأشياء"، وإعلانه "لموت الإنسان" أثار الكثير من السخط والاستهجان في الأوساط الثقافية الفرنسية والعالمية، وقد بلغ الأمر ببعض النّقاد إلى تشبيه كتابه "الكلمات والأشياء" بكتاب "هتلر" "كفاحي"، و زعموا أن مضمون هذا الكتاب «يهدد حقوق الإنسان»[1] و يتنكّر لكل ما له صلة به، كالإرادة والحرية، والثورة والتقدّم.

وقد خصص فوكو فصولا من كتابه "أركيولوجيا المعرفة" للّرد على خصومه، معتبرا أن ما يثير سخط هؤلاء الحالمين –كما وصفهم- ليس غيرتهم على (الإنسان) ولا خوفهم على مصيره. فمضمون كتابه لا يهدد إلا تاريخهم الميتافيزيقي المزيّف، الذي تحوّل إلى قلعة مشيّدة تتحصّن فيها "الذات" بمنأى عن أي نقد، فتاريخهم-كما يقول-: «يعدّ الرديف الملازم للدور التأسيسي للذات»[2]. وما أثار سخطهم : « وما يذرف عليه هؤلاء الدموع، ليس هو اختفاء التاريخ، بل انقراض ذلك الشكل من التاريخ الذي كان يحيل ضمنيا وبرمته إلى النشاط التركيبي للذات، وأن ما كانوا يموتون حسرة عليه، هو تلك السيرورة التي كان عليها أن تحفظ الوعي في مأمن أقل عرضة من المخاطر من الأساطير، ومنظومة القرابة واللغات والجنس»[3].

[1] Gilles Deleuze, *Foucault*, les éditions de Minuit, Paris, 1986/2004, p11.
[2] ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المصدر السابق ، ص 13.
[3] المصدر نفسه، ص 15.

2.قراءة فوكو لمفهوم المعرفة:

1.2 مفهوم المعرفة:

"المعرفة" (savoir)كما يعرفها "ميشال فوكو" هي: « مجموع العناصر المكوَّنَةُ بكيفية منتظمة من طرف ممارسة خطابية» [1] ، و في موضع آخر يقول إنها:« ما نستطيع أن نَتحدث عنه داخل ممارسة خطابية»[2]. بشكل أوضح المعرفة هي "الموضوعات" التي نتجت عن "خطابات" [*] متفرقة، أو هي ما يكون محور حديث و نقاش وتداول، بشرط أن يكون لتلك الموضوعات أثر على مستوى الممارسات.

ومن الجلي أن مفهوم "المعرفة" عند "فوكو" تضمن إزاحة صريحة "لمركزية الذات"، فهو لم يجعل منها منطلقا لأي نشاط معرفي كما فعلت الفلسفات "الترنسندنتالية"، بل بالعكس حاول أن يستقرئ تاريخ الذات وأشكال الوعي من خلال تحليل الخطاب والممارسات، وما يثبت ذلك أن السؤال الأساسي الذي طرحه في كتابه "الكلمات والأشياء" تمحور حول الكيفية التي تحولت فيها الذات إلى

1 ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المصدر السابق، ص168.

2 المصدر نفسه، ص.168

*"الخطاب" لا يشير به فوكو حصرا إلى النصوص والمؤلفات التي قد تصدر عن الأفراد بوعي منهم والتي قد نتخذها كمرجع في البحث والكتابة، وإنما الخطاب في اعتقاده (وبمفهومه الواسع) هو مجموع ما قيل وكُتب في الوثائق، بشكل متفرق هنا وهناك، دون أن نحيل مضامين تلك الوثائق إلى ذات مؤسِّسة، والغاية هي أن نقرأ تلك المضامين مع تعليق مصدرها (المؤلف) وقصديتها (التأويل)، ونكتفي بتلاقي مدلولاتها وما تحيل إليه، لذا يعتبر فوكو أن ملاحظات السجن والنصوص القانونية، وتقارير الأطباء، والروايات والتعليقات الهامشية هي خطابات يمكن الاعتماد عليها في كتابة تاريخ مواز للتاريخ الرسمي المشيّد.

موضوع معرفة، « كيف تشكلنا في التاريخ كموضوع لمعارفنا؟ » [1]، وعلى مستوى الممارسات: «كيف تشكلنا كذوات تمارس وتخضع لعلاقات السلطة؟ » [2].

ويتضح لنا من خلال السؤالين أن المعرفة عند فوكو هي نتاج تحليل الممارسات الخطابات وغير الخطابية، لهذا فقد عمل على تفكيك "النظام المعرفي "(الإبستيميات) لعصر الحداثة من خلال الاشتغال على أربع معالم على مستوى الخطاب وهي: « الجنون، المرض، الجريمة ، والرغبة» [3]، أما على مستوى الممارسات فهنالك أربع معالم أخرى اشتغل عليها تماشيا مع الجوانب الخطابية وهي:« الحجزl'asile السجن prison، المستشفىhôpital، والحياة la vie» [4].

ما يشير إليه فوكو بمصطلح "معرفة" **هو هذا التركيب بين دراسة الجوانب الخطابية والجوانب اللاخطابية، تحليل للأقوال والممارسات،** لكن كيف يتم التّوفيق بين هذين الجانبين؟

يجتهد "جيل دولوز" (Gilles Deleuze 1925-1995) في الإجابة عن هذا السؤال، فالمعرفة عند فوكو-في رأيه- هي تركيب بين تحليل الخطاب والممارسات، أو كما يقول في:« ترتيب الملفوظات

[1] Véronique Bedin, *Pensées rebelles (Foucault-Derrida-Deleuze)*, la petite bibliothèque des sciences humaines, Auxerre, 2013, p30-31.(comment nous sommes-nous constitués comme objet de notre savoir ?)
[2] Ibid (comment nous sommes-nous constitués comme sujets qui exercent et obéissent de relations du pouvoir ?).
[3] Stephan Leclercq, *Abécédaire de Michel Foucault*, les Editions Sils Mari, Mons (Belgique), p175.
[4] Ibid.

والمرئيات»[1]. ويشير أيضا إلى أن فوكو انشغل بدراسة التّحولات التي طرأت – في كل عصر- على "نظام العبارات"(régime d'énoncés) و "فضاء المرئيات" (l'espace de visibilités)، ولا يتوانى "دولوز" في تقديم مثال من فلسفة فوكو: ففي العصر الكلاسيكي كان "فضاء المرئيات" ممثلا في الحجز كمكان **"للعزل"** (exclusion) قد تداخل مع "نظام عبارات" مثلته الخطابات القانونية والطبية والسياسية التي سعت إلى تمييز الجنون بوصفه حالة قصوى من "اللاعقل" (déraison).

لكن حدث تحول في القرن الثامن عشر على مستوى العبارات والمرئيات; فعلى مستوى المرئيات تم اختراع "السجن" (كبديل للحجز)، وقد تميز بجهازه الرقابي الصارم وبتقنياته التأديبية الدقيقة، وفي مجال الخطابات ظهر "نظام عبارات" جديد يتلاءم مع طبيعة السجن وهو "القانون العقابي"(droit pénal)، وهي "العتبة" (seuil) التي يصفها "دولوز" بأنها اللحظة التي صار فيها كل من العباري والمرئي يستمد مشروعيته من الآخر[*]، وهو يقول واصفا ميلاد السجن :« في شروط مغايرة سيكون السجن أسلوبا جديدا في الرؤية وفعل الرؤية، والجنوح كنمط جديد من العبارات»[2]. "فالجنوح" (délinquance) كما شخّصه فوكو في كتابه "الحراسة والعقاب" هو النظام الخطابي الذي

---

[1] Gilles Deleuze, *Foucault* , op.cit, p 58.

[*] Mohammed Chaouki Zine a interprété cette relation entre ***Dire*** et ***Voir*** disant que:(Foucault tente d'analyser le ***régime de visibilités*** et ***l'ordre d'énoncés*** qui se donnent à voir autrement. Pourquoi voir et dire autrement ? Pour la simple raison c'est que Foucault se tient à *être-là* du discours, sans noyau interne qu'on pourrait extraire, ni un sujet qui serait l'auteur). Mohammed Chaouki Zine, *l'apriori historique et le diagnostic de l'actualité chez Michel Foucault*, op.cit, p15-16.

[2] Gilles Deleuze, *Foucault*, op.cit, p 56.

يُشرّع للجريمة ويمنح السّجن مُبرّر وجوده فيصير العقاب مقبولا وأقل عنفا، بخلاف أساليب التّعذيب التقليدية. وما يدعم إزاحة فوكو "لمركزية الذات" في رأي "دولوز" هو أن « هذا التحديد بين المرئي والملفوظ في كل عصر، يتجاوز السلوكيات والعقليات والأفكار، لأنه هو من يجعلها ممكنة»[1].

وبالرجوع إلى "طب الأمراض العقلية" (psychiatrie)، فإن فوكو نفسه يعترف بأهمية تأثير الممارسات في بلورة وتكوين هذا الفرع المعرفي إذ يقول: « بحثنا في ذلك المبحث المعرفي – ويقصد الطب الأمراض العقلية– أوقفنا على أمرين: فما جعل هذا الفرع ممكنا في الفترة التي ظهر فيها هو مجموع العلاقات القائمة بين الحجز والشروط الاقصاء الاجتماعي وطرقه، والقواعد التشريعية و معايير العمل الصناعي والأخلاق البرجوازية، أي باختصار مجموعة كاملة ميزت تكوين عبارات تلك الممارسات»[2]. ومضمون القول يوحي باهتمام فوكو بتحليل الممارسات بقدر اهتمامه بدراسة الخطابات، لأن استقراء تاريخ "طب الأمراض العقلية" بيّن أنه لا يشمل فقط النظريات والمفاهيم فهو كما يقول:« ليس ما كان يُظن أنه صحيحا، بل هو مجموع السير والمواقف الغريبة والانحرافات التي أمكن الحديث عنها ضمن الخطاب الطب–عقلي»[3]، أي أن الجوانب اللاخطابية كان لها تأثير مباشر في بلورة الفروع المعرفية وتكوين موضوعاتها.

---

[1] Gilles Deleuze, *Foucault*, op.cit, p 56.

[2] ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المصدر السابق ص، 165.

[3] المصدر نفسه، ص 168.

لكن لا ينبغي أن يُفْهَمَ من التفاعل بين الخطابي واللاخطابي هو أن أحدهما يختزل الآخر، إذ أن لكل منهما نظامه الخاص، وغالبا ما يتفاوتان في نظام وجودهما، ويعلّق "جيل دولوز" قائلا:« في رأي فوكو لم يكن لأماكن المرئيات نفس النسق، نفس التاريخ، مقارنة بحقل المنطوقات، وأفضلية المنطوق لا تكون إلا وفق هذا التمايز، كونه يمارس على شيء غير قابل للاختزال»[1].

ويستشهد "دولوز" بمثال حي من فلسفة فوكو، "فالمستشفى العام" في فرنسا استمد نظامه المرئي من أسلوب الشرطة في الحراسة والعزل والرقابة، في حين أن "نظام العبارات" في المستشفى استمده من أفق آخر، من الأخلاق البرجوازية والأحكام الاجتماعية، وبالتالي لم يكن للخطاب وللمرئي نفس النسق ولا مستوى الحضور على الرغم من التفاعل الحاصل بينهما.

نفس الشيء ينطبق على "السجن" فهو الآخر في رأي "دولوز": « لم ينشأ من القانون العقابي كأسلوب تعبير، لقد نشأ من أفق انضباطي آخر وليس قانوني، والقانون العقابي بدوره أنتج عبارات الجنوح بشكل مستقل عن السجن، وكأنه يضفي دائما إلى القول بطريقة ما فيقول "هذا ليس سجنا"»[2]. بالمحصلة نقول أن "المعرفة" في نظر فوكو هي "نظام الفكر" الذي تشكّل من تلاقي الخطابات وتأثير الممارسات في عصر معين، وهو نظام مستقل عن "الذوات" وعن المسار الخطي

1 Gilles Deleuze, *Foucault*, op.cit, p 55.

2 ibid, p 69.

للتاريخ الذي ترويه السرديات الكبرى، ففي كل مجتمع "نظام فكر" (معرفة) محلي موصول بممارسات وبنوع محدد من الخطابات.

2.2 مصطلحات فوكو الأساسية (الإبستيمي، المعرفة، connaissance، العلم)

هنالك عدة مفاهيم وردت في كتابات ميشال فوكو وجب علينا التمييز بينها: "الإبستيمي"[*] (épistémè) هو المفهوم الأعم، لأنه يشمل كل أشكال المعرفة بما فيها العلم والممارسات الاجتماعية ويقصد به فوكو الأسلوب الذي كان يُنظر من خلاله إلى العالم والأشياء وقضايا الإنسان، ويعرفه على أنه:« مجموع الرّوابط القائمة بين العلوم، والأشكال الإبستمولوجية، و الوضعانيات والممارسات الخطابية » [(1)]، ويعرفه "فرانك إفرارد" على أنّه:« الإطار الفكري الخاص بعصر معين [...] وهو الكيفية التي نمنح بها موضوعات العالم معنى محدد » [(2)]. إنّه باختصار الحيز التاريخي الذي تنتظم فيه وتتفاعل مجموعة من الخطابات **خارج إكراهات اللغة والمنطق والسيكولوجيا**.

---

[*] في كتاب "الكلمات والأشياء" رصد فوكو ثلاث نماذج من "الإبستيميات" في تاريخ الغرب الحديث الأول: قام على مبدأ "التشابهات" (ressemblances) في عصر النهضة، والثاني قام على نظام "التّمثّلاث" (représentations) في العصر الكلاسيكي، أما النموذج الثالث فظهر في القرن الثامن عشر وتحول فيه الإنسان نفسه إلى موضوع معرفة (sciences humaines). راجع كتاب: ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، فريق ترجمة: سالم يفوت-مطاع الصفدي، مركز الإنماء العربي، لبنان،1990.

[1] ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المصدر السابق ، ص177.

[2] Frank Evrard, *Michel Foucault et histoire du sujet en occident*, op.cit, p29.

و"المعرفة" مفهوم أخص من "الإبستيمي" لأن فوكو يقصد به حصرا – كما بيّنا – التفاعل بين الخطابات والممارسات، **كالتفاعل بين الحجز ونظام خطابه، وبين السجن والنظام الجديد لعباراته.**

يميز "فوكو" أيضا بين مصطلح "معرفة" (savoir) و"كونيسونس"[*]،"كونيسونس": يشير بها إلى مختلف إجراءات العقلنة والتّصنيف، ومحاولات الكشف التي طالت موضوعات مختلفة بما فيها الإنسان، ويشمل هذا المصطلح خطابات العلوم و الدراسات التجريبية التي تقوم على "إجراءات الموضوعية "(les processus d'objectivations)، ومؤلفات "فوكو" لا تخلوا من سرد تقنيات العلماء في التجريب والمفهمة لمواضيع كالأمراض والجنون والجنس، **فكل نظرية تدعي الحياد والموضوعية وتزعم أنها تقدم حقائق مستقلة حول الإنسان يصنفها ميشال فوكو ضمن ما يشير إليه بمصطلح "كونيسونس".**

أما مصطلح "المعرفة" فيربطه بإجراءات "التذويت" (processus de subjectivation): و**هي الممارسات التي صارت فيها "صورة الذات" تتشكّل وتتعدّل وتتغيّر باستمرار داخل الخطابات من جرّاء تأثير التّطبيقات العلمية والممارسات الاجتماعية،** فعندما نقول "معرفة حول المجانين"(savoir sur les fous) أو "معرفة حول المجرمين" (savoir sur les criminels)، فالمقصود هنا سرد تاريخ تكوّن هذه "الذوات" دون الرّجوع إلى أي نقطة بدء، ودون الإشارة إلى أي أصل.

* connaissances.

"المعرفة" تختلف عن "العلم" (science)[*]، لأن "المعرفة" **هي الحقل الخطابي العام الذي يوفر للعلم شروط تحققه،** لكنها ليست ماضيه الإيديولوجي أو مرحلة سابقة عنه، وإنما هي – إن صح القول– **شرطيته التاريخية**– فالمعرفة كما يقول فوكو:« لازمة لتكوّن علم من العلوم، رغم أنها غير موكلة لها ضرورة فتح المجال لظهوره » [1]، ويؤيد "دولوز" رأي "فوكو" عندما يعتبر أن المعرفة تتهيأ في صورة « عتبات تأخذ اتجاهات مختلفة، والعلم هو إحدى تلك العتبات » [2]، مما يعني أن العلم مفهوم أخص من المعرفة.

كما أن شروط تحقق "العلم" مرهونة بالمجال الخطابي الذي يحتويه، ومقيد بممارسات بالغة التعقيد والاتساع، **لذا فالعلم يتأثر ويتبدّل وفق ما يطرأ على الخطابات والممارسات من تحولات، وبالتالي فهو ليس بتلك الصلابة النّظرية التي نعتقد.** ويرفض فوكو أن يُحال العلم إلى ذات مُؤسِّسَة كانت لها الريادة في إبرازه، لأن تكوّن موضوعات العلم وتشكل نظرياته يتجاوز وعي الأفراد، وفي صلة العلم بالمعرفة يقول:« ثمة ارتباط نوعي بين العلم والمعرفة، وبدل أن يقيم التحليل أركيولوجي بينهما علاقة

---

[*] Jacqueline Russ a distingué nettement dans son livre « *philosophie, savoir et pouvoir* » entre le concept **"*savoir*"** et **"*science*",** déclarant que (:le savoir désigne un ensemble pratique articulé et organisé d'éléments, à partir duquel une science, système de relations formelles et expérimentales, pourra s'engendrer. Par exemple le savoir de médecine est constitué de fonctions d'examen, d'interrogations, d'enregistrements , d'institutions médicales de techniques d'accueil, et de soin de patient, de réactions collectives vis-à-vis de la maladie... ***C'est dans ce champ articulé de connaissances que nait la science médicale*.),** Jacqueline Russ, *philosophie (savoir et pouvoir)* Tome1, Hatier, Paris, 1980, p 5.

[1] ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المصدر السابق ، ص168.

[2] Gilles Deleuze, *Foucault*, op.cit, p 59.

إقصاء ونبذ، بالبحث عما ترسب من المعرفة في العلم وبقي محافظا على نفسه داخلها ومستقرا ومتواريا عن الأعين، وعما بقي من العلم مشتبها في أمره من جراء مخالطته وتأثره بها، **يبرز بشكل إيجابي كيف ينخرط العلم في عنصر المعرفة ويزاول عمله فيه** » [1].

ويميز فوكو أخيرا بين "العلم" وما يشير إليه بمصطلح " الوضعانيات" (positivités)، فإذا كان العلم هو كل خطاب استقل بموضوعه ومنهجه وانفرد بوسائله التجريبية، وصار لا يقبل ما هو خارج عنه، وهو يُخضع الخطابات المغايرة لشروط تجعلها – وفق معايير علمية – إما مقبولة أو مرفوضة، فإن "الوضعانيات" هي فروع معرفية استقلت بمنظومتها الخطابية، لكنها بقيت متداخلة مع خطابات أخرى ومخالطة لها، مما دفع فوكو إلى وصفها بأنها "**أشباه علوم**" أو " **نظريات لم تكتمل**": كالاقتصاد السياسي والتاريخ الطبيعي، وقد انشغل بدراستها بدل أن يدرس علوما مكتملة، وهي كما يقول عبارة عن ميادين « لا تشكل علما ذا بنية فكرية محددة » [2].

[1] ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المصدر السابق ، ص166.
[2] المصدر نفسه، ص168.

محصّلة المبحث:

منظومة الخطابات وأشكال الممارسات إذا امتزجت فيما بينها شكلت نسقا معرفيا نرصده داخل كل مجتمع على حدى وفي أزمنة مختلفة، فكل مجتمع له أسلوب خاص في إنتاج المعرفة، على حسب لغته، ونمط نظام حكمه، والصراعات السائدة فيه. وإذا حلّلنا الممارسات والخطابات – فيما يعتقد فوكو-**بأسلوب تقني تغلب عليه النّزعة الإسمية، و دون أن نتّخذ من الإنسان وإرادته ووعيه منطلقا للتّفكير**، سيتبيّن لنا كيف انبثقت النّظريات و المعارف، وكيف تحددت اختيارات العلماء في التفكير في هذا الموضوع دون ذاك. هذا بيان على أن صورة الإنسان كانت تتشكل وتتبدل داخل نسق المعرفة (مجنون، مريض، جانح...)، وعليه فالمعارف ليست نتاجا لما قرّره وعي الأفراد (وتلك هي أخاديع فلسفات الوعي)، بل بالعكس **وعي الأفراد واختياراتهم هي نتاج لبنية متوارية** ! أي نتاج لما قرّرته خطابات رسمت مواقفهم وشكلت مفاهيمهم ونحتت واقعهم (البنية).

هذا هو الموقف النقدي "لفوكو" اتجاه المعرفة كما صورتها الفلسفات المثالية والإنسانية، وهو موقف ينكر فيه الصّورة النّمطية للإنسان العاقل الحر التي كرست لها الفلسفة الوجودية و الديكارتية.

المبحث الثاني للفصل الأول

مفهوم السلطة عند ميشال فوكو

تمهيد:

1.نقد التصور الكلاسيكي للسلطة.

1.1 نقد فرضية "امتلاك السلطة"

2.1 نقد "الفرضية القمعية" السلطة.

2.مستويات تحليل السلطة في كتابات ميشال فوكو.

1.2 من السلطة التقليدية إلى ميكرو فيزياء السلطة

2.2 من السلطة الانضباطية إلى السلطة على الحياة

محصّلة المبحث.

تمهيد:

"أحداث ماي 1968"، وتنامي الحركات اليسارية في العالم، والتحولات العميقة التي جرت في القرن العشرين [*] كان لها أثر بالغ في توجيه فكر "ميشال فوكو" نحو دراسة موضوع "السلطة"[**]. لقد صرّح في أحد حواراته [***] أن من بين الأسباب التي دفعته للكتابة في موضوع السلطة هو أنه لم يجد تحليلا جادا لها سوى التحليلات الاختزالية المتحيزة (صراع اليمين ممثلا في السلطة الرسمية مع اليسار)، فكل فريق يسعى إلى إدانة سلطة الطرف الآخر، ويضيف في نفس السياق أنّ انخراطه كمناضل في الحياة اليومية أوحى له بمدى مرونة السلطة وانفلاتها من حقول السياسة والقانون. إذن:

ما هو تصور فوكو للسلطة؟.

---

[*] القرن العشرون هو قرن حروب وصراعات بامتياز، فقد شهد حربين عالميتين، وفوضى اجتماعية داخل الدول وامتداد لحركات استعمارية قابلتها ثورات مضادة، وتغيرات عميقة في أنظمة الحكم السياسي، (ونخص بالذكر أحداث ماي 1968 في فرنسا) وما كان لها من أثر على مستوى الفكر الفلسفي (الفرنسي والعالمي) راجع:
Luc Ferry, Alain Renault, *pensée 68 (Essai sur l'antihumanisme contemporain)*, éditions Gallimard, Paris, 1988.

[**] من الناحية المعجمية، هنالك اختلاف بين المصطلحات الثلاثة: "السلطة" (pouvoir)، "القدرة" (puissance) و "القوة" (force): القدرة لها معنى فيزيائي، أي استطاعة الكائن على إحداث الفعل أو الحركة، و"القوة": لها معنى مادي وهي وسيلة الاخضاع و استعمال العنف، كقوة الشرطة التي تقمع المظاهرات، أما "السلطة" (pouvoir) فهي مصطلح له حمولة سياسية واجتماعية وأخلاقية، وهي على حسب - "توماس هوبز"- **"الأثر الناتج عن علاقات الإخضاع والخضوع بين أفراد المجتمع"**، وما يميز "السلطة" هو أنها غير قابلة للاستحواذ، لأن أقطابها تتصارع فتؤثر وتتأثر في شبكة من العلاقات، دون أن يكون لإحدى تلك الأقطاب مشروعية امتلاكها راجع:
Michel Blay, op.cit, p840.

[***] حوار أجراه "م. فونتانا" مع "ميشال فوكو" ونُشر في مجلة "القوس" (l'arc) العدد 77 (1977): راجع ميشال فوكو، نظام الخطاب، من الصفحة 55 إلى 72.

1. نقد التّصور الكلاسيكي للسلطة (المقاربة السياسية والماركسية)

1.1 نقد فرضية "امتلاك السلطة" :

لا يُنكر "فوكو" وجود سلطة سياسية مارست سطوتها على أفراد المجتمع(*)، بل ما يُنكره ويعمل على نقده **هو أن نختزل ممارسة السلطة برمتها في السياسة، و لا نترك هامشا أرحب لتحليلها خارج هذا الإطار**. وعليه فقد انتقد "نظرية السيادة" (théorie de souveraineté) التي طرحها "توماس هوبز" (Thomas Hobbes1588-1679) في كتابه المشهور "ليفيتان" (Léviathan) التي تُصوّر السلطة بوصفها **الحالة التي يخضع فيها الأفراد لحكم الدولة** على اعتبار أنهم –وبحكم الشر المتأصل فيهم– يغالبون بعضهم ويكيدون لغيرهم، وهم بذلك يعيشون "الحالة الطبيعية" التي تسود فيها حرب يكون فيها "الكل عدوا للكل"[1] (guerre de chacun contre chacun)، وعليه فالسلطة يجب أن **تمتلها الدولة دون سواها وتفرضها على الجميع**، من خلال تطبيق القوانين التي تحقق المواطنة والحياة المدنية، وبالتالي فقد تصوّر "هوبز" السلطة بمعنى تنازل الفرد عن سلطته طواعية لصالح سلطة الدولة « من أجل الحصول على خير بيّن » [2] كالسلم والاستقرار والعيش المشترك...

---

*في مطلع كتاب "المراقبة والعقاب"، يصف المؤلف أساليب التعذيب، وساحات المشانق (درميان) كشواهد على هيمنة الملك السياسية، مما يعني اعترافه بوجود ممارسة سياسية للسلطة، **لكن سرعان ما سيحدث تحول عميق في المجتمع الغربي سيؤدي إلى اختفائها وظهور نمط جديد من ممارسة السلطة.**

[1] Olivier Nay, *Histoire des pensées politiques (la pensée politique occidentale de l'Antiquité à nos jours)*, Armand Colin 2016, Paris, p 170.

[2] Thomas Hobbes, *Léviathan* (traduction originale de Philippe Folio 2002) chapitre 10: de pouvoir, de la valeur, de la dignité), p77.

يتضح لنا من الموقف السياسي "لتوماس هوبز" أنه أولا: جعل السلطة **قابلة للامتلاك** بحيث تمارس بين الحاكم والمحكومين، ثانيا **هي انعكاس لإرادة الفاعلين الاجتماعيين** وما يقررونه بوعي منهم (العقد الاجتماعي)، ثالثا: **هي ثمرة تأمل** لما اقتضته الحاجة إلى التعايش تجاوزا للفوضى والاقتتال. وبالإجمال بالنسبة "لهوبز" كما يقول فوكو « حالة اللا–حرب هي التي تؤسس للدولة وتشّكل صرحها المكتمل » [1].

هذه المقتضيات الثلاث أعرض عنها "ميشال فوكو" واعتبر أن الأخذ بها يسوقنا إلى تحليل عقيم للسلطة، ويبعدنا عن الفهم العميق لطبيعتها، ومن شواهد رفضه قوله في أحد دروسه التي ألقاها في "كوليج دوفرانس"« يجب دراسة السلطة خارج نموذج "ليفياثن"[*] وخارج الحقل المحدد من طرف السيادة القانونية والمؤسساتية للدولة، **يجب دراستها انطلاقا من تقنيات وتكتيكات الهيمنة**، وهذا هو الخط المنهجي الذي يجب في اعتقادي اتباعه، والذي حاولت اتباعه في مختلف بحوثي التي قدمتها » [2].

عندما سئل فوكو عن الفرق بين النظرية التقليدية للسلطة والنظرية التي يقدمها، رد قائلا بأن الأمر لا يتعلق "بنظرية" بالنسبة له، بقدر ما يتعلق **بأسلوب منهجي في تحليل موضوع "السلطة"**.

---

[1] Michel Foucault, *Dits et Ecrits, tome 3*, Edition établie sous la direction de Daniel Defert et François Ewald, Gallimard 1994, Paris, (il faut défendre la société), p 129.

[*] نسبة لكتاب "توماس هوبز" (Léviathan): و هو حيوان بحري أسطوري يرمز به هوبز لهيمنة الدولة.

[2] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع (دروس ألقيت في كوليج دوفرانس سنة1976)، ترجمة وتقديم: زواوي بغورة، دار الطليعة للطباعة 2003، بيروت، ص 58.

إن النظرية التقليدية – فيما يقول– « تعالج السلطة من وجهة نظر حقوقية، فهي تبحث عن مشروعيتها وحدودها وأصلها، في حين أن بحثي متوجه **لتقنيات السلطة. لتكنولوجيا السلطة:** بحثي يحاول دراسة الكيفية التي تكون فيها السلطة أداة هيمنة وخضوع » [1]. فما يشهده المجتمع باستمرار من صدام المحاور وتنامي أقطاب الصراع والمقاومات دليل على حيوية السلطة، ولا أحد تقريبا فيما يعتقد فوكو قدم دراسة جادة وموسعة لهذا الجانب.

إن تصور فوكو للسلطة تجاوز القراءة السياسية التي تقيمها على فكرة الامتلاك، وقد أعرض عن سؤال الماهية (ماهي السلطة)، ليتبنى موقفا وظيفيا (fonctionnalisme) يمكنه من دراستها من حيث هي علاقات، فالعلائق التي تقيمها القوى إذا ما تمكنا من تحليل وظائفها وكيفية اشتغالها في ديناميتها المستمرة نكون قد اقتربنا إلى وصف دقيق لطبيعة السلطة.

2.1 نقد الفرضية القمعية :

انتقد فوكو الأطروحة الماركسية التي تختزل السلطة في "أجهزة الدولة" (les appareils d'états) التي تمارس "القمع" على الأفراد بأساليب مختلفة (مادية ورمزية) حتى تحتويهم في ترسانة الاستهلاك والإنتاج، وبالتالي فقد كرس الماركسيون بتصورهم هذا لثنائية **"الهيمنة والخضوع"** بحيث يتحول النظام السياسي إلى مجرد واجهة للحكم البرجوازي، يقول زعيم الماركسيين "لويس التوسير" (L.Althusser1918-1990): « تبين لنا أن كل إيديولوجيا تخترق الأفراد لتحولهم إلى ذوات، لصالح

[1] Michel Foucault, *Dits et Ecrits, tome 3*, (la société disciplinaire en crise) op.cit, p 532.

ذات كلية واحدة مطلقة ومجردة » [1]، ويستشهد بالإيديولوجية الدينية (المسيحية) التي تحول الأفراد (individus) إلى مؤمنين (sujets) لصالح ذات مطلقة هي الإله.

لقد قرأ الماركسيون السلطة **بمنظور اختزالي وايديولوجي** يحصرها في "صراع الطبقات"، أي أنها انعكاس لصراع مادي تحركه الأوضاع الاقتصادية والحاجة إلى الامتلاك. وما يؤاخذه فوكو عليهم هو أنهم طبعوا السلطة بطابع "السلبية"(négativité)، أي أنها قوة قامعة مانعة تنفذها « أجهزة الدولة التي تستعمل العنف » [2]. وأمعنوا في وصفها بألفاظ سلبية كأنها قوة تسلب الحرية، تسلب الحق، تمنع، تعنّف، ومن دلائل اعتراضه قوله:« يجب التوقف على الوصف المعتاد لآثار السلطة بمفاهيم سلبية: كأنها تقصي وتقمع وتكبح وتمنع، كأنها تخفي وتحجب، في الواقع إن السلطة **تنتج**: تنتج واقعا، تنتج ميادين بحث وطقوس حقيقة، وحتى الفرد والمعارف يمكن أن ندرجهما ضمن هذه الانتاجية » [3].

وتُفهم كلمة "انتاجية" بمعنى أن السلطة **ليست قوة سالبة مانعة، بل هي قوة منتجة دافعة** وهي الآلة المحركة للقوى التي تسرّع أو تبطيء ظهور هاته النظرية أو تلك ، تخفي أو تظهر هاته الحقيقة أو تلك، وهي التي تدفع بسيادة خطاب دون غيره ، **فالغلبة تولد الحقائق وتبتكر الأخلاق وتنحت**

[1] Louis Althusser, *l'idéologie et l'appareil idéologiques d'état, 1970*, p55.
[2] Ibid, p22.
[3] Michel Foucault, *Surveiller et punir*, Gallimard, Paris, 1975, p 227.

الذوات، وتمتد إنتاجية السلطة لتشمل مختلف ميادين الحياة كإنتاجية اقتصاد، وانتاجية أخلاق، وانتاجية حقيقة و خطاب و قيم... وليس فقط الإنتاجية بالمعنى المادي (الاقتصادي).

وإجمالا لما سبق نقول أن كل من **التصور الماركسي والسياسي** اختزلا السلطة فيما يسميه فوكو "**الوظيفة الاقتصادية**" (fonctionnalité économique)، وكأن السلطة **عملة قابلة للامتلاك والتداول والتنازل**، في حين أن تصوره يقوم على افتراض أنها صراع قوى بين أقطاب دائمة التنازع والتدافع، تنقلب فيها بشكل مستمر مواقع القوة والضعف بحيث تمارس على الجسد بتقنيات بالغة الدقة والتخفي والتعقيد. وتبقى المقاربة الماركسية في نظره غير كافية ولا وافية في كشف طبيعة السلطة ويصرّح بأن قراءته جاءت لتجيب عن سؤال مختلف يوسع ويعمّق من فهمنا لطبيعة السلطة وهو: كيف تمارس السلطة في النسيج الاجتماعي ككل؟ كيف تمارس في الحياة اليومية وليس فقط بين الطبقات؟.

يفترض فوكو أن منطلق تحليله للسلطة يدفعه إلى إبراز بعض ملامحها: فهي أولا تتميز "**باللامركزية**". ليست مملوكة لنخبة، ولا هي هيمنة أحادية لطبقة على طبقة، وإنما هي "**تقنيات إكراه**" (techniques de contrainte)، و"**علاقات قوى متصارعة**"[*] (rapports de forces)

[*] يعتقد فوكو أن أغلب الناس عندما يسمعون كلمة سلطة يحضر في أذهانهم: الجيش، الشرطة والعدالة، أي تلك القوى التي تفرض النظام وتمنع الجرائم، في حين أن علاقات السلطة توجد على شكل علاقات صراع:**(بين رجل ومرأة، بين الذي يعلم والذي لا يعلم، بين الأولياء والتلاميذ، وداخل العائلة. داخل العائلة يوجد ملايين علاقات السلطة، وبالمحصلة علاقات الصراع، أي مواجهات صغيرة، وصدامات مجهرية) راجع:**
Michel Foucault, *Pouvoir et savoir*, Dits et Ecrits, tome 3,op.cit, 406.

متناهية في الصغر ونافذة في الجوانب المجهرية للمجتمع، تتقلب فيها أدوار الغالب والمغلوب لحد يمكّنها من التلاعب والتأثير في الهياكل القانونية والصروح السياسية، فعلاقات السلطة تتعدى البنية الفوقية السياسية والقانونية لتمتد: « إلى أطرافها البعيدة والتي تقل فيها الممارسة القانونية » [1].

إن السلطة ليست هيمنة المركز (الدولة) على الأطراف، والمنظور الأصح- الذي تبناه فوكو- هو الذي يحللها **من الأسفل لا من الأعلى، في انتشارها الأفقي لا في امتدادها العمودي،** حيث يقول: « يجب القيام بتحليل تصاعدي للسلطة، أي انطلاقا من الآليات القليلة، الضئيلة والمحدودة جدا والتي لها تاريخها الخاص، ومسارها الخاص، وتقنياتها الخاصة[...]يجب تحليل الطريقة أو الكيفية التي تظهر فيها السلطة في المستويات السفلى، حيث التقنيات والاجراءات السلطوية تلعب، وتُظهر كيف أن هذه الاجراءات تنتقل مع ظواهر كلية وشاملة، وتمتد وتتغير وتتحول، وكيف أن سلطات عامة حيث المصالح الاقتصادية قد تنزلق في لعبة هذه التقنيات، والتي هي في الوقت نفسه مستقلة، ومتناهية في سلطتها » [2].

الملمح الثاني هو الابتعاد عن مقاربة السلطة بوصفها "نظرية"، لأنها في اعتقاد "فوكو" "**ظاهرة تاريخية"- ولا تُفهم منفصلة عن تاريخيها**- ظاهرة تنكشف على شكل **"ممارسات"** وليس

[1] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع ، المصدر السابق، ص 53.
[2] المصدر نفسه، ص 55.

نظريات، « فهي لا توجد إلا في الفعل » [1]، و ترتسم في صورة **"آثار"** (effets) "لسلط مبعثرة" (pluralisme)[*] تنتشر بشكل شبكي. « تحليل السلطة – كما يقول – يجب أن يكون كشيء **حركي ومنتشر ومتداول**، أو باعتبارها تعمل كسلسلة. **لا تتركز السلطة هنا أو هناك، ليست بين يدي أحد، وهي لا تمتلك كما تمتلك الثروة أو الأملاك[...]السلطة تعمل وتشتغل، السلطة تمارس في شبكة، يكون الأفراد فيها في وضع الخاضعين وأيضا الممارسين للسلطة** » [2].

الملمح الثالث هو **"إثبات الصفة القصدية للسلطة" (intentionnel non subjectif)**: التي تتجاوز ذاتية الأفراد، فهي ليست انعكاسا لإرادتهم وغاياتهم وإنما ينبغي تحليلها من زاوية كونها **"استراتيجية هيمنة"** خارجة عنهم (extériorité)، أي بوصفها **"أساليب وحيل إخضاع وخضوع"** وما قد يترتب عنها من آثار، وأفعال وردود أفعال. إذ يقول فوكو معلقا على هذه الصفة:« لا يتعلق الأمر بتحليل السلطة على مستوى القصد أو القرار، فلا يجب أخذها من الجانب الداخلي، ولا يجب طرح هذا السؤال: من يمتلك السلطة؟ ما الذي يدور في رأس الحاكم؟ إذا أردنا أن نحلل السلطة، **يجب أن لا نفكر في المقاصد[...]بل يجب تحليل الجانب الخارجي للسلطة حيث تكون في علاقة مباشرة مع موضوعها وهدفها[...]**لا يجب طرح السؤال: لماذا هنالك من يرغبون في الهيمنة؟ وعم

---

[1] Ayman Nyenyezi Bisoka et Cécile Giraud, *Néolibéralisme et subjectivité (Michel Foucault et l'épreuve de la globalisation)*, Presses universitaires de Louvain 2020, Bruxelles, p 36.

[*] **Pluralisme**: selon Foucault désigne que ***"le pouvoir est partout"***, il s'agit d'une **omniprésence de foyers de forces irréductibles.**

[2] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع ، المصدر السابق، ص 54.

يبحثون؟ وما هي استراتيجيتهم الجماعية؟ **ولكن كيف تحدث الأمور، وما هي اجراءات الإخضاع المستمرة التي تخضع الأجساد وتقود الأفعال وتحكم السلوك؟** » [1].

الملمح الرابع "للسلطة" **هو ارتباطها الوثيق بالجسد في ماديته و تاريخه** [*]، **فكتابة تاريخ للجسد في اعتقاد فوكو سيكون كاف لتفكيك بنية السلطة**. فهو يؤرخ لها من خلال سرد ما يسميه "تقنيات" (technologies) [**]. "تقنيات" في تعذيب الجسد، وكلمة "تقنية" تعني: **المقادير المحسوبة، والخطط المضبوطة في إخضاع الجسد لممارسات مجهرية بالغة التعقيد والتخفي** "فالتقنية" هي حيل السلطة واستراتيجياتها، طرائقها وأساليبها في التّحكم في الجسد. إنها فنون بالغة الخفاء والدقة. يقول فوكو: « الجسد هو أيضا غاطس ضمن حقل سياسي، فعلاقات السلطة تعمل فيه عملا مباشرا، فهي توظّفه، وتقوّمه، وتعذّبه، وتجبره على أعمال، وتضطرّه إلى احتفالات وتطالبه بدلالات » [2].

---

[1] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع ، المصدر السابق، ص 53.

[*] أغلب المؤرخين في اعتقاد فوكو نظروا إلى الجسد **نظرة ضيقة**، كمحط للمتع أو ككتلة مادية لها وظائف حيوية لكن الجسد في نظره **مادة السلطة وهو موثوق أشد الوثاق بالسياسة**، وهي رابطة يطلق عليها مصطلح **" الاقتصاد السياسي للجسد" (l'économie politique du corps).**

[**] **تكنولوجيا السلطة** (**technologie du pouvoir**): مصطلح له حضور لافت ومكثف في كتابات فوكو ينتقد من خلاله من يعتقدون أن السلطة تعتمد على التنكيل، فهي ليست قوة عمياء بقدر ما هي **استعمال محسوب للعنف**، ومما يثبت ذلك وصفه للتعذيب (supplice) في كتابه "المراقة والعقاب" بأنه **(اقتصاد في إحداث الألم)**، مما يوحي بالطابع العقلاني (والاستراتيجي) للسلطة .

[2] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب (ولادة السجن) ترجمة: علي مقلد، مراجعة: مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت 1990، ص 64.

وبالمحصلة نقول أن السلطة في نظرة فوكو **ظاهرة تاريخية وليست وقائع سياسية، قوى متعددة وصراع أقطاب وليست هيمنة أحادية، تقنية لها سياستها وليست سياسة تقليدية متصلة بمقاصد الأفراد.**

ولا يفوتنا أن نقول بأن موقفه من السلطة مرتبط بنظرته إلى المجتمع، فقد تصور المجتمع **"كساحة حرب"** وبالتالي فهو يطرح **"فرضية الصراع" (l'hypothèse de conflit)** كبديل "لنظرية السيادة" عند "هوبز"، فالمجتمع أبعد من أن يكون بنية منسجمة يحكمها القانون، ويعتقد "جون فرانسوا برت" (Jean-François Bert 1976) أن نظرية السيادة في الفلسفة السياسية المعاصرة لم يكن الغرض منها فقط التأسيس لسلطة الدولة وتقديم نموذج الانسان الحقوقي، بل عملت وبشكل ضمني على« **استبعاد أي خطاب فلسفي يطرح فرضية الحرب** » [1].

كما وظّف فوكو إحدى عبارات "كلوزويت" (1831-1780Clausewiz) ليدعم "فرضية الصراع" والتي تقول أن:« السياسة هي الحرب بوسائل أخرى » [2]، فالحرب قد تتم بوسائل رمزية ومجهرية بين محاور داخل المجتمع غير التي نراها في الحرب بين الجيوش.

[1] Jean François Bert, *Introduction de Michel Foucault*, op.cit, p58.
[2] Karl Von Clausewitz, *De la guerre*,(1832), Naville (trad), Paris, Minuit,1955,p67.**(la politique est la guerre par d'autres moyens**).

2. مستويات تحليل السلطة في كتابات ميشال فوكو:

يرصد فوكو في كتاباته ثلاث تحولات طرأت على ممارسة السلطة في المجتمع الغربي الحديث وهي: السلطة التقليدية – ميكروفيزياء السلطة الانضباطية – السلطة الحيوية.

1.2 من السلطة التقليدية إلى ميكروفيزياء السلطة:

1.1.2 السلطة التقليدية الملكية:

في الفصول الأولى لكتاب "المراقبة والعقاب" يصف "ميشال فوكو" تحولا عميقا قد طرأ على ممارسة السلطة في المجتمع الغربي الحديث; ففي القرن 17 كانت السلطة الملكية التقليدية تعتمد على التعذيب العلني كنوع من الانتقام السياسي من المجرم، وهي سلطة تميزت **بالهمجية والطقسية**(*) لأنها تقوم على ترهيب المتفرجين حتى تحضر في أذهانهم سطوة الملك وقسوته، فهي سلطة تستمد فعاليتها من التخويف عن طريق الإعدام (سلب الحياة). يقول فوكو في وصف تعذيب "داميان": « فوق منصة الإعدام[...]يرجى قرصه بالقرّاصة في حلمتيه وذراعيه ويديه وشحمات فخذيه[...]وبعدها يمزق جسده ويقطع بواسطة أربعة أحصنة، ثم تتلف أوصاله وجسده بالنار حتى تتحول إلى رماد يذرى في الهواء » [1].

(*) **الطقسية** (ritualité du pouvoir) : هي فرجة الجماهير على مشهد الإعدام وما يصحبه من مراسيم مهيبة خصوصا "الطقس الديني"، فحضور القس واجب حتى ينزع اعتراف المجرم بذنبه قبل إعدامه كشرط للغفران قبل الموت.

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب(ولادة السجن)، المصدر السابق، ص 47.

واستمرت السلطة على هذا النحو حتى منتصف القرن 18، لكن حدث تحول سرّع من ظهور سلطة جديدة من نوع خاص، فما هي هذه التحولات التي غيرت من بنية السلطة في العصر الحديث؟.

يرصد فوكو ثلاث تحولات أدت إلى اختفاء السلطة السياسية الملكية: **تحولات على مستوى البنية الاقتصادية، البنية السياسية والاجتماعية، وعلى مستوى بنية القانون الجزائي.**

تغير البنية الاقتصادية:

يذكر فوكو أنه في مطلع القرن 18 زاد بشكل ملحوظ النمو الديمغرافي وتراكمت الثروات، مما فاقم مشاهد البؤس والعطالة التي كانت تحتاج إلى تبرير أو إخفائها على الأقل من المشهد العمومي وازدادت أيضا الحاجة إلى اليد العاملة المنتجة، **فما عاد بمقدور السلطة التقليدية أن تُعدم هؤلاء البؤساء لأنهم ليسوا أعداء مباشرين للملك،** فدعت الضرورة إلى أن تغيّر السلطة من تكتيكاتها لتحتويهم (*).

* نلمس في أكثر من موضع أثر المنهج الماركسي في تحليلات ميشال فوكو للسلطة، فلولا تغير البنية الاقتصادية (المادية) والديموغرافية لما دعت الحاجة لتغير بنية السلطة، دون أن نغفل أثر المنهج البنيوي الذي يبدو واضحا هو الآخر .

تغير البنية الاجتماعية والسياسية:

كانت مشاهد التعذيب العلنية تغذي مشاعر السخط والعداء ضد الملك، مما فاقم من عدد خصومه ومنتقديه، حيث أصبح المجرم يُصوَّر في مخيال متفرجين على هيئة بطل، ويصور الملك على أنه قاتل معتدي [*] فلم يعد التخويف يجدي نفعا.

تغير البنية القانونية الجزائية:

نتيجة للتحول السياسي والاقتصادي، كان لزاما على القوانين الجزائية في ذلك الوقت التخلي عن عقوبة الإعدام العلني، والبحث عن نظام جزائي جديد يتماشى مع المستجدات الاقتصادية والسياسية، خصوصا وأن نمط الجرائم قد تغير – فيما يروي فوكو– وصار يقوم على الاختلاسات والتحايل والسرقة وهي مخالفات لا يمكن أن تواجه بعقوبة الإعدام، خصوصا أنها لا تحمل في مضمونها أي عداء للملك، وليس في مقاصدها أي غاية سياسية.

لقد بدأت الرمزية الانتقامية للملك تتفكك من قانون العقوبات الذي لم يعد بمقدوره إعدام مئات السّرّاق والمُختلسين، هنا وبالذات زادت الحاجة إلى "الأمن" (sécurité)كبديل للانتقام السياسي، وبدأت القوانين تتشدد في العقوبات الاقتصادية، وبدأ البحث الفعلي عن

* تستهدف السلطة التقليدية الملكية عينة من المجتمع وهم المجرمين أو المعارضون السياسيون، فتعمل على التشهير بهم وتوزيع مطبوعات تروي جرائمهم، لكن سرعان ما تحول هؤلاء المجرمين في مخيال الكثيرين إلى أبطال محررين يمثلون قيم الضعفاء، وتوثيق جرائمهم صار في نظر فوكو **يُقرأ قراءة سياسية،** مما حوّل هؤلاء فيما يقول إلى **(نموذج سياسي للمقاومة).** راجع كتاب: ميشال فوكو، المراقبة والعقاب (ولادة السجن)، المصدر السابق، ص 94-95.

تكتيك يُمكّن من التحكم الشامل في أفراد المجتمع لا في عينة بعينها، وهو إعلان لميلاد نمط جديد من السلطة تسمى "ميكروفيزياء السلطة".

2.1.2 ميكروفيزياء السلطة : (microphysique du pouvoir)

بفعل تلك المؤثرات التي ذكرناها **في الاقتصاد والسياسة والقانون،** دعت الحاجة إلى استحداث سلطة غير مشخصة في إرادة الملك، وغير ذي سمة سياسية، سلطة يسميها فوكو "ميكروفيزياء السلطة"، وهي ترتكز أساسا على استراتيجية مغايرة يطلق عليها مصطلح **"النظام الجديد في الرقابة المعممة"**(nouveau système de surveillance élargie): بمعنى أن السلطة أضحت ترتكز على "الرقابة المعممة" بدل اعتمادها على العقاب الانتقائي تماشيا مع زيادة الكثافة السكانية و كثرة الجرائم، وبالتالي لم يعد العدو السياسي للملك ولا المجرم الفرد هو المستهدف، بل الرقابة ستعم كافة شرائح المجتمع، وصفة "مجهرية" السلطة هنا (microphysique) تعني: أنها انتقلت من كونها سلطة مشخصة في إرادة الملك وتحمل رمزية الانتقام السياسي، إلى سلطة معممة ليس لها مصدر ولا تعبر عن أي إرادة، وإنما هي "تقنية[*]" و"حيل سيطرة" تستهدف إخضاع الجسد الاجتماعي ككل.

[*] يكثف فوكو من استعمال مصطلح "تكنولوجيا"(technologie) أو (تقنية) في وصفه للسلطة ليشير إلى طابعها الاستراتيجي، ولينزع عنها أي صفة تحيلها إلى إرادة الأفراد ومقاصدهم.

ولميكروفيزياء السلطة عدة مميزات وهي:

أ- تلطيف العقاب (la peine adoucie) :

مصطلح يصف به فوكو التعديلات التي أدخلت على القوانين الجزائية في القرن 18، والتي تسمح بتخفيف أساليب العقاب لتجعلها أقل عنفا، وبموجب تلك القوانين تم استبدال عقوبة الإعدام بالسجن وفقدان الحقوق، وهذا **"التكتيك الجديد"** في التعامل مع الجسد في نظر فوكو جعل من السلطة **أكثر سطوة وفعالية وتحكما من ذي قبل**، يقول:« تلطيف العقاب غايته العثور على تقنيات جديدة لكي يتم الاستناد إليها في ضبط العقوبات وتكييف مفاعيلها، ووضع مبادئ جديدة لتنظيم ولتهذيب ولتعميم فن العقاب[...] وتقليص كلفته الاقتصادية والسياسية[...] وباختصار تكوين اقتصاد جديد وتكنولوجيا جديدة لسلطة العقاب، تلك هي دون شك الأسباب الأساسية الموجبة للإصلاح الجزائي في القرن الثامن عشر » [1].

ويتصور فوكو أن تعديل القوانين الجزائية جعل الجانحين ليسوا أعداء للملك فسحب بل **أعداء للمجتمع ككل وللنظام والقانون**، فالمجرم كما يقول: « أضحى شخصا أسوأ من "عدو الملك" لأنه خائن، إنه وحش فكيف لا يكون للمجتمع عليه حق » [2].

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب(ولادة السجن)، المصدر السابق ، ص 115.
[2] المصدر نفسه، ص 116.

ب- المراقبة المعممة (surveillance élargie):

القانون الجزائي الذي تأسس في القرن 18 تضمن في رأي فوكو وجوب التشدد مع كل أشكال الانحراف والزيغ الاجتماعي مهما صغر، وهو قانون لا يتسامح مع الجرائم ذات الطابع الاقتصادي، و يشجع في الآن نفسه المعايير الأخلاقية الموجبة للعمل والطاعة والاستقامة، وهي خاصية يشير إليها فوكو بمصطلح **"فن تعميم العقاب"**، ويسميه في مواضع أخرى **"التكنولوجيا الجديدة لسلطة العقاب"** وهي مؤشرات تدل على الطابع المعمّم للسلطة.

ت- الاحتواء أو العزل (l'exclusion):

أعدت السّلطة الحديثة مجموعة من المؤسسات التي تتولى احتواء العاطلين والمنحرفين وذلك لكثرة عددهم، ويشير فوكو إلى "ميلاد السجن" كحدث بارز في المجتمع الغربي الحديث، وإذا كان العقاب في السلطة التقليدية يحدث بشكل فوري (الإعدام)، فإن عقاب السجن في ميكروفيزياء السلطة هو **عقاب استباقي** يقوم على إحداث حرب استباقية على كافة أفراد المجتمع وعلى المسجونين على وجه الخصوص، حرب **على التّمثلات والنوايا والمقاصد والحركات**.

وتغيير نمط العقاب ترتب عنه تغير في الضريبة التي يدفعها المعاقَب، ففي السلطة القديمة كان المجرم يدفع ثمن فعلته من جسده ولحمه، بالجلد أو الشنق أو الإعدام، لكن في "ميكروفيزياء السلطة" تم اقحام العقاب في معادلة هي أشبه **"بالمفاوضة الاقتصادية"** (وهو أمر طبيعي في نظر فوكو نتيجة لظهور المجتمع البرجوازي). مفاوضة تقوم على **"ثنائية الربح/الخسارة"**، أي أن السلطة تُصوّر للمجرم

أن ارتكاب الجرم لا مكسب من ورائه، فهو يؤدي إلى الخسارة وهي على حد تعبير فوكو خسارة المكاسب والحقوق والامتيازات وأهمها سلب الحرية (السجن) بدل سلب الحياة (الإعدام)، أما المجرم إذا انضبط واستقام وصار شخصا مُنتجا ونافعا للمجتمع سيسترجع جميع حقوقه وسيتمتع بامتيازات، يقول فوكو:« يجب أن تكون العقوبة في نظر الناس ليس أمرا طبيعيا وحسب بل مفيدا، يجب أن تكون بحيث يستطيع كل فرد أن يقرأ فيها مكسبه الخاص[...] يجب أن تكون العقوبات بحيث تُرى وكأنها تعويض يدفعه المجرم لكل مواطنيه، من أجل الجريمة التي أضرت بهم جميعا » [1].

إن إعدام المجرمين مع كثرتهم لم يعد يجدي نفعا [*]، إذ لا يمكن الاستفادة من المعدومين، زيادة على ما قد يخلفه إعدامهم من تمرد وسخط، والخيار الأكثر فعالية هو **مساومتهم وتخييرهم بين الانحراف الذي فيه خسارة لكل مكاسبهم والانضباط الذي فيه نفع لهم**، وكأن ميكرو فيزياء السلطة صارت تساوي بين **الانحراف والخسارة** وبين **الاستقامة والمنفعة.**

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب(ولادة السجن)، المصدر السابق ، ص 133.

[*] توقيف الاعدام العلني وتعويضه بالسجن **لا علاقة له - في نظر فوكو- بتقدم في القيم الانسانية وأخلاق الرحمة بل الأمر مرتبط بالأساس بتغير في تكتيكات السلطة، حيث سرّع ظهور المجتمع البرجوازي من استحداث استراتيجيات جديدة للسيطرة قائمة على الاحتواء والمساومة بدل القتل**، وهي استراتيجيات أقل عنفا لكنها أشد تقييدا للحريات وتضييقا لإمكانات واختيارات الأفراد، **وينتقد فوكو حد السخرية من شعارات حقوق الإنسان لأن مضمونها** جاء متلائما مع تكتيكات السلطة، وداعما لسيطرة النظام البرجوازي على الحياة العامة.

2.2 من السلطة الانضباطية إلى السلطة الحيوية (أو السلطة على الحياة):

يميز فوكو في كتاباته بين نوعين من السلطة: "سلطة انضباطية" (pouvoir disciplinaire) تستهدف الجسد الفردي في علاقته بالأمكنة وبالأزمنة وبالجسد الجماعي، و"سلطة حيوية" (biopouvoir) تستهدف السكان في علاقتهم ببيئتهم وأنشطتهم العضوية الحيوية.

1.2.2 السلطة الانضباطية (pouvoir disciplinaire):

أ. في معنى "الانضباط" (discipline):

يعرف فوكو "الانضباط" في كتابه "المراقبة والعقاب" بأنه:« **حيل صغيرة مزودة بقدرة كبيرة على الانتشار، وترتيبات لطيفة ذات مظهر بريء** » [1] تجد لنفسها مكانا داخل المؤسسات، وهو أيضا « مجموع تقنيات الإكراه التي تمارس وفق أنظمة مُقيِّدَة، للوقت، وللأمكنة، ولحركة الأفراد » [2]،

ويوجز فوكو استراتيجية "الانضباط" في الأسئلة الآتية: « كيف نراقب شخصا بعينه؟، كيف نتحكم في سلوكه و في هيئته و ملكاته؟، كيف نكثف من كفاءته ونضاعف من قدراته؟، كيف نضعه في المكان المناسب الذي يجعله أكثر نفعا؟ » [3] .

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابق ، ص 160.

[2] Judith Revel, Le vocabulaire de Foucault, op.cit, p 21.

[3] Michel Foucault, *Dits et Ecrits, tome 4,* Edition établie sous la direction de Daniel Defert et François Ewald, Gallimard, Paris, 1994, (les mailles du pouvoir), p 191.

لعل هاته الأسئلة توضح أن الانضباط ليس قوة سالبة تُعنّف الجسد كما كان في حالات الإعدام، بقدر ما هو قوة تنتجه و تتحكم فيه بوسائل ناعمة، وتستغل طاقته وتوجهه لأغراض نفعية ومدروسة، ولا يُفهم الانضباط إلا من خلال التفصيل في التقنيات التي تكونه وهي كالآتي:

اخضاع الجسد الفردي:

كيف نتحكم في "جسد الفرد" وفي ملكاته وسلوكه وحركاته، وكيف نجعل كل أنشطته نافعة؟ سؤال يبين أن "الانضباط" يتوجه إلى "جسد الفرد" في ماديته من أجل إخضاعه، وتوظيف آليته الحيوية، فهو لا يعدو أن يكون كما يقول فوكو« حيلة السلطة في تفريد الأجساد » [1] وفرزها وتعريضها لمقاصد محسوبة.

وشرط تحقق الانضباط هو أن يكون الجسد مادة اشتغال السلطة بحيث « يُلعّب ويُكيّف ويُدرّب ويُطوّع ليستجيب ويصير ماهرا » [2]، ويسترسل فوكو في بيان ذلك مما نلاحظه **في تدريبات الجنود في الثكنة، ووقفات التلاميذ في باحات المدارس، وأنشطة العمال في المصانع، فحركات أجسادهم خاضعة لتدريبات تجعل منها حركات مُصحّحة ومُعدّلة، لتكون فعّالة وطيّعة، ومُوجّهة لأغراض معلومة.**

[1] Michel Foucault, *Dits et Ecrits, tome 4,*op.cit, (*les mailles du pouvoir*), p 193.

[2] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدرالسابق، ص 150.

تشريح الجسد الاجتماعي:

نظرا لتنامي المجتمع الرأسمالي، دعت الضرورة إلى إخضاع الكثافة السكانية وأمواج اليد العاملة فأصبح يُنظر إلى المجتمع وكأنه جسد يحتاج إلى **"تشريح"** (**anatomie**)، ووسائل "التشريح" عند فوكو عديدة أهمها : أولا إعداد **"أجهزة"** [*] (**dispositif**) لتتولى احتواء الجماهير، ثم مباشرة خطة **"التحكم"** (**contrôle**) [1]: **والتحكم هو استباق الجنح قبل حدوثها، والإلمام بمقاصد الأفعال وكشف المخططات قبل تحققها**، ثم ثالثا إنجاز خطة **"التربيع"** (**quadrillage**) وهو تقسيم المدينة كالشوارع والأحياء إلى وحدات حضرية معزولة ومراقبة، والغرض من ذلك تمكن الشرطة والأمن من مراقبة الأفراد ومحاصرتهم بوصفهم خلايا، وتسهيل الوصول إليهم عند الاقتضاء .

وقد لاحظ فوكو أن هذه الإجراءات المستحدثة في المجتمع الغربي في القرنين 18 و19 هي نتاج لمطلب سياسي عاجل هو إحاطة المجتمع بهاجس الأمن (sécurisation de la société) .

---

[*] الجاهزيات- أو الترتيبات (Disposifs) : يميز فوكو بين نوعين من الجاهزيات: **جاهزية ذات طابع مادي** وهي الصروح المرئية المنظورة، والبنايات المشيدة تشييدا مدروسا محكما يمكنها من احتجاز فئات بغرض إصلاح سلوكها وتصويب أخلاقها، كالسجون والمصانع والمدارس والثكنات، وهنالك **جاهزيات ذات طابع رمزي** تستحوذ على الحقيقة وتنتج الخطابات كالمؤسسات العلمية والسياسية والدينية، وقد نجد في جاهزية واحدة تداخل بين **الأبنية والخطابات**، لأن مقصدها واحد وهو السيطرة والتحكم. راجع: جوديث ريفل، معجم ميشال فوكو، المرجع نفسه، (مصدر الجاهزية)،ص24.

[1] Judith Revel, *Le vocabulaire de Foucault*, op.cit,(concept contrôle) p 15-16-17.

اقتصاد الوقت:

وهي من أهم حيل السلطة الانضباطية، حيث تقوم المؤسسات بتقطيع الوقت وادخاله في علاقة اقتصادية مع الجسد، أي وضع برنامج زمني يخضع له الجميع كما هو معروف في البرنامج اليومي للثكنات والمدارس والسجون (**جرس الاستيقاظ، وقت غسل اليدين، وقت العمل أو الدراسة، وقت النوم...**).

لقد استمد الانضباط نموذج نظام الوقت في رأي فوكو **من أديرة الرهبان الذين يلتزمون بمواقيت الصلاة والترتيل**، ويفيد اقتصاد الوقت في الانضباط لأنه يدخل الجسم في آلية مدروسة تنظم حركاته و تتحكم في أنشطته، فحركات رجال الجيش ومشيتهم المنتظمة هي برمجة للجسد وفق نظام وقتي دقيق ومدروس، وقد تدمج حركاتهم الفردية في حركة جماعية فتصير مرتبة ومتزامنة وكأنهم آلات[*]. « إن الوقت المقاس – فيما يقول – والمدفوع الأجر يجب أن يكون أيضا وقتا عاريا من الشوائب والعيوب، وقت من نوعية جيدة يكون الجسم مستغرقا في عمله كليا، فالمحافظة على الوقت والاجتهاد والانتظام من الفضائل الأساسية في الوقت الانضباطي » [1].

[*] يقوم **"الانضباط"** في رأي فوكو على "اقتصاد الوقت" **وهي تقنية تقوم بتقنين العلاقة بين الجسم وأدواته** (التلميذ وقلمه / الجندي وسلاحه /العامل وآلته...)، وضبط علاقة الجسم بأدواته ينبئ برغبة المجتمع البرجوازي في خلق تكنيك سلطوي يخترق الجسد ويسيطر عليه حتى في أدق تفاصيله، بحيث يتحقق فيه نوع من "الأداتية" أو "الوظيفة النفعية" المتحكم فيها.

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابق ،ص 168.

التمرين وسميائية الإشارة:

إخضاع الأفراد في المؤسسات لتمرينات جسدية هو إحدى شروط تحقق الانضباط، فلا تخلو مدرسة أو ثكنة أو سجن من التمرينات الجسدية، قد تكون على شكل عقاب أحيانا أو جزء من روتين البرنامج اليومي، والتمرين هو جزء من تقنية الإكراه هدفها محاربة الكسل والخمول والعطالة وكلها مظاهر يعتبرها فوكو مؤشرات على هيمنة المجتمع البرجوازي.

أما "سميائية الإشارة" فهي ما قد يصدر من علامات صوتية أو حركية تحدث استجابة فورية وآلية لدى المنضبطين، **كأن يُدقّ الجرس فيتحرك العمال، أو يُقرع المعلّم على الطاولة فينتبه التلاميذ أو يصرخ قائد الجيش بكلمة فيغير الجنود وضعية أجسادهم**، والتمرينات تسير جنبا إلى جنب في الغالب مع "سميائيات الإشارة"، وهما إحدى دعائم الانضباط ووسائل تنفيذه.

البانوبتيكون (Panopticon) أو نظام المراقبة الجديد:

"البانوبتيكون" هو أسلوب حديث في الهندسة المعمارية، استعاره فوكو من كتابات "جريمي بنتام" (Jeremy Bentham 1748-1832)، ليشير به إلى نمط هندسي فريد في بناء السجون يمكّن الحراس من مراقبة المساجين من وراء زجاج عازل، بحيث يشعر المساجين بوجود عين تراقبهم وتترصدهم دون أن يحدد مكانها.

يقوم "البانوبتيكون" في الأساس على حيلة نفسية هي أن (**تُرى من حيث لا تَرى**) [*]« إنه تجهيز مهم لأنه يجعل السلطة آلية وينزع عنها طابع الفردية. مبدأ هذه السلطة لا يقوم في شخص بقدر ما يتجلى في توزيع مدروس للأجسام وللسطوع و للأضواء و للنّظرات »[1].

ولول جاز لفوكو أن يصف المجتمع الغربي الحديث وصفا وافيا، لقال أنه مجتمع يعمه "البانوبتيكون" في جميع جوانبه، وكأن نموذج بناء "السجن" قد تعمّم وامتد ليشمل بنايات المدن ومرافقها كالمدارس والمعاهد والثكنات وحتى المصحات والعيادات.

ويُحسب "لجيريمي بنتام" فيما يقول فوكو أنه قدم للمجتمع الغربي نموذجا مكتملا للكيفية التي تتم بها "المراقبة" (regard) البصرية الفعالة دون تكلفة مادية باهضه، بدليل أن "بنتام" طرح سؤال مهما هو: « ماذا تكلفنا الرقابة مقارنة بالعنف؟ » [2]، فالعنف السياسي مثلا قد تكون له تكلفة مادية ثقيلة، فعندما نكون عنيفين « قد نجازف في إثارة معارضة أو ردود أفعال غاضبة » [3]، أما المراقبة فهي « تتطلب تكلفة أقل لأننا لا نحتاج فيها أسلحة، أو عنف جسدي، أو إكراهات مادية

---

[*] le *panoptique* se base sur une manière ***de faire voir et de cacher, en éclairant violement le surveillé en masquant le surveillant*** .Consultez: Olivier Razac, *Avec Foucault après Foucault (disséquer la société de contrôle)*, op.cit, p21.

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابق ص 211.

[2] Michel Foucault, *Dits et Ecrits, tome 3,*(l'œil du pouvoir),op.cit, p p197-198.

[3] Ibid.

»[1]، وإنما العين التي تحرس تجعل كل شخص يشعر أن الأنظار مسلطة عليه، **بحيث ينتهي به الأمر إلى "استبطان" (intérioriser) تلك الرقابة ليكون هو رقيبا على نفسه، وهكذا تصبح السلطة–كما يصفها فوكو– أشبه "بالآلة المتحركة" (machinerie)، التي تحرك الرؤى وتُشعر الجميع أنهم مُرَاقَبين ومُرَاقِبين في الآن نفسه.**

ب. تعميم الانضباط أو ظهور المجتمع الانضباطي(la société disciplinaire):

تتميز "السلطة القانونية" (pouvoir juridique) بتقييدها للحريات، **فهي تعاقب لتمنع الممنوع ولتدفع الأفراد إلى احترام القانون،** في حين أن "السلطة الانضباطية" تفرض سيطرة على الجسد لتعدله وتقومه وتجعله طيعا.

وإذا تعمم الانضباط وامتدت هندسة بناء السجون (البانوبتيك) لتشمل بقية المؤسسات، وإذا صارت الرقابة شاملة لكل جوانب الحياة (الأسرة والمدرسة والمعامل والثكنة والمصحة...)، فإننا أمام مجتمع هو "المجتمع الانضباطي".

ويضع فوكو مقابلة بين "المجتمع في صورته التقليدية" الذي كانت فيه **الكثرة تراقب القلة** في المسرح والسيرك والمعابد وساحات الإعدام، وبين "المجتمع الانضباطي الحديث" الذي صارت فيه **القلة تراقب الكثرة،** وهو نتاج لطغيان الدولة –فيما يرى– وسعيها إلى التّحكم.

[1] Michel Foucault, *Dits et Ecrits, tome 3,* (l'œil du pouvoir), op.cit, p198 .

تولّد المجتمع الانضباطي إثر حاجة ملحة للسيطرة على الكثافة السكانية المتزايدة في مطلع القرن الثامن عشر، من خلال تقنية يطلق عليها فوكو مصطلح" اقتصاد الجسد"(l'économie du corps) أي **استغلاله كآلة إنتاج يحركها الانضباط وتوجهها المنفعة.**

والمجتمع الانضباطي هو أيضا نتاج لتصاعد القوى البرجوازية وتغلغلها في السياسة والاقتصاد ومرافق الحياة العامة. وغاية المجتمع الانضباطي إنشاء أفراد طيعين من الناحية السياسية (بعيدين عن كل أشكال التمرد والفوضى)، ومنتجين من الناحية الاقتصادية (بعيدين عن العطالة والكسل).

2.2.2 السلطة الحيوية (biopouvoir)

يميز فوكو بوضوح بين "السلطة الانضباطية" و"السلطة الحيوية" (مع أن التمييز لا يعني الفصل ولا يلغي التداخل الحاصل بينهما)، فهما يختلفان عن بعضهما من حيث تقنيات الإخضاع ومجاله.

امتدت "السلطة الانضباطية" من القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر، وهي مختلف الاستراتيجيات الموجهة لإخضاع الجسد، تتولى تنفيذها مؤسسات موزعة في المجتمع ومن بين تقنياتها: المراقبة المستمرة، برنامج الوقت، الإكراه، التوزيع المكاني... أما "السلطة الحيوية" والتي أرخ فوكو لبداية ظهورها مع نهاية القرن 18 ومطلع القرن 19، فهي تتوجه بتقنياتها ليس نحو الجسد في ماديته، وإنما **نحو التحكم في الأفراد من جانب إدارة حياتهم ككل، وبوجه خاص إدارة الجوانب الحيوية (البيولوجية)** للجسد.

وكلمة "**bio**" هنا تعني موضوع السلطة وما تتوجه إليه، أي إدارة حياة الأفراد والتحكم في أنشطتهم العضوية **كإحصاء النمو السكاني، و نسبة الولادات، والأمراض والشيخوخة والزواج ومعايير النظافة، والصحة، وتنظيم الجنس، وتصنيف الأعراق**. يقول فوكو في هذا السياق:« خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر سنرى ظهور تكنولوجيا أخرى للسلطة ليست انضباطية هذه المرة، تكنولوجيا لا تنفي الأولى ولكن تُعلّبها وتُدمجها وتُعدّلها جزئيا وتستعملها، فما هي هذه التكنولوجيا وعلى ماذا تطبق؟، إنها تطبق – وذلك على خلاف الانضباط الموجه إلى الجسد– **على حياة الناس، وإذا أردتم إنها لا تتوجه إلى الإنسان– الجسد، ولكن الإنسان– الحي**، وإلى حد ما **إلى الإنسان النوع** » [1].

إذا كان "الانضباط" يعمل على ترويض الجسد (للحد من تمرده السياسي)، ويدفعه إلى الانتاج (للحد من عطالته الاقتصادية)، فإن السلطة الحيوية **تدير وتوازن أنشطة الجسد لا الجسد ذاته**، أو بتعبير أدق، إن السلطة الانضباطية تهتم باحتواء السلوك الفردي مدمجا في السلوك الجماعي، أما السلطة الحيوية تهتم –كما أشار فوكو– **بإدارة حياة الأفراد دون النظر إلى سلوكياتهم**، وهو يسترسل قائلا:« بتدقيق أكثر أقول أن الانضباط يحاول التحكم وإدارة تعدد الناس باعتبار أن هذه التعددية يجب أن تحل في الجسد الفردي المراقب والمروض والمعاقب، أما التكنولوجيا الجديدة فتتجه إلى تعدد

[1] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع (دروس ألقيت في كوليج دو فرانس سنة 1976)، ترجمة وتقديم وتعليق: زواوي بغورة، دار الطليعة للطباعة والنشر،ط1 2003، بيروت، ص 235.

الناس لكن ليس بوصفهم أجسادا، بل باعتبارهم يشكلون مجموعة كلية تتأثر بعمليات جماعية تخص حياتهم، كعمليات الولادة والوفاة والإنتاج والمرض » [1].

وعليه فالسلطة الانضباطية تجيد حيل **"التشريح السياسي للأجساد"**، والسلطة الحيوية تجيد **"إدارة الجوانب العامة لحياة الجماعات"**، وهو التحكم الذي يشير إليه فوكو بمصطلح **"السياسة الحيوية"**(biopolitique)، لكن كيف تشتغل السلطة الحيوية على موضوعاتها؟.

نظرا للتحولات الاقتصادية والسياسية والقانونية التي ذكرناها سابقا، لم يعد "الانضباط" كافيا للتحكم في نسبة السكان المتزايدة، حيث ظهرت عوامل جديدة دعت إلى ضرورة تحيين سلطة جديدة تحيط بمشكلات مستحدثة تتعلق بالجانب العضوي للجسد: كالمرض والشيخوخة ونسبة الولادات، كما تهتم السلطة الحيوية أيضا بقضايا البيئة والمحيط الاصطناعي، والمناخ ومشاكل التغذية أو بالإجمال كل ما له صلة بالمشكلات الصحية. فالموضوع الأساسي "للسلطة الحيوية" هو "السكان"[(*)] **(population)** يقول فوكو: « السياسة الحيوية إذن لها علاقة بالسكان وبالسكان

[1] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، المصدر السابق، ص 235.

[*] (Comment le phénomène *population* avec ses effets et ses problèmes spécifiques peut-il être pris en compte ? Au nom de quoi et selon quelles règles peut-on le gérer ?).Michel Foucault**,** *dits et écrits tome3*, (**naissance de biopouvoir)** op.cit, p 818.

كمشكلة سياسية وعلمية في الوقت نفسه، كمشكلة بيولوجية وكمشكلة سلطوية، أعتقد أن هذا هو العنصر الجديد الذي ظهر في تلك المرحلة » [1].

تراهن السلطة الحيوية على إدارة الأفراد وتحقيق "تعديل"(في صورة تحكم) **(régularisation)** في حياتهم البيولوجية: كإدارة نسبة الولادات وإحصاء الوفيات وحساب معدل الحياة، وهي سلطة تعتمد على الوسائل المعرفية وتكثف من توظيفها، فهي تهتم كما يقول فوكو: « بالتوقعات، والتقديرات الإحصائية والقياسات العامة، وتعديل تلك الظواهر بوجه خاص» [2]، لكن كيف يتم التحكم في السكان انطلاقا من أنشطتهم العضوية؟. يتم ذلك في رأي فوكو من خلال **إدارة ثنائية الموت والحياة**، والتمييز العنصري بين الأعراق.

أ. الموت والحياة في أعراف السلطة الحيوية:

يعرض فوكو مقارنة بين الأسلوب الذي كانت تدار به "ثنائية الموت والحياة" في السلطة الملكية التقليدية ونظرية السيادة، وبين الشكل الذي أديرت به في السلطة الحيوية.

لقد كانت السلطة التقليدية تمكّن الملك من **الاختيار بين قتل الأعداء أو تركهم أحياء**، فثنائية الموت والحياة اكتست طابعا سياسيا، لأن إرادة الملك ودوائره المتحكمة هي من كانت تحافظ على الحياة وتجيز القتل. يقول فوكو: «ماذا يعني أن يكون هنالك حق على الحياة والموت ؟ يعني أن

[1] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، المصدر السابق ، ص 238.
[2] المصدر نفسه، ص 238.

للملك أو العاهل حق الحياة والموت، بمعنى أن يستطيع أن يميت أو يمنح الحياة. إننا نجد أن للعاهل حق الحياة والموت على الرعية وفقا للقانون، وعليه فإن حياة وموت الرعية لا يصبحان حقا إلا بإرادة العاهل»[1].

سيلاحظ فوكو أن "السلطة الحيوية" ستتعامل بشكل مختلف مع ثنائية الموت والحياة، **ستُعرِض عن الموت وتهمله وتركز سيطرتها على الحياة،** ومن دلائل ذلك « التقليل المتدرج لقيمة الموت » [2]، والاختفاء التدريجي للطقوس المصاحبة له كمظاهر الجنائز، وهو ليس حدث يشير إلى حالة اغتراب في الحياة المعاصرة، بقدر ما هو في –نظر فوكو– مؤشر على تحول جديد في ممارسة السلطة، سلطة تقوم على" **إدارة شؤون الحياة والأحياء وبخس الموت"، فما يهم السلطة الحيوية هو تحقيق التوازن في إطالة الأعمار والتحكم في الولادات، ومحاصرة الأمراض، وإدارة النمو السكاني** ، إنها سلطة كما يصفها:« ليس لها الحق في الموت، وإنما لها الحق في التدخل في الحياة وطريقة الحياة، ورفع مستوى الحياة وإطالة الأعمار، والتحكم في الحوادث والأعراض والنقائص[...]إن الموت هو الجانب الآخر الذي يقع خارج السلطة وخارج نطاقها ولذلك لا تتعامل معه إلا بشكل عابر وإحصائي » [3].

[1] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، المصدر السابق ، ص 234.
[2] المصدر نفسه، 239.
[3] المصدر نفسه، ص 239-240.

ب.العنصرية في أعراف السلطة الحيوية:

"العنصرية" كما يطرحها فوكو ليست كما يشار إليها في المعنى الشائع: ليست كره الأعراق لبعضها باسم الدين أو الطبقة أو الثقافة، فهو ينظر إلى المصطلح بمنظور سياسي.

العنصرية هي ذلك التمييز البيولوجي بين الأعراق الذي أقامته الدولة استعانة بالمعارف، بين عرق يستحق أن يعيش ويستمر، وبين عرق دنيء يعيق تقدم الحياة، يقول فوكو:« ماهي العنصرية ؟ أولا هي الوسيلة التي ندخل بها ميدان الحياة والذي أخذته السلطة بعين الاعتبار، وأخذت قطيعة بين ما يجب أن يحيا وما يجب أن يموت » [1]. والعنصرية هي أيضا:« ما يسمح للسلطة بمعالجة السكان بوصفهم خليطا من الأعراق، أو على وجه الدقة معالجة النوع وتقسيمه إلى جماعات صغيرة مصنفة على أساس العرق، أو تقسيم السكان إلى جماعات صغيرة، وهذه الجماعات هي أعراق. إنها الوظيفة الأولى للعنصرية، وظيفة تجزئة داخل الاستمرارية البيولوجية » [2]. **وبالتالي يمكن القول أن الأيديولوجيا النازية هي منتهى تطبيق العنصرية في السلطة الحيوية للدولة، لأنها تقوم على إفناء الحقير والرديء والدنيء من الأشكال المشوهة من الحياة في نظر هذه الأيديولوجيا.**

أدخلت "السلطة الحيوية" على العنصرية علاقة جديدة لم تكن موجودة من قبل، وهي علاقة قائمة على مبدأ حربي مفاده:(**حتى تحيا يجب أن تقضي على أعدائك**)، وقد وُظف هذا المبدأ-في رأي فوكو- في الحقل البيولوجي بين الأعراق، فصار الفرد يرهن بقاءه بزوال العرق الدنيء المسبب

[1] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، المصدر السابق، ص 245.
[2] المصدر نفسه، ص 245.

للشرور والأمراض والجريمة أو كما يقول:« كلما اختفت أو انقرضت الأنواع السفلى، كلما تم إقصاء واستبعاد الأفراد غير الأسوياء والشواذ، وكلما قلّ الفساد[...]كلما عشت وأصبحت قويا وصلبا واستطعت أن أتكاثر. موت الآخر ليس فقط ضمانة شخصية لي، إن موت الآخر وموت العرق السيء والدنيء والأسفل – أو المنحل والفاسد والشاذ- هو ما يجعل الحياة بوجه عام أكثر طهارة ونقاء »[1].

هكذا صنعت السلطة الحيوية ما يمكن أن نسميه " **براغماتية بقاء**" تغذي الصراع بين الأعراق **هنا وبالذات صار العنصر الذي يوجه له العداء ليس الخصم السياسي كما كان سائدا في السابق وليس المجرم (عدو المجتمع)، وإنما النوع المختلف.**

في هذه العنصرية البيولوجية ظهرت ممارسة جديدة للقتل أو "**فعل الإماتة**" في السلطة الحيوية وهي لا تعني الإعدام الجسدي، وإنما تعني الإهمال والتهميش. يقول فوكو:« لا أعني بالإماتة الموت الفعلي المباشر فقط، ولكن كذلك كل ما يميت بطريقة غير مباشرة ،كتعريض الناس للموت و مضاعفة أخطار الموت، أو ببساطة الموت السياسي كالإبعاد والرفض والإقصاء » [2].

إن حقل "العنصرية" كما رصده فوكو هو **حقل "بيو– سياسي"(bio-politique)** لأن العنصرية لا تختزل في ممارسة اجتماعية هي كره الآخر، **إنها بشكل أعمق شكل من أشكال ممارسة السلطة الحيوية في استبعاد وتهميش مقوم عرقي هو بمثابة خطر على بقية الأعراق،** ويصف

[1] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، المصدر السابق،ص 245 .
[2] المصدر نفسه، 247 .

"فوكو" هذه العنصرية العرقية في عبارة قائلا: « أعتقد أنها – أي العنصرية- أكثر عمقا من كونها تقليدا قديما أو أكثر من كونها إيديولوجيا جديدة، إنها شيء آخر [...] مرتبط بالآلية التي تسمح للسلطة الحيوية بالممارسة والعمل، إذن العنصرية مرتبطة بعمل الدولة التي تكون مجبرة على استخدام العرق والقضاء على الأعراق وتطهيرها من أجل أن تمارس سلطتها بسيادة، إنه تشغيل من خلال السلطة الحيوية لسلطة قديمة حول حق الموت الذي يضمن تشغيل وتنشيط العنصرية، وهنا تجذرت العنصرية فعليا » (*) (1) .

بالمختصر نقول أن مجمل ما طرحه فوكو حول السلطة الحيوية يتركز في كونها تبسط سطوتها على حياة الأفراد عامة، ووسيلتها في ذلك ليس القمع أو الانضباط وإنما التحكم والإدارة والموازنة ، أي جعل المجتمع مشدودا لمعايير تضمن له الاستقرار، وتمنع أي شكل من أشكال الفوضى والتمرد، وهي في المقابل سلطة لا تهمل القتل كليا، وإنما تمارسه بصورة جديدة من خلال توجه "بيو-سياسي" يكرس لحرب الأعراق وفرضية النوع العدو.

* أي أن **العنصرية** تحولت إلى فعل استراتيجي سياسي تتبناه الدولة لتصفية السكان.

[1] ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع ، المصدرالسابق ، ص 248.

محصّلة المبحث:

تصوّر المقاربة الحقوقية والسياسية السلطة إما بوصفها قوة سالبة مانعة بموجب القانون، أو قوة مملوكة قامعة بموجب الشرعية، لكنهما مقاربتان وإن صح مضمونهما فإنهما بالنسبة لفوكو غير كافيتين لتوسيع فهمنا للسلطة وكيفية ممارستها.

لهذا جاء اشتغاله مغايرا عما سبقه، فقد اهتم بدراسة **"أساليب الهيمنة"** التي خضعت لها فئات مهمشة، لأن تجربة الإقصاء بالنسبة له تفسر لنا المركز من خلال الهامش، **أي أن نقرأ الحضارة الغربية بما تقصيه لا بما تقبله وتحتويه**، وبالتالي لا عجب أن نجد فيلسوفنا مشدودا بتقصي تجربة الجنون، والجنوح، والجنس... في العالم الغربي الحديث، فهي مواضيع كاشفة وفاضحة للخيوط الخفية والمتوارية للسلطة.

وقد خلص إلى أن السلطة **هي ممارسة وليست نظرية، محلية وليست شاملة، مُوزّعَة وليست مركزية، علاقات قوى وليست بنية فوقية سياسية أو قانونية، هي "تقنية" وليست إرادة تحركها مقاصد الأشخاص، إنتاجية وليست قمعية.** وقد بين إلى أي حد تتشعب هذه الصفات وتتداخل عبر التاريخ في مستويات مختلفة، من السلطة في صورتها التقليدية إلى صورتها الانضباطية، ومن السلطة الانضباطية إلى السلطة الحيوية.

المبحث الثالث للفصل الأول:

السلطة والمعرفة عند ميشال فوكو

تمهيد:

1.قراءة فوكو لعلاقة السلطة بالمعرفة.

2.مستويات التداخل بين المعرفة والسلطة.

1.2 السلطوي والمعرفي على مستوى الخطاب.

2.2 المعرفة الطبية وسلطة الاخضاع الاجتماعي

3.2 المعرفة القانونية والسلطة الانضباطية.

4.2 المعرفة الجنسية والسلطة على السكان.

3. السلطة والحقيقة وسؤال الذات

مُحصّلة المبحث.

تمهيد:

بيّنا فيما سبق تعريف فوكو للسلطة والمعرفة، فالمعرفة هي منظومة من الخطابات مدعومة بمؤسسات (الملفوظ والمرئي)، وهي النظام المنتج للحقيقة في كل عصر، أما السلطة فهي علاقات القوى وأساليب الحرب والمناورة بين الأقطاب، بحيث تتغير وتنقلب مواقع القوة والضعف، والهيمنة والخضوع بين تلك الأقطاب إلى حد يمكن الجزم فيه بأن لا مركز للسلطة ولا مصدر لها، ولا هي انعكاس لإرادة جماعة وإنما تتحرك كاستراتيجية.

إن كان فوكو يقر بالتمايز بين المعرفة والسلطة (وهو ما يوضحه بالتفصيل جيل دولوز) [*]، فلماذا يفترض وجود علاقة بينهما؟، وإن وجدت فبأي منظور ومن أي زاوية قرأ هذا التضايف والتلاقي بين المعرفة والسلطة؟.

[*] Suivant *Deleuze*: le pouvoir et le savoir n'ont pas les mêmes champs d'application ; le pouvoir consiste en rapport de ***"forces"*** et mobilise des ***"points d'affect",*** il est proprement ***microphysique, cartographique***, et un objet d'une ***stratégie***, alors que le savoir est macrophysique, il consiste des formes organisées (***visible et l'énonçable***) et présente un rapport entre deux formes mais pas deux forces, il s'applique sur des matières finalisées ***et stratifiée***. en s'appuyant enfin sur ***l'archive.*** consultez :Gilles Deleuze, *Foucault*, Op.cit, 80-84.

1.قراءة فوكو لعلاقة السلطة بالمعرفة:

الاعتقاد الراسخ هو أن المعرفة تتشكل من خلال اطلاع الذات على العالَم بالوسائل والمناهج المتاحة، بحيث يتوجه الوعي وتسير المقاصد نحو كشف الحقيقة، في حين أن السلطة تقف في الضفة الأخرى، لأنها تقوم على القوة وعلاقات السيطرة، **وكأننا أمام تقابل بين العالِم الذي يبحث عن الحقيقة والسياسي الذي يبحث عن السيطرة.** إن أغلب المثقفين فيما يرى فوكو « اعتادوا على تسويغ هويتهم وخصوصيتهم وحتى نخبويتهم عن طريق إقامة حاجز منيع، بين عالم المعرفة الذي يُعتقد بأنه عالم الحرية والحقيقة، وبين عالم السلطة وكيفية ممارستها » [1].

لكن فوكو وإن كان يقر بأن المعرفة والسلطة ليس لهما نفس الطبيعة، فإنه في المقابل يرفض التفرقة بينهما، إذ:« يجب التخلي -كما يقول- على تقليد بأكمله يفترض بأنه لا وجود لمعرفة إلا حيث يتم تعليق وتوقيف علاقات الحكم، وأن المعرفة لا يمكن أن تنمو إلا خارج أوامرها – أي السلطة- ومتطلباتها ومصالحها[...]وأن التخلي عن السلطة هو شرط من الشروط التي بها يمكن أن يصبح المرء عالما » [2].

[1] ميشال فوكو، المثقفون والسلطة، ترجمة: زواوي بغورة، (مجلة الأوراق الفلسفية، العدد الثاني والثالث، 2001)، القاهرة، ص 39.

[2] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب(ولادة السجن)،المصدر السابق ، ص 65.

لكن لا ينبغي أن يُفهم من هذا بأن المعرفة هي انعكاس للسلطة أو هي نتاج لتوظيف أيديولوجيات، **كأن نقول مثلا أن السلطة السياسية تتحكم في الإعلام وتصوغ البرامج الدراسية وفق ما يخدم هيمنتها**. « فالسلطة والمعرفة لا تجمع بينهما فقط لعبة المصالح والإيديولوجيات » [1]. لهذا فإن فوكو يُعرض عن التفسير السببي لعلاقة المعرفة بالسلطة ويطرح "**فرضية التماهي**"، أي أن **السلطة تحل في المعرفة إحلالا تاما وتجعل منها حاضنة، ومن خلالها تخترق الأشخاص والخطابات وتحل في المؤسسات والوثائق**، والأكثر من ذلك **السلطة تنتج المعرفة (بالمعنى الدقيق لكلمة إنتاجية)، لأن النظريات المعرفية والخطابات العلمية تنشأ في شبكة من الصراعات الصامتة، وفي كنف سجال اجتماعي وقانوني وسياسي**.

[1] Michel Foucault, *Dits et Ecrits*, tome 2, Edition établie sous la direction de *Daniel Defert* et *François Ewald* ,Gallimard ,Paris,1994,p 389.

« Pouvoir et savoir ne sont pas lies l'un a l'autre par le seul jeu des intérêts et des idéologies ; le problème n'est donc pas seulement de déterminer comment le pouvoir se subordonne le savoir et le fait servir à ses fins, ou comment il se surimprime à lui et lui impose des contenus et des limitations idéologiques***. aucun savoir ne se forme sans un système de communication, d'enregistrement, et d'accumulation, de déplacement qui est en lui-même une forme de pouvoir et qui est lié, dans son existence et son fonctionnement, aux autres formes de pouvoir. Aucun savoir en revanche ne s'exerce sans l'extraction, l'appropriation, la distribution ou la retenue d'un savoir*** *» p389.*

وبشكل معكوس المعرفة بدورها **هي عنصر يدخل في تكوين السلطة**، « فبمجرد ممارسة السلطة هذا يؤدي إلى خلق المعرفة وتجميع المعلومات » [1]، **وداخل المعرفة فقط تجدد السلطة من حيلها وتعدل من استراتيجياتها وأدواتها في السيطرة والاخضاع**، ويؤكد فوكو هذا الطرح قائلا:« أصح الافتراض هو أن السلطة تُنتج المعرفة- وليس فقط بتشجيعها لأنها تخدمها أو بتطبيقها لأنها تفيدها- وأن السلطة والمعرفة تقضي إحداهما الأخرى، وأنه لا توجد علاقات سلطة بدون تأسيس مناسب لحقل معرفي، وأنه لا توجد معرفة لا تفترض ولا تقيم بذات الوقت علاقة سلطة » [2].

يتضح من خلال تفكيك "النظام المعرفي" للعصر الحديث (épistème) كيف أن « مجالات ممارسة السلطة هي نفسها حقل تشكل المعرفة » [3]. ومن بين التساؤلات التي طرحها في علاقة السلطة بالمعرفة ما يلي: **لماذا ظهرت بعض المعارف والمباحث العلمية في بداية القرن الثامن عشر، بالموازاة مع حاجة (سلطوية) لاحتواء بعض الفئات التي كان يُنظر إليها على أنها فئات متمردة ومنحرفة ومريضة** ؟. "طب الأمراض العقلية" (psychiatrie) أنشئ ليحتوي من اعتبروا غير أسوياء ومجانين؛ "علم الإجرام" (criminologie) أنشئ ليحتوي من صنفوا في خانة المجرمين وأصحاب الجنح والسوابق؛ و"علم الجنس"(scientia sexualis) أنشئ ليهتم بالشواذ و مضطربي السلوك الجنسي؟، **لماذا هذه**

[1] زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو (دراسة ومعجم)، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت 2015، ص 205.

[2] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب (ولادة السجن)، المصدر السابق، ص 65.

[3] Florent Kambasu Kasula, *Le pouvoir chez Michel Foucaul*t (une épistémologie politique), Mon Petit Edition, Paris, 2015, p 17.

المعارف الثلاث، ولماذا الاهتمام بهذه الفئات بالذات دون سواهم ممن اعتبروا أسوياء؟، ولماذا هذا توقيت بالذات الذي تزامن مع عصر الحداثة والعقل، وتزامن مع انفجار سكاني وظهور المجتمع البرجوازي الذي يحث على أخلاق الطاعة والاستقامة والعمل والانتاج؟.

هل هذا يعني أن "نشوء المعارف الحديثة" في الغرب لم يكن فعلا بريئا، وأنها تشكلت داخل شبكة من العلاقات السلطوية التي تجسد رغبة في السيطرة والتحكم في عينة اجتماعية تنافت طبيعة وجودها (الشاذة والمنحرفة) مع صوت العقل والحداثة؟، هل هذا يعني أيضا أن الاختيارات المعرفية في العصر الحديث كانت مشروطة بحسابات سلطوية ؟، هل تتغير المنظومات المعرفية في المجتمعات عندما تغير السلطة من استراتيجياتها وتكتيكاتها؟.

2.قراءة فوكو لعلاقة السلطة بالمعرفة:

رصد فوكو تمفصل المعرفة بالسلطة في عدة مواضع وهي: الخطاب ، طب (الأمراض العقلية)، القانون، الجنسانية، والحقيقة.

1.2 السلطوي والمعرفي على مستوى الخطاب:

ما يبين صلة "الخطاب" بالسلطة هو أن "الخطاب" يؤثر في الممارسات الاجتماعية، بحيث يختلط بوسائل السيطرة ويصبح إحدى أدواتها عندما يصير أداة للتجييش أو الاقصاء والتخوين، فلو افترضنا أن رجل دولة خطب في شعبه بأن يستعدوا لحرب وشيكة، لوجدنا أن الخطاب سيدفعهم إلى

حالة استنفار واستعداد للحرب، هكذا نقول أن **الخطاب له قدرة عجيبة على تحريك الأفعال، بحيث يتحول هو ذاته إلى سلطة من حيث هو** « مجموع علامات الإكراه والإلزام التي تمر عبر العلاقات الاجتماعية » [1].

والجدير بالذكر أن علاقة السلطة بالخطاب ليست علاقة "امتلاك" (possession)كأن نقول أن الخطاب تستحوذ عليه "أجهزة الدولة" أو نظام الحكم« فهو ليس أداة في يد السلطة أو نص يعكس أهدافها بل الخطاب يشكل في ذاته سلطة» [2] **تنتشر وتتوسع بشكل يجعلها غير قابلة للحصر أو الامتلاك**، لأن إنتاج الخطاب في اعتقاد فوكو مشروط بخارجية (extériorité)، وهي موازين القوى والوضع الاستراتيجي والحالة الاقتصادية والسياسية، "فالخارجية" باختصار **هي كل ما يمكنه أن يؤثر في الخطاب ويحركه من الخارج وليس من نواته الداخلية**. يجب « أن ننطلق—كما يقول – من الخطاب نفسه، وانطلاقا من ظهوره وانتظامه، نحو شروط إمكانه الخارجية » [3] .

[1] Michel Foucault, *Dits et Ecrits*, tome 3,Op.cit, p123.(le discours c'est l'ensemble des significations contraintes et contraignantes qui passent par les rapports sociaux) .

[2] زواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، (د.ط.ب) 2000، ص 135.

[3] ميشال فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير (د. س.ب)، ص 29.

يتميز الخطاب بقدرته على الانتشار والتناثر، فهو على (عكس اللغة المقيدة) يتميز بالانفلات و "الجموح" (discours rétif) [1] ، وعليه كان لزاما في اعتقاد فوكو أن **يخضع للمنع والمراقبة والانتقاء والتنظيم من أجل تقييده والحد من تأثيره وامتداده الواسعين** [*]. يقول فوكو معلقا على ما يطال الخطاب من "منع" (interdit):« أفترض أن إنتاج الخطاب في كل مجتمع هو في نفس الوقت إنتاج مراقب، ومُنتقى ومنظّم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطانه ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل، وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة » [2]، ألا نرى في كثير من الأحيان سلطة الدولة تمنع خطابات المعارضين في الإذاعات الرسمية والمشاهد الإعلامية، فهي تخضع الخطاب الإعلامي للمراقبة والانتقائية في بث البرامج والحصص، ومع ذلك يكون هنالك هامش لانفلات الخطاب لأنه غير قابل للاستحواذ[**] .

من دلائل نفوذ السلطة في الخطاب هو ما يحظى به من "طقسية" (ritualité du discours)، و هي تلك الإجراءات والمراسيم المهيبة التي تحاط به والتي يعتبرها فوكو جزء من ماديته وثقله: فالمناسبات

---

[1] Judith Revel, *Le vocabulaire de Foucault*, op.cit, p23.

[*] pour aller plus loin voir : Mohammed Chaouki Zine, *L'apriori historique et le diagnostic de l'actualité chez Michel Foucault*, l'a(na)rchitecture du discours, Op.cit, 17-26.

[2] ميشال فوكو، نظام الخطاب، المصدر السابق ص 4.

[**] مواقع التواصل الاجتماعي هي مجال لانفلات الخطاب وفضاء حر لتداوله، على الرغم ما تتعرض له من حظر ومراقبة من طرف سلطة الدولة.

السياسية والدينية **يُعد لها المنابر، وتحضر لها القاعات، ويجيّش لها الإعلام، ويُضبط لها التوقيت، ويتناولها بالحديث والنقاش نخبة من الساسة والمحللين والخبراء قبل وبعد الحدث الخطابي.**

لعل **"الطقسية"** هي التي تجمع بين السلطة والخطاب، بدليل أننا –كما يشير فوكو- نعرف هذه الطقسية ونمارسها، **نميز متى وأين ومع من نتكلم، ونحذر في تخيّر ألفاظنا وعباراتنا وفق الطقس الذي نحن فيه** (مدرسة، محكمة، حفلة، مؤسسةّ، جامعة..)، وبالتالي فبجانب إجراء " المنع" هنالك إجراء **"الاستبعاد"** (l'exclusion)، أي الإبقاء على الكلمات المقبولة واستبعاد عبارات أخرى قد تكون مشينة أو مرفوضة أو باعثة على السخط السياسي أو الاجتماعي، يقول فوكو:« إننا نعرف جيدا أنه ليس لدينا الحق في أن نقول كل شيء، وأننا لا يمكن أن نتحدث عن كل شيء في كل ظرف، ونعرف أخيرا أن لا أحد يمكنه أن يتحدث عن أي شيء كان، هنالك الموضوع الذي لا يجوز الحديث عنه، وهنالك الطقوس الخاصة بكل ظرف، وحق الامتياز أو الخصوصية الممنوحة لذات متحدثة » [1].

وللخطاب جانب مكبوت تتولى السلطة قمعه ومنعه، وجانب صريح تعمل على تشجيع انتشاره في المؤسسات، هنا يكون الخطاب هو **"غاية السلطة" لأنها تحاول الاستحواذ عليه، وهو "وسيلتها" لأنه بمثابة سلاح وأداة صراع.** يقول فوكو:« يبدو أن الخطاب في ظاهره شيء بسيط، لكن أشكال المنع التي تلحقه تكشف باكرا وبسرعة عن ارتباطه بالرغبة وبالسلطة. وما المستغرب في ذلك مادام

[1] Michel Foucault, *Ordre du discours*, Gallimard *NRF*. Paris, 1971, p11.

الخطاب- وقد أوضح لنا التحليل النفسي ذلك[*]- ليس فقط هو ما يُظهر أو يُخفي الرغبة، لكنه أيضا هو الرغبة. وما دام الخطاب- والتاريخ ما فتئ يعلمنا ذلك- **ليس فقط هو ما يترجم الصراعات أو أنظمة السيطرة، لكنه ما نصارع من أجله ونصارع به وهو السلطة التي نحاول الاستيلاء عليها** » [(1)].

إن السلطة تحدث داخل الخطاب حالة من التزاحم والصراع بين المفاهيم والحقائق، ويستشهد فوكو في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي "بالصدام" الذي حدث بين خطاب العقل و خطاب "اللاعقل" (déraison)[(2)]، وهو يستعير مفهومي " الصوت" (voix) و"الصمت" (silence) ليعبر عن هذا الصراع بين القطبين: فالعقلانية في الغرب لطالما كان لها "صوت"، اذ احتلت المنابر بترسانة خطاباتها العلمية والسياسية، وامتلكت الحقيقة بصياغة النظريات والمعارف حول عالم الأشياء وعالم الإنسان، وكان مقياس الحقيقة فيها هو الفصل بين ما ينتمي للطبيعة وما هو خارج عنها « بين العلمي واللاعلمي، بين العقلاني واللاعقلاني، بين الشاذ والسوي » [(3)].

---

* يستعين فوكو بالتحليل النفسي ليثبت صلة السلطة بالخطاب، على أساس أن الخطاب هو ما يصعب الإفصاح عنه، بحكم السلط و القوى الضاغطة التي تعترضه وتحيط به.

[1] ميشال فوكو، نظام الخطاب، المصدر السابق ، ص 5.

[2] Olivier Dekens, *Michel Foucault (la vérité de mes livres est dans l'avenir)*, Armnad Colin, Paris, 2011, p 47-48.

[3] Judith Revel, *Le vocabulaire de Foucault*, Op.cit, p.56

أما عالم "اللاعقل" بما يزخر به من عوالم رمزية (جمالية وأدبية وفنية وفلسفية...)، فقد أحيط بالصمت وتم إسكاته (réduire au silence) [*]. لقد اعتبر المجنون بمثابة شخص« صاحب حديث فارغ ولا قيمة لما يقول، حيث لا يمتلك أي حقيقة ولا أية أهمية، حيث لا يمكن أن يكون محط ثقة من طرف العدالة، ولا يمكن أن يكون كشاهد صدق عقد أو ميثاق، ولا يمكن أن يُسمح له حتى بممارسة القربان في القدّاس» [1].

يثير فوكو أيضا مصطلح " حرب الخطابات" (bataille de discours)[*]، ليبرز ما يعتريه من طابع استراتيجي(سلطوي)، واستراتيجيات الخطاب هي محاوره المتصارعة كما نشهدها في عالم السياسة والإعلام، وحتى في السجالات الاجتماعية اليومية، هي حالة من التسابق نحو احتلال المنابر وإسكات الخصوم.

---

* عبارة يكثف فوكو من استعمالها في كتابه تاريخ الجنون، ليشير إلى الحالة التي قُمعت فيها قوى اللاعقل ومنعت من التعبير عن نفسها .

[1] ميشال فوكو، نظام الخطاب، المصدر السابق ، ص 5.

[*] ***bataille de discours*** :désigne la position qui est occupée par chacun des adversaires, ce qui lui permet d'utiliser avec des effets de domination un discours reçu par tous et transmis de toutes parts.

وبالإجمال هي الخطط والترتيبات التي يتم تداولها والتناوب عليها بين محاور الصراع، والتي تتيح لهم استعمال الخطاب كأداة هيمنة وإثبات الريادة، وبهذا المعنى يتحول الخطاب في تصور فوكو إلى « حقل للهيمنة وأداة للمواجهة » [1] في الآن نفسه .

أن نتصور الخطاب كسلاح حرب وأداة صراع هو ما يجعل منه رهان كل سلطة، وهو ليس مجرد أثر ناتج عن اختلاف آرائنا ووجهات نظرنا، فهو يحمل « سلطة مادية تتضمن مخاطر ومخاوف، وتتضمن صراعات وما تسفر عنه من انتصارات وهزائم » [2]، وليثبت فوكو جدية هذا الرهان يشير إلى حقلين خطابيين تتكاثف فيهما السلطة أكثر من الميادين الأخرى وهما: **"السياسة" و"الجنس"**، إذ نشهد في عالم السياسة صراعا محتدما حول من يمتلك الخطاب، ومن له مشروعة الكلام، حيث تكثر الاعتقالات وتصفية المعارضين، وفي الجنس يكون الخطاب حساسا ومتوترا و مشحونا بالسُّلط التي تراقب الألفاظ ومواضع الكلام، وتراعي ظروف الاحتشام ودواعيه –إن كان في الأسرة أو المدرسة وبين من ومن؟ وبأي داع يتوجب الكلام حوله. الدين هو الآخر في اعتقادنا مازال في بعض المجتمعات مجالا خصبا تنشط فيه الصراعات بين الطوائف ويوظف خطابه توظيفا سياسيا أو طائفيا من أجل الإقصاء.

---

[1] «il s'agit de montrer le discours comme un champs stratégique, où les éléments, les tactiques, les armes en ne cessent de passer d'un champ à l'autre, de s'échanger entre les adversaires et de se retourner contre ceux-là mêmes qui les utilisent…il est commun que le discours peut devenir à la fois un ***lieu et un instrument d'affrontement*** ». Michel Foucault, *Dits et Ecrits*, tome 3,article*:(le discours ne doit être pris comme*.)Op.cit, p123.

[2] زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو (دراسة ومعجم)، المرجع السابق،ص123.

لكن لا يجوز أن نُصوّر الخطاب وكأنه خاضع للعبة السلطة التي تخترقه على اعتبار أنه (أداة في يدها)، بل هو الآخر – كما يعتقد فوكو- **يلعب لعبته داخل السلطة (ولعلها لعبة أثقل)**، فهو يساهم في مُضاعفتها[*] (redoubler) لكنه يعبرها ويتجاوزها ، فهو لا يُختزل لا في مؤسسة ولا في جماعة ولا في نظام سياسي « لأنه يعبر الذوات و المؤسسات على السواء، ويؤسس وجوده المستقل » [(1)].

ومن حيل الخطاب أنه يخلف أثارا سلطوية على شكل "تكتيكات أفعال"، فهو يضفي على بعض الأفعال مشروعية ويوصلها بالأقطاب التي تمدها بالأفضلية – علم ، دين، سياسة- وينزعها من خطابات أخرى، كما أنه « يحّرض أفعالا ضد أفعال، ويستثير الخوف، مما يستدعى مضاعفة إجراءات الأمن » [(2)]، ويبين فوكو في كتابه "المراقبة والعقاب" أن الحاجة إلى الإخضاع في القرن 18 استدعت تكثيف خطاب يثير الخوف والتوجس من خطر الجانحين والمجرمين وغير الأسوياء، مما يستوجب اعتبارهم أعداء للمجتمع، وهو ما يجيز ضرورة عزلهم عن الناس.

---

[*] بمعنى أن الخطاب يغذي الصدامات والمواجهات حتى داخل الميدان الواحد، وخير مثال على ذلك هو أن داخل الدين الواحد يحدث صراع الطوائف عن طريق الخطابات، وفي السياسة أيضا، ليس داخل النظام السياسي وحسب أو المعارضة، بل حتى داخل الحزب الواحد قد يحدث صراع الخطابات، وقس على ذلك في بقية المجالات في الدين والمجتمع.

[1] زواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المرجع نفسه، ص 136.

[2] Olivier Razac, *Avec Foucault après Foucault*, Op.cit, P17.

إن الخطاب يثير خوف السّلط لأنه يخترقها ويعمل ضدها حتى وإن كانت تمتلك بعض مفاعيله **فالسياسي يمتلك الخطاب لكن مئات خطابات الأعداء تحيط به،** فالخطاب بالنسبة للسلطة « قد يكون أداة في يدها[...]أو عائقا مصطدما به، أو نقطة مقاومة وانطلاقة لاستراتيجية مناقضة. **الخطاب ينقُل السلطة ويُنتجها ويُقوّيها، ولكنه أيضا يُلغّمها ويُفجّرها ويجعلها هزيلة ويسمح بإلغائها** » [1].

2.2 المعرفة الطبية وسلطة الاخضاع الاجتماعي:

يربط فوكو بين "المعرفة الطبية" (savoir médical)[*] وبين "الرقابة الاجتماعية" التي سادت في المجتمع الغربي الحديث، وهو يفترض أن الطب " خطابا وممارسة" و "طب الأمراض العقلية" على وجه الخصوص أوكلت لهما مهمة سياسية هي الإخضاع، بالتزامن مع تغيرات في التوازنات الاقتصادية وفي التركيبة الديموغرافية، لكن هذا لا يعني أنه يرد المعرفة الطبية إلى الإيديولوجيا، فهو وإن كان على غرار الماركسيين ينزع عنها طابعها البريء ويكشف وهم استقلاليتها، فإن خصوصية تحليلاته تتعدى القراءة الماركسية لتبحث في "الشروط الممكنة" (condition de possibilité) التي جعلت من المعرفة الطبية مكتملة التكوين، **وكيف يتقاطع هذا الإمكان المعرفي مع ما هو غير معرفي،** أي مع ممارسات السلطة

---

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية، ج1 (إرادة المعرفة)، ترجمة: مطاع صفدي، جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي،(د.ط)، بيروت، 1990، ص 108-109.

[*] هي الخطابات التي سادت حول الأمراض، والممارسات العلاجية التي كان يخضع لها المرضى في المجتمع الغربي الحديث.

(بكل ما تحتويه من صراع). إذن كيف تشتغل السلطة الطبية؟، ما هي الاستراتيجيات والتكتيكات التي تحركها؟، كيف تشكلت سلطة طب الأمراض العقلي؟ [*].

كيف نبرر موقف فوكو المناهض "لطب الأمراض العقلية" على أساس أن هذا المبحث المعرفي هو منتوج سلطوي، وهو في الآن نفسه إحدى أدوات السلطة؟، وكيف أن الطب موصول بالسياسة والاقتصاد والممارسات الاجتماعية؟، ألا يطعن هذا التصور في الأسس الموضوعية لنشأة العلوم؟، ألا يطعن هذا الافتراض في مسلمات العديد من العلماء والفلاسفة الذين آمنوا بحياد المعرفة واستقلاليتها وألفوا كتبا كثيرة في تاريخ العلوم وتطورها بعيدا عن صراعات السلطة؟.

"الطب" وفق تعبير "ألتوسير" « ظهر كإجراء بدون موضوع » [1] لأنه ظهر كممارسة اجتماعية وكطقوس علاجية قبل أن يتأسس كعلم قائم بذاته، وهو نفس الافتراض الذي تبناه فوكو وعمل على تعميقه في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"، فهو يبين إلى **أي حد كان للسياسة والاقتصاد والمعايير الاجتماعية تأثير في نشأة "طب الأمراض العقلية"**: فقد دعت الضرورة السياسية مع تصاعد

---

* Comment la médecine a-t-elle pu faire fonctionner à chaque fois, des régimes de savoir toujours rapportés à dispositifs de pouvoir ?...Il s'agit de voir comment fonctionne le pouvoir médical ?, Ainsi comment s'est institué le pouvoir psychiatrique ?, Sur quel théâtre de force ?, plus globalement quels mécanismes de pouvoir ont servi à l'institution médical et aux médecins ?, et enfin comment le pouvoir judiciaire lui-même a-t-il fini par se médicaliser dans un échange neuf des fonctions judiciaires et les fonctions thérapeutiques?. Bernard vandwalle, *Michel Foucault ,Savoir et pouvoir de la médecin*, L'Harmattan, Paris, 2006, p13.

1 Alain Beaulieu, *Michel Foucault et le contrôle social*, les Presses de l'Université, Laval, 2005, p12.

السلطة البرجوازية إلى محاصرة المرضى والعاطلين والموبوئين والمتسولين، والعمل على تحييدهم باعتبارهم فئات خطيرة تخل بالنظام الاجتماعي وتشكل تهديدا للأمن؛ ومن الناحية الاقتصادية نُظر إليهم باعتبارهم أناسا عاطلين وجب إعادة تأهليهم ليكونوا نافعين، بالإجمال يجب أن يكونوا **مطيعين سياسيا ومفيدين اقتصاديا**. أما من الناحية الاجتماعية فقد تعرضوا للمحاكمات الأخلاقية بوصفهم مصدرا للرذيلة و رمزا للخطيئة والذنب واللعنة الإلهية.

تم الاستعانة بالطب ليؤدي دوره (السلطوي)، وهو تدبير **"سياسة الصحة العامة"**، مما « يجيز ويشرّع بعض أشكال التدخل على المستوى الاجتماعي والحضري، ويجيز أيضا التدخل سلطوي في البؤر التي تنتشر فيها الأمراض » [1] كأوكار الجريمة والدعارة وسجون والشوارع. داخل نسيج الحقول الثلاث: سياسة، اقتصاد والمجتمع، **لم تكن الممارسة الطبية تؤدي دور العلاج، بقدر ما كانت تتولى "احتواء" تلك الفئات داخل معتقلات هي أشبه بالمصحات** (l'enfermement). لقد كان حضور الطبيب – كما يقول فوكو– داخل أماكن الاعتقال « بوصفه حارسا يقوم بحماية الآخرين من الخطر الغامض الذي كان ينبعث من بين جدران الحجز » [2]، فحضور الطب وامتداده الواسع في المعتقلات هو تجسيد للمحاكمات الأخلاقية، وتنفيذ لإرادة سياسية في التحكم في السكان يطلق عليها فوكو مصطلح

[1] Bernard vandwalle, *Michel Foucault, savoir et pouvoir de la médecin*, Op.cit, p101.

[2] ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المصدر السابق ، ص 374.

"السياسة الحيوية"(biopolitique)[*]؛ « فالتواطؤ الذي جرى بين الطبي والسياسي من خلال الاهتمام بالصحة العامة أعطى للطبيب سلطة أكبر، **لقد صار المستشار الأكبر والخبير الأكبر في فن التحكم وهو الذي يتولى ملاحظة وتصحيح وتصويب الجسد الاجتماعي** » [1].

ومن دلائل نفوذ السلطة في الطب هو أن الأطباء جعلوا من الصحّة (santé) مرادفة للحالة السّوية (normalité)، والمرض (malade) مرادفا للحالة غير السّوية (anormalité) . فالمجرم مثلا إن كان سلوكه منحرفا بالمعنى الاجتماعي أي أنه خارج عن القانون، فهو بالضرورة مريض وجب علاجه والعكس صحيح، المجانين بوصفهم مرضى عوملوا معاملة المجرمين وكأنهم جانحين، **والسلطة في تماهيها مع المعرفة هي بالذات نفوذ المعيارية الأخلاقية والمحاكمات الاجتماعية في الممارسات الطبية والنصوص القانونية، بحيث يصير المريض مجرما والمجرم مريضا.**

أقام "الطب الأمراض العقلية" في اعتقاد فوكو تمييزا بين المجنون والعاقل على معايير اجتماعية وسلطة أخلاقية لا علاقة لها بالتشخيص الطبي الموضوعي، لأن السلطة كانت بحاجة إلى تصنيف كل أشكال الانحراف الاجتماعي والزيغ الأخلاقي في خانة الأمراض العقلية. يقول فوكو:« بفضل تلك الرمزية الخاصة بالقذارة التي كانت مألوفة في القرن 18، صعدت إلى الذاكرة الإنسانية صورة قديمة حيث

[*]السياسة الحيوية (biopolitique): هي اللحظة التي تحولت فيها صحة السكان وأنشطتم العضوية (كالولادات، الوفيات، والتزاوج، والإخصاب) إلى مجال للتدخل السياسي، وإلى حقل خصب لاشتغال سلط مختلفة (biopouvoirs) و يعد الطب بمختلف تفرعاته أحدى عناصرها الأساسية. راجع:
Judith Revel, *Le vocabulaire de Foucault*, op.cit, p 25.

[1] Alain Beaulieu, *Michel Foucault et le contrôle social*, Op.cit, p 101-102.

وجد اللاعقل نفسه في صدام مع الفكر الطبي، من خلال تنشيط لمخيال أكثر مما كانت نتيجة إتقان معرفي » [1].

لاحظ فوكو في أرشيف المعتقلات والمصحات أن تقارير الأطباء مُشبّعة بالملاحظات الأخلاقية والأحكام السلطوية مثل: **المشاغب، الطاغي، العاصي، المتمرد، الساخط** [*]،ويذكر قصة القس "بيار غودي" الذي رمي في مصحة عقلية بسبب ذنب ارتكبه، إذ كان يقرض مالا مقابل ارجاعه بفوائد كبيرة وقد كتب في ملاحظة احتجازه عبارة " **سُجن لكي يُعامل كما يُعامل المجانين**"[2].

اعتمد "طب الأمراض العقلية" في تشخيص الأمراض على الانحراف الأخلاقي (مثل بيار غودي) وعلى **فحص كلام المريض**، هل كلامه منطقي وهل أفكاره متناسقة؟، لكن فوكو يكذب هذا الإجراء ويأتي بمثال "العاشق" الذي يخرج عن طوره ويتوهم المعشوق، فهل هذا يعني أن العاشق مجنون وجب علاجه لأن كلامه مفعم بالخيال؟ هل يمكننا أن نقيم تشخيصا طبيا على الأقوال؟

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المصدر السابق ، ص 374.

[*] **الساخط(furieux) :** هو صاحب موقف معارض للمعايير السائدة، يتم اتهامه بالجنون والمرض بسبب مواقفه الناقدة، حيث كانت السلطات في العصر الحديث تدخله إلى المصحة النفسية للعلاج ويتم التعامل معه كما يُعامل المجانين. راجع: المصدر نفسه ص 134.

[2] المصدر نفسه، ص 134.

وبحكم أن النظام البرجوازي لا يحتمل البطالة، فقد أوكل للطبيب مهمة محاربة العطالة، فقد اقترح خبراء "الطب العقلي" أن العمل ناجع لحل مشكلة الانحراف والجريمة، لهذا فقد أوصوا بإدخال الفئات المهمشة إلى المعتقلات (الحجز)، ليس بغرض علاجهم وإنما بغرض إخفائهم من المشهد العام وإعادة تأهيلهم ليكونوا منتجين، فالمتسول مثلا يتم عزله لأن عطالته جالبة للفحش والانحراف، وتخل بالنظام العام. يقول فوكو:« إن الحجز قد كشف عن وجود عالم مخيالي عجيب، كما كشف عن وجود تواطؤ بين الطب والأخلاق[...] لقد أصبح المرض التناسلي في العصر الكلاسيكي قذارة أكثر منه مرضا، ومن هذه القذارة تأتي الأمراض الجسدية، **فالتصور الطبي محكوم إلى حد ما بهذا الحدس الأخلاقي، ولهذا الحدس وجود أقوى من الطب ذاته** » [1].

ولشخصية الطبيب رمزية سلطوية بالغة التأثير على المريض، ففي الطب النفسي تكون مهمة الطبيب نزع "اعتراف" المريض*(l'aveu)*، ومساءلة ضميره واستنطاق ذنوبه[*]، ويشير فوكو إلى أن الطبيب

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي،المصدر السابق، ص 109.

[*] يورد فوكو حوارا مؤثرا بين طبيب أمراض عقلية يدعى"لوري" LAURET ومريض يدافع عن كونه إنسانا سويا:

médecin Leuret : il n'y a pas un mot de vrai dans tout cela, ce que vous dites, ce sont des folies.
Le malade: je ne crois pas être fou, je sais ce que j'ai vu et entendu.
Le docteur: …il faut obéir, parce que tout ce que je vous demande est raisonnable. Promettez-vous de ne plus penser à vos folies.
Le malade promet avec hésitation.
Le docteur: je ne veux pas compter sur vos promesses.(en lui prenant une douche glacée).
Le malade: oui monsieur, tout ce que je vous dis sont des folies.
Médecin: vous avez donc été fou.

اجتمعت فيه بشكل رمزي سلطات ثلاث، فهو يؤدي دور الراهب والقاضي والعائلة يقول:« لم يعد بمقدور الطبيب أن يمارس سلطة مطلقة[...]إلا لأنه كان منذ البداية أبا وقاضيا وعائلة وقانونا » [1].

إن فوكو في اعتقادنا لا يقر بالموضوعية العلمية لطب الأمراض العقلية، لأنه مبحث معرفي نشأ إثر نقاش (سلطوي) قانوني واجتماعي وأخلاقي حول وضعية المرضى والمهمشين ومصيرهم، وفي عمق هذا النقاش تولدت المعرفة الطبية، وتحقق إمكانها الابستيمولوجي خطابا وممارسة لتجد لنفسها مكانة بين معارف العصر الحديث، دون أن نغفل زيادة على هذا النقاش تأثير التحولات الاقتصادية والسياسية « التي قادت إلى الطب العقلي الوضعي، ومنها انبثقت أساطير الاعتراف الموضوعي والطبي بالجنون » [2].

Le malade hésite dit-il: je ne crois pas (encore une douche glacée).
Le malade: c'est être fou que de voir et d'entendre ?
Le médecin: oui.
Le malade finit par dire:**il n'y avait pas de femmes qui m'injuriaient, pas hommes pour me persécuter, tout ce que là c'est la folie. Je ne continue pas à force de douches, à force *d'aveu*, le malade comme vous pouvez le supposer, a été bel et bien guéri, puisqu'il avait reconnu être fou, il ne pouvait plus l'être.**
Michel Foucault, *"mal faire dire vrai"* (fonction de l'aveu en justice)Cours de Louvain 1981, Edition établie par Fabienne Brion et Bernard E. Harcourt. P 02.

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المصدر السابق ، ص 510.

[2] المصدر نفسه ، ص 437.

إن منهج فوكو في البحث التاريخي يقلب القاعدة المعرفية المعهودة،« فبدل أن يقودنا علم النفس لمعرفة حقيقة الجنون، ونسير بذلك من التشخيص إلى النظرية، صار الجنون نفسه وما يخضع له من محاكمات قانونية وأخلاقية وإجراءات سياسية هو ما يكشف حقيقة علم النفس ويضعه تحت محك النقد والتفكيك » [1]، وبالتالي فإن فوكو ينطلق في تحليلاته من الممارسات ليصل لفهم الكيفية التي تشكلت بها النظريات وليس العكس.

3.2 المعرفة القانونية والسلطة الانضباطية:

يعتقد فوكو أن النظام السياسي (البرجوازي) في العصر الحديث جعل من مسألة "الأخلاق العامة" جزءً من اهتمام الدولة، وهو النظام الذي كرس للمبدأ القائل بأن « **الفضيلة قضية الدولة، ويجب أن تتخذ اجراءات لفرضها** » [2]، هنا وبالذات لم يعد القانون يخدم العدالة كقيمة محايدة ومنفصلة عن علاقات الصراع، وإنما صار الرابط الوثيق بين السلطة الأخلاقية والسلطة السياسية، فتحول كل ما هو محظور من الناحية الأخلاقية هو في الآن نفسه مكروه من الناحية الاجتماعية ومجرّم من الناحية القانونية.

[1] Michel Foucault, *Maladie Mentale et Psychologie*, Quadrige, PUF,1995, p89.Pour aller plus loin voir : Saïd Chebili, *Foucault et la psychologie*, l' Harmattan, Paris, 2005, p15.

[2] ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المصدر السابق ، ص 98.

يبيّن هذا التداخل إلى أي حد تغلغلت السلطة الأخلاقية والسياسية في المعرفة القانونية، بحيث يتحول "الشر" (mal) بمفهومه الأخلاقي ليس كشيء يهدد الضمير، وإنما أيضا يهدد الدولة ويشكل « مؤامرة على قوانين المدينة المكتوبة وغير المكتوبة » [1].

يشير فوكو في كتابه "المراقبة والعقاب" إلى أن القوانين الجزائية في القرن 17 و 18 نسجت على المقاس بطريقة تمكن النظام البرجوازي من السيطرة على الكثافة السكانية والطبقات السفلى، والحفاظ على الأمن والنظام العام ومجابهة الاحتجاجات، وبدل استعمال العنف المادي المباشر (القمع) تم استعمال "الخطاب القانوني" (discours juridique) **كتكتيك جديد تمارسه السلطة من أجل إحداث حرب استباقية على أي خطر وشيك أو انحراف محتمل**، بحيث تُبَثُّ في المجتمع حالة من "**التوجس العام**"(dangerosité) ، وهو توجس يجيز تدخل الدولة وتحريك الترسانة الأمنية وتشديد المراقبة. يقول فوكو:« إن ما يجعل العقوبة في صميم العقاب، ليس الإحساس بالعذاب-أي القمع- بل فكرة الألم، فكرة ازعاج، فكرة إضرار[...]من هنا فليس المعاقبة أن تتناول الجسد بل تتناول التمثّل » [*][2].

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، المصدر السابق ، ص 98.

[*] أي حرب على النفوس والأفكار والنوايا، وليس على الأجساد.

[2] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابق ، ص 119.

جعلت السلطة البرجوازية من "الجريمة" محصورة في الطبقات الاجتماعية السفلى، وكأن الأثرياء والملاك ليسوا معنيين بالجنوح، بل أن القانون يعمل في صالحهم، فهو يحصّنهم من الجريمة ويقوى نفوذهم(*).

وينتقد فوكو "الميثاق المدني" لفلاسفة العقد الاجتماعي الذي جاء خادما ومكرسا لهيمنة السلطة البرجوازية، لأن بموجبه تم تصوير "المجرم" ليس كخارج عن القانون، وإنما "كعدو المجتمع" ينقل وحشية الطبيعة إلى المدينة:« وكأنه قبل –كما يقول – ضمن قوانين المجتمع، ذلك القانون الذي يعاقبه، ويبدو المجرم حينئذ متناقض حقوقيا، فقد خرق العهد وقد أصبح إذن عدو المجتمع » [1].

هنالك إجراءات معرفية داخل "جهاز السجن" نذكر منها: "القياس" (mesurer)كالقيام بتحقيقات وفحص الصحة العقلية والنفسية للمسجونين، والأرشفة...ثم المراقبة (surveillance) أي وضع المسجونين تحت النظر الدائم ورصد سلوكياتهم، وأخيرا التأثير (l'influence) كالعقاب والتأديب. فالقياس كإجراء معرفي لا يمكن فصله عن التقنيات الانضباط،« لأن الخطاب الطبي داخل السجن هو ما يمنح "مشروعية العقاب أو العلاج" من خلال تشخيص الحالة العقلية للمجرمين » [2].

---

* من النادر أن نرى الأثرياء ورجال الأعمال يُحاكمون، هذا إذا افترضنا أن الجريمة قد تصدر عنهم أكثر من غيرهم بحكم نفوذهم، بخلاف ما تتعرض له الطبقات السفلى من محاكمات وكأنها هي مصدر الجريمة بحكم الظروف المادية والاجتماعية التي تحيط بها.

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابق ، ص 116.

[2] Olivier Razac, *Avec Foucault après Foucault*, Op.cit, p19 .

يعتمد "الانضباط" في تصور فوكو على إجراءين: أحدهما سلطوي وهو "**الرقابة**" (regard) والآخر معرفي وهو تحويل هذه الرقابة إلى تدوينات، وقد يتم هذا الإجراء داخل السجن من خلال ما يسميه "**التحقيق**" (l'enquête)، وهو استنطاق المتهمين وتوثيق أقوالهم، أو بمعنى آخر تحويل المرئي (الشواهد والوقائع) إلى ملفوظ، لكن بشكل من التدقيق والإغراق في التفاصيل، وتتولى الشرطة في الغالب القيام به، لأن الرقابة البصرية لا تكفي إذ يجب « أن تُجمع ضمن سلسلة من التقارير والسجلات[...]وما يدون على هذا الشكل هو السلوك والمواقف والاحتمالات والشكوك » [1].

ومن خلال إجراء "التحقيق" تعمل السلطة على نزع "الاعتراف" من المتهم (l'aveu) وتدفعه إلى الاقرار بذنبه، وهي تقنية كنسية كان يمارسها الرهبان في شباك الاعتراف، **فالمعيارية الأخلاقية (السلطة على الضمير) تسللت وتغلغلت في النظام الجزائي وقوانين العقاب**، ويتساءل فوكو إن كانت التهمة ثابتة في المذنب فلماذا إجباره على الاعتراف؟ وجوابه أن السلطة تتعمّد نسخ الاعتراف في خطاب وإشاعته للعلن، وهي بذلك **تنتج الحقيقة، حقيقة حول المجرم، وفي هذا الوضع بالذات يتداخل ما هو سلطوي مع ما هو معرفي**.

كما أن القضاء يحتاج إلى أن يضفي على الفعل الإجرامي" معقولية"، فالقضاة بحاجة إلى معرفة الملابسات والتفاصيل« وبناء على هذه الحاجة يتدخل الأطباء النفسانيون » [2]، ليكشفوا العلاقة التي

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابق ، ص 220.

[2] زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو (دراسة ومعجم)، المرجع السابق، ص200.

تربط الفعل بالجريمة وبعادات الفاعل ومصالحه وحساباته. ويرتكز دور الأطباء النفسانيين في تشخيص درجة الخطر الذي قد يشكله المجرم على المجتمع (l'individu dangereux)، فتشتد وتخف العقوبة على حسب تقارير الأطباء .

تتولى المعرفة تنفيذ استراتيجيات السلطة، فهي من تتولى تقويم وحساب وترتيب "الفضاء" (espace) الذي تتم فيه "الرقابة" (سجن–مدرسة–ثكنة...)، ومن بين هذه الترتيبات يذكر فوكو تقسيم المكان إلى وحدات صغيرة (غرف، أقسام،..)، ثم "التصفيف" أي فرز الأشخاص وتوزيهم على الأماكن على حسب جنسهم أو أعمارهم أو أنشطتهم، وهو إجراء يسميه فوكو "الجدولة". الانضباط كما يعرفه فوكو« هو فن الصّف وتقنية تغيير الترتيبات، وهو يفردن الأجسام بواسطة موضعة لا تؤصلها، بل توزعها وتجيلها داخل شبكة من العلاقات » [1].

ويشهد "دولوز" بوجود صلة وثيقة بين "المعرفة القانونية" (savoir pénal) والسلطة الانضباطية (pouvoir disciplinaire) للسجن،« فالسجن يتعامل مع السجناء وكأن الأمر يتعلق بجانحين ينبغي تأديبهم، والقانون العقابي بدوره يتكلم على الجانحين وكأنهم مساجين حقيقيين » [2]. يسمح هذا التلاقي بالتمازج بين الجانب المرئي (السلطوي) للسجن والجانب الخطابي (المعرفي) للقانون العقابي، مما يجعلهما زوجا غير قابل للانفصال وهو المعرفة–سلطة (pouvoir-savoir).

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابق ، ص 165.

[2] Olivier Razac, *Avec Foucault après Foucault*, Op.cit, p22.

تتشكل الإجراءات الانضباطية من خلال تسخير خبراء ومتخصصين، ومشرفين نفسانيين، ومدرسين ورجال دين، ويعرض لنا فوكو مثال السجن الذي يتولى إصلاح السجناء وتأديبهم بعد الالمام بشخصياتهم وسلوكهم استعانةً بوسائط معرفية أهمها "الأرشفة"(l'archivage)[*] ، بحيث يباشر المخبرون والمحققون جمع البيانات والمعلومات التي تتعلق بالمجرم، **تاريخه الاجرامي، عائلته، مزاجه وكل تفاصيل حياته،** ويستعينون بمنظومة معرفية ليقترحوا تعديلات على القوانين الجزائية، **وهنا يكون للمعرفة دور في تكثيف وتقوية آليات السلطة.** إن اشتغال السجن كجهاز معرفة « يكون في الآن نفسه مكانا لتنفيذ العقوبة، ولمراقبة الأفراد المعاقبين[...]وهو مكان أيضا لمعرفة كل معتقل، معرفة سلوكه واستعداداته العميقة، وبتقدمه التدريجي، فيجب تصور السجون كمكان لتشكل معرفة عيادية حول المحكومين » [1].

4.2 المعرفة الجنسية والسلطة على السكان:

انشغل فوكو في كتابه "إرادة المعرفة" بدراسة علاقة السلطة بالجنسانية [**] في المجتمع الغربي الحديث، وباشر تحليلاته بالاعتراض على "الفرضية القمعية" (hypothèse répressive) التي تقضي بأن السلطة

[*] الأرشفة: (l'archivage) إجراء توثيق تاريخ المجرمين، وخبراتهم، ومواقع تواجدهم وكل تفاصيل حياتهم، مما يسهل التحكم فيهم وإعادة تأهيلهم وإخضاعهم للانضباط والوصول إليهم إذا اقتضى الأمر.

[1] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابق ، ص 248.

[**] الجنسانية(sexualité):ليست هي الجنس بمفهومه الضيق، وإنما كل ما يدخل في حساب السلطة ويجيز لها التدخل في الأنشطة العضوية والحيوية للجسد كالمتع والولادات والأمراض والصحة. ويشمل أيضا مصطلح الجنسانية الخطابات السائدة حول المتع، سواء كانت علمية أو أدبية أو اجتماعية. و هي الترجمة التي اقترحها فوكو للمصطلح الاغريقي aphrodisia وهي عند الاغريق:(متع الحب والعلاقات الجنسية و الشهوات الحسية) .

البرجوازية تقمع الجنس لتصرف الناس إلى العمل و الإنتاج المادي بدل الانغماس في الملذات، وتعمل على حصر الجنس في العلاقة الزوجية وإنجاب الأطفال، بغرض تحويل الطاقة الجنسية إلى طاقة إنتاج اقتصادي. لكن هذا التصور عند فوكو ليس كافيا، إذ ينبغي أن نضعه ضمن تحليل أشمل وأعم، وأن لا نجعل منه التصور الوحيد كإجابة عن علاقة السلطة بالمعرفة إذ يقول :« أنا لا أدعى أن الجنس لم يُمنع أو يُلغى أو يُقمع منذ العصر الكلاسيكي[...]لا أقول أن تحريم الجنس هو خداع، ولكنه خداع عندما نجعل من تحريم الجنس العنصر الأساسي المكون لكتابة تاريخ ما قيل عن الجنس ابتداء من العصر الحديث » [1].

تبنى فوكو "الفرضية الانتاجية" (hypothèse productive) التي تقضي بأن السلطة تنتج الجنسانيات ولا تقمعها، تنتجها بمعنى أنها تنتج معارف وخطابات وحقائق حول الجنس، تنتجها من خلال المؤسسات التي تتولى تلقين وتعليم المفاهيم الجنسية، وعليه فإن **الوسائط المعرفية هي التي تتيح للسلطة النفاذ إلى الجنسانية، والتسلل إلى المتع لتتحد معها وتستنطقها.** فالمعارف الجنسية « لم تتكاثر خارج السلطة ولا ضدها، بل داخل السلطة[...]لقد حدث نوع من "موضعة" (objectivation) الجنس في خطابات عقلانية معرفية أو سياسية » [2].

راجع : ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية ج2 (استعمال المتع)، ترجمة: محمد هشام، دار النشر إفريقيا الشرق، دار البيضاء (المغرب)، 2004، ص 34 وما يليها.

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية (إرادة المعرفة)، المصدر السابق، ص 35.

[2] زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو (دراسة ومعجم)، المرجع السابق، ص279.

وأهم الوسائط المعرفية التي تنفذ بها السلطة إلى الجنسانية هو "الخطاب" إذ ظهر في القرن 18—كما يشير فوكو- تحريض متزايد على الحديث عن الجنس كتقنية جديدة للتحكم فيه، وكانت النتيجة كثرة الخطابات وتنوعها وهو يقول:« ما يميز القرون الثلاثة الماضية ليس الاهتمام المتماثل بإخفاء الجنس، ولا احتشاما زائدا في الكلام، بقدر ما هو بالأحرى التنوع والانتشار الواسع للأجهزة التي اخترعت للحديث عن الجنس ولاستثارة الحديث عنه، وحمله على الحديث عن نفسه، والاصغاء لما يقال عنه، وتسجيله ونقله وإعادة توزيعه » [1].وخصوصية المجتمع الغربي في نظر فوكو هو أنه استطاع تشكيل "علم" حول الجنس (Scientia Sexulis) تمكنه من تمرير السلطة داخله، عكس المجتمعات الشرقية التي تمارس فيها الجنسانية كأسلوب حياة (Art Erotica)، ولعل الغاية من علوم الجنس في الغرب هو الإحاطة بحقائق الجنس، ثم التمكن من السيطرة عليه، يقول فوكو :« على الجنس يجب أن نتكلم كما نتكلم على شيء لا يكفي أن نشجبه أو نقبل به [...] **بل أن نديره، أن ندخله في أنظمة ذات منفعة، أن ننظمه لخير الجميع الأعظم، أن نجعله يعمل في أفضل الظروف العامة، الجنس هو شيء لا يُحكم عليه فقط بل يُدار، وهو من اختصاص السلطة العامة، يستدعي اجراءات إدارية ويجب معالجته بخطابات تحليلية** » [2].

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية (إرادة المعرفة)، المصدرالسابق، ص 52.
[2] المصدر نفسه، ص 44.

يرصد فوكو خمس مؤسسات، يطلق عليها مصطلح "الجاهزيات" أو الترتيبات (dispositifs) تتشابك فيها المعرفة مع السلطة في مسعى التحكم في الجنسانيات وهي: الكنيسة، المصحة النفسية، المدرسة، الدولة ، والعائلة. والمشترك بينها هو أنها تمارس طقس "الاعتراف" (*l'aveu*) لكن بطرق وكيفيات مختلفة.

– الجاهزية الكنسية:

يكون فيها المؤمن مدفوعا إلى الاعتراف بخطيئته الجنسية أمام الراهب كشرط لقبول توبته، ويتم ذلك في شباك الاعتراف ووفق طقوس دينية، وتقنية الاعتراف كما يشير فوكو ضاربة بجذورها في ثقافة المجتمع الغربي وامتدت من ممارستها في الكنيسة إلى مجال الطب والقضاء والمجال التربوي...

يتميز الاعتراف الكنسي بحمولته الأخلاقية، لأنه يحكم على الجنس بمنظور الخير و الشر، وهو يمتلك سلطة الصّفح أو الغفران. لقد أصبح الاعتراف في الغرب كما يقول فوكو:« إحدى التقنيات الأكثر تقديرا لإنتاج الحقيقة[...]**لقد أصبحنا مجتمعا اعترافيا بصفة متخصصة**، فقد نشر الاعتراف آثاره بعيدا في القضاء والطب والتربية وفي العلاقات العائلية والعاطفية، وفي النظام اليومي، وفي الطقوس الأكثر احتفالية » [(1)] .

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية (إرادة المعرفة)، المصدر السابق ، ص 73.

– جاهزية الطب النفسي:

توجه الطب النفسي لدراسة جنسانية المرأة على وجه الخصوص باعتبارها جسدا مفعما بالانفعالات الجنسية، وعليه ينبغي أن يحاط نشاطها الجنسي بالعناية الطبية ليحقق وظيفة سياسية وهي: الانجاب **والتنظيم الاجتماعي**. إن جسد المرأة « قد وُصف وشُنّع كجسد مشبّع تماما بالجنسانية، بعد ذلك تم ادخاله في ميدان الممارسة الطبية **تحت تأثير** علم أمراض متخصص به، وأخيرا جرى ربط هذا الجسد عضويا بالجسد الاجتماعي ليؤمن خصبه المنظم، والحيز العائلي حتى يكون فيه عنصرا أساسيا ووظيفيا، وبحياة الأطفال ليضمّن جنسانية المرأة بمسؤولية بيولوجية وأخلاقية تدوم طوال فترة حياتها » [1].

تأثير الطب النفسي أعمق من أي جهاز سلطوي آخر في نظر فوكو، لأنه أعطى لتقنية الاعتراف بعدا علميا عندما تبناه الخبراء النفسانيون وأدمجوه مع أساليب علمية أخرى (كالفحص العيادي، والبحث في الأسباب وتأويل الأعراض)، والغاية من الاعتراف في الطب النفسي ليس تحقيق التوبة كما في السلطة الكنسية، وإنما صياغة "نظرية" يتم بموجبها التمييز بين الصحة والمرض، بين السوية والانحراف مما يعطي مشروعية التدخل الطبي والعلاجي، فالطب النفسي ينتقل من إجراءات البحث الموضوعي في "الجنسانيات" (objectivation) إلى صياغة حقائق وخطابات حولها (subjectivation) لينتهي في الأخير لوضع معايير تقوم عليها الجنسانية السليمة، هذا الانتقال يجعلنا: « نقول للجنس حقيقته بحل رموز ما يقوله عنا، ويقول لنا حقيقتنا بتحرير ما يتخفّى من تلك الرموز » [2].

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية (إرادة المعرفة)، المصدر السابق، 112.
[2] المصدر نفسه ، ص ص82-83.

فسّر الطب النفسي بعض الانحرافات والأمراض بردها إلى الإفراط في السلوك الجنسي أو عدم الاشباع، فممارسة الجنس لذاته (كالعادة السربة) يسبب الأمراض والاضطرابات. وحتى القضاء كان يستعين بأطروحات الطب النفسي ليحاكم "الجنسانيات" التي يراها الطب منحرفة وشاذة. « لقد دخل الطب في ملذات الزوجين، فاخترع باثولوجيا عضوية وظيفية وعقلية قد تنشأ من الممارسة الجنسية غير المكتملة، كذلك صنف بعناية أنواع الملذات وأدخلها في نمو الغريزة واضطراباتها وشرع في إدارتها » [1].

وكلما زاد الخطاب الطبي من توسعه كلما زاد الشعور بخطر مستمر يهدد الصحة الجنسية، وهو شعور يحرض بدوره الحديث عنه، ويعزز الرقابة الطبية والقانونية عليه.

وينتقد فوكو بشدة علم النفس الذي يصنفه ضمن وسائل الاخضاع لأنه يدرس « الانحرافات الجنسية والعقلية قياسا على المعايير الاجتماعية والثقافية التي تقبل أو ترفض تلك الانحرافات » [2]، وكذلك "طب الأمراض العقلية" الذي « خدم غرضا سياسيا وهو " **الدفاع عن المجتمع**" أكثر مما خدم الأغراض الطبية والعلاجية » [3]، بالمحصلة سواء تعلق الأمر بعلم النفس أو طب الأمراض العقلية، فكلاهما وظفا –في نظر فوكو– كنوع من "الطب الاجتماعي" (médecine sociale) الموجه للإخضاع والسيطرة وليس كطب موجه للعلاج.

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية (إرادة المعرفة)، المصدر السابق، ص 58.

[2] Michel Foucault, *La sexualité* (cours donné à l'Université de Clermont-Ferrand 1964) suivi le discours de la sexualité, François Eward, Gallimard, Paris, 2018, p23.

[3] Guillaume le blanc et Jean Terral, *Foucault au collège de France*, Presses universitaires de Bordeaux, 2003, p34.

– الجاهزية الأسرية:

"الأسرة" في تصور فوكو **"خلية سلطوية"** من مهامها " تهذيب" (pédagogisation) النشاط الجنسي للطفل، وظهر هذا التهذيب في الحرب على العادة السرية التي استمرت في الغرب لحوالي قرنين إذ كان على الوالدين والمربين أن يحذروا الأطفال من مخاطرها وما قد تسببه من أمراض وانحرافات.

فقد كانت مهمة الأسرة هي ممارسة الرقابة على الجنس وإحاطته بضوابط أخلاقية، وتحديد ما هو مباح وما هو ممنوع، وتوجهه نحو الانجاب حتى تؤمّن من خلاله الاستقرار الاجتماعي.« إن الأسرة هي شبكة "ملذات–سلطات" متمفصلة حسب نقاط متعددة ، ولها علاقات قابلة للتحول، انفصال البالغين عن الأطفال، القطيعة القائمة بين غرفة الوالدين وغرف الأولاد، الفصل النسبي بين الصبيان والبنات، التعليمات المشددة المتصلة بالعناية الواجبة بالرضع، الانتباه اليقظ بشأن جنسانية الأطفال، مخاطر العادة السرية المفترضة، الأهمية المعطاة للبلوغ، طرق الرقابة المقترحة على الأهل، أشكال الحث والأسرار والمخاوف، حضور الخدم الذي يُقدر أهميته ويُخشى منه في الآن نفسه، كل هذا يجعل الأسرة شبكة معقدة ومشبعة بجنسانيات متعددة، مجزأة ومتحركة » [1].

– الجاهزية المدرسية:

يعتقد فوكو أن "المدرسة" هي أيضا فضاء نشط لمراقبة جنسانية الطلاب، فعلى مستوى الخطاب يتم تسخير خبراء وتربويين ومشرفين نفسانيين لإبداء النصح والإرشاد بخصوص النشاط الجنسي، وتتولى

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية (إرادة المعرفة)، المصدر السابق ، ص ص 62-63.

الإدارة نسخ الوثائق والتوجيهات وتوزيع البيانات والرسومات، وهي إجراءات تكثف الخطاب حول الجنس لتمكن السلطة من احتوائه وإدارة النشاط الجنسي للطلاب يقول فوكو:« الأطباء يخاطبون مدراء المدارس، والأساتذة أيضا يقدمون نصائحهم للعائلات، والمربون يضعون المشاريع ويقدمونها للسلطات، والمعلمون يتوجهون إلى التلاميذ ويزودونهم بالتوصيات، يكتبون لهم كتبا حافلة بالإرشادات والأمثلة الأخلاقية والطبية. حول طالب الثانوي وجنسه يتكاثر أدب للتعاليم والآراء والملاحظات والنصائح الطبية، والحلات العيادية والتصاميم الإصلاحية والخطط للمؤسسات النموذجية » [1].

ويكفي فيما يقول فوكو أن ننظر إلى الكيفية التي تم بها بناء المدارس، لنتيقن إلى أي مدى يخضع جنس الطلاب للرقابة « مساحات الصف، شكل الطاولات، تنظيم باحات الاستراحة، توزيع غرف المنامة- بحواجز أو بلا حواجز، بستائر أو بلا ستائر- الأنظمة المقررة لمراقبة الرقاد والاستيقاظ، كل ذلك يحيل إلى حياة الأولاد الجنسية على الوجه الأكثر إطنابا » [2].

- الجاهزية السياسية:

تتغير الخيارات الاستراتيجية للسلطة تبعا للمتغيرات التي تطرأ على المجتمع، ففي القرن 18 طُرحت مشكلة "السكان" (population) كمشكلة سياسية واقتصادية، كيف يمكن التّحكم في انفجار سكاني، وفي شرائح اجتماعية متنوعة من حيث العمر والجنس والعرق؟، من تلك اللحظة صار رهان السلطة التحكم في الجوانب الحيوية للسكان (biopouvoir)، أي كل ما يتعلق بنسلهم وبيئتهم، وكل

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية (إرادة المعرفة)، المصدر السابق ، ص 47.
[2] المصدر نفسه، ص 47.

ما يتعلق بنسبة الولادات والوفيات، وتنظيم العلاقات الزوجية، وضبط العلاقات الجنسية القانونية وغير القانونية، هذا ما يقصد به فوكو **"بإدارة الجنسانيات"** وهو « الخطاب الذي يؤخذ فيه السلوك الجنسي للسكان موضع تحليل وهدف للتدخل » [1].

تستهدف **"السياسة الحيوية"** (bio-politique) النشاط الجنسي للأزواج، توجهه نحو الانجاب وتُحيطه بسلط دينية واجتماعية وقانونية، أما أنواع المتع التي تُطلب فيها اللذة من أجل ذاتها (كالمثلية الجنسية أو العادة السرية) فيتم استبعادها ومحاربتها. إن السلطة « تضيق على الملذات العقيمة لصالح حياة جنسية مركزة على الانجاب » [2] . ويذكر فوكو مثال **"المخنثين"** فوجودهم كان يربك السلطة في السيطرة على الجنس، لأن هويتهم الجنسية تشوش على الأسرة ومعايير الزواج. وقد تم الاستعانة بالطب النفسي الفيزيولوجي لتصنيفهم في خانة الشواذ ومضطربي الهوية الجنسية، **فهيئتهم الفيزيولوجية مؤشر على أنهم غير أسوياء ومرضى،** أما من الناحية القانونية فقد كان يُنظر إليهم على أنهم مدعى للجريمة والانحراف والرذيلة ، **وبالتالي فإن المعرفة الطبية وظفت بشكل فاضح لخدمة سلطة أخلاقية وقانونية.**« لقد اعتبر المخنثون –فيما يقول – زمنا طويلا مجرمون وأبناء جريمة، لأن حالتهم التشريحية ووجودهم بالذات يشوش على القانون الذي يميز بين الذكر والأنثى ويقضي بتزاوجهما » [3].

[1] ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية (إرادة المعرفة)، المصدر السابق ، ص 45.
[2] المصدر نفسه، ص 54.
[3] المصدر نفسه، ص 56.

ما يهم فوكو ليس إن كان المجتمع متسامحا أو ناكرا للجنسانيات، ليس إن كان يقمعها أو يجيزها بل ما يهمه هو **كيف استطاعت السلطة أن تخترق "الجنسانيات" وتديرها وتنتجها حتى تتحكم في السكان، وتحدث فيهم حالة من "التعديل" والتحكم (régularisation) في القوى، وما هي التقنيات المعرفية التي استعملت في هذه التكتيكات السلطوية.**

3. السلطة والحقيقة وسؤال الذات:

يميز فوكو بين نوعين من الحقيقة: **"الحقيقة الداخلية"** (vérité intérieure) التي تنبثق من الذوات في صورة حقائق عقلية أو علمية أو فلسفية يوثقها أصحابها مثل تاريخ العلوم، وقد عُرف فوكو بإعراضه عن هذا النوع من الحقيقة، لأنها في اعتقاده مثقلة بسلطة الذات وهيمنة الوعي. أما النوع الثاني فهو **"الحقيقة الخارجية"** (vérité extérieure): التي يكون لصراع القوى فيها (أي السلطة) دور في تحديد معالمها والتي يرصدها في الأرشيفات، والمنظومة الخطابات المتفرقة (سياسية، قانونية، اقتصادية، أدبية،...) بعيدا عن سلطة الذات، « فالحقيقة في شكلها الخارجي توجد في حالة تبعثر، ولا يحكمها أي نسق تاريخي» [1].

[1] Daveh Dastooreh, *Vers une Sociologie Foucaldienne* (réunir l'objectivation et la subjectivation), l'Harmattan, Paris, 2015, p21.

وهنالك ثلاثة مفاهيم أساسية لها صلة وثيقة بتصور فوكو للحقيقة وهي: **السلطة، التاريخ والذات.**

الحقيقة هي نتاج « "لتشكل تاريخي" formation historique »[1]، بما يحمله ذلك التشكل من تقلبات وما يحمله من تقلبات. إنها سرد لتاريخ الهوامش والأخطاء (histoire des erreurs).

التاريخ الذي يتوخاه فوكو ليس تاريخ السرديات الكبرى، وإنما التاريخ المتعلق بالوثائق والأرشيفات التي تحكي ما وقع بالفعل من أحداث في مجتمع بعينه، فهو يرفض الطابع الكوني والمستقل للحقيقة ويقر بمحليتها وبنسبيتها، كما يرفض تصوير الحقيقة كشيء "متعال" (transcendantal) عن المجتمع، **لأنها متصلة بالظروف والسياقات والأحداث والصراعات اليومية.** « إن الحقيقة هي من هذا العالم وتنتج فيه بفعل إلزامات عدة [...] **فلكل مجتمع نظام حقيقة خاص به،** سياسة عامة للحقيقة: أعني أنماط الخطاب التي تستقبلها وتوظفها بوصفها خطابات صحيحة » [2].

والحقيقة أيضا هي نتاج للصراع الشامل الذي يحكم كل مجتمع ، فعلاقات القوى وأشكال الاقصاء والتحييد، وتمركز الأقطاب واحتلال المواقع، كلها عوامل تؤثر في الصورة العامة للحقيقة.

---

[1] Lucio d'Alexandro, Adolfo Marino, *Michel Foucault, trajectoires au cœur du présent,* traduit de l'Italien: Francesco Paolo, l'Harmattan, Paris, 1998, p145 .

[2] Michel Foucault, *Dits et écrits*, tome 3,op.cit, p143.

وأيضا على مستوى الخطاب فإن الطرف الذي يأخذ بزمام الكلام ويقصي ويبعد الأصوات المعارضة يكون له الحق في التعبير عن ما هو حقيقي وصادق، فالخطاب هو المجال الخصب لتلاقي الحقيقة مع السلطة وبالتالي فالحقيقة « ليست خارج السلطة ولا مجرّدة منها » [1].

الحقيقة يحكمها "نظام"، لهذا نلاحظ أن فوكو يردد في كتاباته مصطلح "نظام الحقيقة" (régime de vérité)، ويقصد به على الأرجح: **منظومة الإكراهات والسلط، وأشكال الهيمنة التي على أساسها ينظر إلى هذا الخطاب أو ذاك على أنه حقيقة، أو أن مضمونه حامل للحقيقة** (dire vrai)، فالعقلانية مثلا (rationalité)كانت في تاريخ الغرب "نظام الحقيقة"، وعلى أساسها يتم التمييز بين الصحة والخطأ، بين العقل والجنون وبين المرض والصحة بين السوية والانحراف.ولعل **هذه "الفواصل الثنائية" هي التي حكمت الفكر الغربي الحديث بتأثير من ديكارت.**

يثير فوكو مصطلحا آخر وهو "لعبة الحقيقة" (jeu de vérité)، بمعنى أن الحقيقة تتحدد بما يكتنفها من رهانات ومخاطر وتحديات، أليست المدرسة مثلا فضاء ترتسم فيه لعبة الحقيقة بين برامج تم إعدادها وفق رؤية سياسية، وبين رغبة جامحة في تقليب تلك البرامج ونقدها؟، أليس الطب النفسي كما وصفه فوكو هو ميدان "للعبة الحقيقة" بوصفه مصدرا للتميز بين السوية والشذوذ، وقس على ذلك في مجالات أخرى.

[1] Michel Foucault, *Dits et écrits*, tome 3,op.cit, p143.

إنّ ما يدخل الحقيقة في لعبة الرهانات كونها « ترتكز على شكل من الخطاب العلمي وعلى المؤسسات التي تنتجه، وهي خاضعة لتحفيز اقتصادي وسياسي دائمين، وهي موضوع لعملية توزيع واستهلاك واسعين[...]وموضوع رهان لكل مجال سياسي ولكل مواجهة اجتماعية » [1].

الحقيقة كما يراها فوكو ليست نابعة من تأملات الذّات، ولا هي معطيات الفكر وتأليفاته، « فالذات ليست الأصل الذي انطلاقا منه تظهر الحقيقة وتكون المعارف ممكنة، بل ينبغي أن نقلب المنظور ونبحث في التاريخ، بأي صورة تشكلت الذات ونُسجت داخله » ؟[2]. وقد تبين لفوكو أن التنقيب في التاريخ بالمنهج الذي اختاره هو (الجينيالوجيا) كفيل بكشف الكيفية التي تشكلت بها الذات، « فلا وجود لذات خارج ممارسات التاريخ، وخارج صراع السلطة » [3].

[1] زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو (دراسة ومعجم)، المرجع السابق،ص206.

[2] Daveh Dastooreh, *Vers une Sociologie Foucaldienne, réunir l'objectivation et la subjectivation*, op.cit, p20.

[3] Naima Riahi, *Michel Foucault* (subjectivité- pouvoir- éthique), L'Hamarttan, Paris, 2011,p13.

مُحصّلة المبحث:

أينما وجدت سلطة وجدت معرفة، فالتماهي حاصل بينهما في عدة مستويات قد اجتهد فوكو في كشفها بشكل مفصل: فالخطاب حامل للمعرفة من حيث مضامينه، ومثقل بالسلطة من جهة علاقاته أو بالأحرى الخطاب هو في ذاته سلطة، لأنه يخترق الأفراد ويعبر المؤسسات.

وقد تبين إلى أي حد قامت المعرفة الطبية والقانونية والجنسية **على محاكمات أخلاقية ونظرة معيارية** تقصي كل ما لا ينتمي لدائرة العقل والعقلانية، فتصنفهم –باسم سلطة المعرفة– إما شواذا أو مرضى أو جانحين.

خلاصة الفصل الأول:

لقد جرّد فوكو المعرفة من كل المفاهيم المتعلقة بسلطة الذات وهيمنة الوعي، وقد أعرض عن البحث في العلل التاريخية ومقاصد الذوات، وتوجه بمنهجه لدراسة المعرفة بحصر حيزها الزماني (حقبة عصر الحداثة وما بعدها) وسياقها المكاني (المجتمع الأوروبي الحديث)، ثم بحث في منظومة الخطابات بالاشتغال على ما كان يُقال حول موضوعات المعرفة (جنون، جنوح، جنس...)، ثم تشخيص أشكال الممارسات، أي ما كان يحدث من تقلبات سياسية واجتماعية.

ومنهج فوكو قائم على الجمع بين تحليل الخطابات (الملفوظ)، و تشخيص الممارسات والأحداث (المرئي)، وهو ما يتيح النظر في الشروط الممكنة التي جعلت العلوم والنظريات والمعارف تتشكل على هيئة أنساق أو ابستيميات.

أما السلطة فإسهاماته في توسيع النظر فيها تكاد تكون منقطعة النظير، فقد اجتهد–كما بيّنا – في نقد المقاربة السياسية والماركسية، الأولى تطرح السلطة من وجهة نظر قانونية، ومن زاوية شرعية امتلاكها وممارستها (هوبز)، والثانية تطرحها من وجهة نظر إيديولوجية، أي أن السلطة قوة سالبة للحرية وقامعة للغرائز، وهي انعكاس لصراع الطبقات ولتحكم أجهزة الدولة في حياة الأفراد.

إن السلطة كما يتصورها فوكو هي **"استراتيجيات هيمنة"** بالغة التنوع والتخفي، وهي مستقلة عن مقاصد الأفراد لأنها تتحرك وفق خطط وأهداف ومرام، وهو ما ينفي عنها صفة "الفوضوية" لأنها **تدبير عقلاني للقوّة، وتوظيف حذق لأدوات السيطرة.** وتتميز أيضا **بصفة الإنتاجية** لأنها قوة دافعة للخطابات والمعارف وليست قوة هدامة كما يُصوّرها البعض.

تتميز السلطة أيضا بملمح مزدوج: فهي من جهة **شاملة** لأنها موجودة في كل لحظة وفي كل مكان، فلا أحد يمتلكها لأنها تمارس بالإطلاق من الجميع وتخترق الجميع، وهي من جهة أخرى **تتميز بصفة الحضور أو المثول العيني**، بوصفها ممارسات مشخصة نرصدها في الوقائع والأحداث المعيشية وفي الهياكل القانونية والسياسية، وحتى في الجوانب المجهرية للعلاقات الاجتماعية، وفي البنايات المرئية والهياكل المعمارية (بنوبتيكات المدينة).

ويجمل فوكو القول بأن المجتمع لا ينتهي لأي شكل من أشكال الاستقرار أو السلم، لأن القانون والسياسة لا يستطيعان إنهاء حالة الصراع أو حتى التحكم فيه على أقل تقدير، والحاصل هو العكس القانون والسياسة يتغيران في بنيتهما بفعل تأثير الصراعات داخل أطراف المجتمع. **فالسلطة هي نموذج الحرب المستمرة والصراع الدائم داخل كل مجتمع.**

وقد خَلُصَ أيضا إلى أن البحث في النظام المعرفي للمجتمع الغربي كشف له – بشكل فاضح– تورط علاقات السلطة وتأثيرها العميق في بلوة وتكوين معارف القرن 18 و19، **وكأن سؤال المعرفة كان في الآن نفسه رهان كشف خيوط السلطة.**

فلا نستطيع أن نفصل معرفة "طب الأمراض العقلية" عن تجربة الإقصاء الاجتماعي، فالسلطة على المجانين والمرضى شكلت حاضنة تكون فيها الطب العقلي والنفسي بشكل **جنيني**، كما لا نستطيع أن نفصل "المعرفة الجزائية" ومنظومة القوانين الحديثة عن أساليب الانضباط التي كانت آخذة في التطور. وأخيرا لا نفصل المعرفة الجنسية عن السلطة الحيوية وميلها إلى السيطرة على السكان.

إن تشكّل المعارف في الغرب الحديث داخل السلطة، كاستجابة لمشروع هيمنة العقلانية الغربية (التي تمثل المركز) على كل ما يقع في الأطراف والهوامش، ومن جدية ما نلمسه في أطروحات فوكو هو أن عصر الحداثة كان أشد اضطهادا للأجساد من العصور الوسطى، بل تفوق عليه في خلق أساليب فعالية في الإخضاع والسيطرة والتحكم. فأطروحات فوكو تتميز بالنقد الجذري لقيم الحداثة ومعاييرها التي ادعت أنها قيم أنوار وتقدم وأنها تصون حقوق الإنسان وتسير به إلى التقدم، لكنه كشف لنا زيف تلك الشعارات الرنانة، وأن ما يسمى "إنسان" لم يكن إلا لعبة إيديولوجية ابتدعتها خطابات لتخفي رواسبها السلطوية.

الفـصل الثّاني

فهرس الفصل الثاني

جدلية المعرفة والسّلطة عند ميشال دوسارتو

(قراءة في المفهوم والمنهج)

توطئة:

المبحث الأول: مفهوم المعرفة عند ميشال دوسارتو.

المبحث الثاني: مفهوم السلطة عند ميشال دوسارتو.

المبحث الثالث: علاقة السلطة بالمعرفة عند ميشال دوسارتو.

خلاصة الفصل الثاني.

توطئة:

لقد كان "دوسارتو" شاهدا على عصر متأزّم عمت فيه الصّراعات السّياسية والحروب، وسادت فيه الثّورات الاجتماعية ضدّ النّظم القائمة، وقد تبيّن له من خلال ما عاينه من أحداث أن **"المعرفة" أصبحت محور صراع، وأن من يمتلك السلطة هو من يفرض نموذجه الفكري (أو المعرفي)**، سواء داخل المجتمع الواحد في امتداده الأفقي كصراع اليمين مع اليسار في السياسة، وفي امتداده العمودي كالصّراع بين الدّولة الرسمية والقوى الديمقراطية، أو سواء بين الدّول التي تنزع إلى السّيطرة على بعضها بفرض مواقفها الحضارية ونموذجها الثقافي.

وبشكل معكوس تبيّن له أيضا أن "المعرفة" لا تتّخذ شكل النّظام العام للفكر أو النّسق، إلاّ إذا تسلّحت بالسّلطة التي تمنحها **الوضع الاستراتيجي** الذي يحميها من الزوال ويضمن استمرارها في التاريخ.

إنّ السّؤال الأساسي الذي يعدّ هاجسا بالنسبة له هو : **ما السبيل إلى تفسير هذا التفاقم المتصاعد للتوظيف السلطوي للمعرفة، وللحضور اللافت للمعرفة في صراعات السلطة؟**.

لا نبالغ إن قلنا أن جدلية المعرفة والسلطة هي الإشكالية المركزية التي نجد لها أثرا بشكل ضمني وصريح في أغلب مؤلفات "دوسارتو"، على الرغم من تفرق المواضيع وتنوع الأطروحات. لكن الجدير بالملاحظة أنه لا يعالج المفهومين بنفس المنظور وبنفس المنهج، فهو يقارب المعرفة **بأسلوب المؤرخ والنّاقد الابستيمولوجي**، ويقارب السّلطة **بأسلوب الفيلسوف والنّاقد الاجتماعي**.

إنه يبحث في الأسس والقواعد التي تشكّل "الأنظمة المعرفية"، ويحاول النفاذ إلى **بنيتها التكوينية** ليفهم الكيفية التي تحوّلت بموجبها إلى "نسق عام" يسود المجتمع، بمعنى أنه يستقرئ شروط إمكان المعرفة لكن ليس داخل العقل الخالص كما فعل "كانط"، وإنما في **الشروط السوسيو– إقتصادية، أي في بواعثها المادية ومسبباتها الخارجية.**

وقد نلخص مجموع تساؤلاته فيما يلي: ما المعرفة وما طبيعتها؟ هل هي نتاج ذات وإرادة، أم نتاج بنيات مادّية ورمزية؟ وما صلة النّظري بالعملي فيها ؟. هل هي نشاط خاص بنخب ومؤسسات، أم أنها نشاط عام نجده عند الإنسان العادي؟.

لا يقف "دوسارتو" عند التساؤل عن **بنية المعرفة** بل يتعدى ذلك للتساؤل عن **علاقتها بالتاريخ**، فهو يعمل على **رصد ما قد يطرأ عليها من تحولات تاريخية بفعل الحركيات الاجتماعية والسياسية**، وبالتالي فهو يقارب المعرفة من جهتين: **من حيث الثوابت والأسس التي تشكل بنيتها، ومن حيث المتغيرات التاريخية التي تطرأ عليها.**

أما موضوع "السلطة" فقد خصص له "دوسارتو" قراءات متفرقة يناقش فيها عدة افتراضات فلسفية تسوقه إلى تحليل عميق لمشكلة السلطة، وأهم تلك الافتراضات: هو التساؤل عن طبيعة المجتمع، **هل قوامه الانسجام والتوافق، وبالتالي ليس الصراع إلا حالة استثنائية سرعان ما يتم تجاوزها بالوسائل القانونية والتوافقات السياسية؟ أم أن الصراع حالة متأصلة لا يمكن تجاوزها لأنه ضروري لحركية المجتمع ولبنائه، وبالتالي يصبح السلم حالة استثنائية.** إذا: **ما هو تصور دوسارتو للسلطة؟ وما طبيعتها؟.**

المبحث الأول للفصل الثاني:

مفهوم المعرفة عند ميشال دوسارتو

تمهيد:

1. نقد دوسارتوللأنساق المعرفية المعاصرة (العلم، الاقتصاد، التاريخ).

1.1 نقد المعرفة العلمية.

2.1 نقد الهيمنة الاقتصادية .

3.1 نقد المعرفة التاريخية .

2.تصور دوسارتو للمعرفة .

1.2 موقف دوسارتو من المعرفة.

2.2 المعرفة ذات النزوع الاستراتيجي والمعرفة ذات النزوع التكتيكي.

1.2.2 المعرفة ذات النزوع الاستراتيجي.

2.2.2 المعرفة ذات النزوع التكتيكي.

مُحصّلة المبحث:

تمهيد:

على غرار "ميشال فوكو" اختص "ميشال دوسارتو" (Michel de Certeau 1925-1986) في نقد ومراجعة النظم المعرفية التي قامت عليها الثقافة الغربية المعاصرة، وهو بذلك قد انخرط في هاجس **"النقد الابستيمولوجي"** الذي حكم جيل عصره في القرن العشرين.

لقد كان لزاما على كل فيلسوف في تلك الحقبة أن يقدم قراءة للكيفية التي تنبتي بها المعرفة وتستقر، وسيعرض "دوسارتو" في مؤلفاته مشكلتين أساسيتين: الأولى تتعلق بالكيفية التي تتشكل بها الأنظمة المعرفية في التاريخ لتسود في مجتمع وعصر محددين، لكن سرعان ما تزول وتنهار بتأثير نظام آخر يقوم على أنقاضها (كالانتقال من النظام المعرفي الكنسي في القرون الوسطى إلى النظام الحداثي العلماني)، وسنجده يتساءل أيضا عن الشروط التي تحكّمت في هذا التحول في التاريخ؟ هل هو تحول مثّل قطيعة تامة بين الأنظمة المعرفية أم هنالك احتواء وامتداد بينها؟ **كيف تشكّلت المعارف في صورة أنساق مغلقة تقاوم الزوال ولا تقبل المجاوزة؟.**

أما المشكلة الثانية **فتتعلق بعملية تشكل المعرفة في حد ذاتها** (أي الجانب البنيوي للمعرفة) ماهي الشروط التي تجعلها ممكنة ؟ وما صلتها بالممارسات الاجتماعية وبالخطاب والأوضاع الاقتصادية و السياسية؟ **هل هنالك صلة بين ما ينتمي إلى المعرفة والعلم في بعدهما النّظري، وبين ما ينتمي للخطاب والممارسات في الواقع المعيشي للأفراد؟.**

1. نقد دوسارتو للأنساق المعرفية المعاصرة (العلم – التاريخ – الاقتصاد).

اشتغل "دوسارتو" على نقد ثلاث نماذج للمعرفة وهي: **المعرفة العلمية، المعرفة التاريخية، ونموذج الهيمنة الاقتصادية.**

1.1 نقد المعرفة العلمية:

إن نقد "دوسارتو" "للمعرفة العلمية" يظهر من خلال الاعتراض على مسلمتين راسختين وهما: **افتراض أن العلم يقوم من خلال سيادة الذات على الموضوع (الرؤية الديكارتية)** [*] في مسار أحادي يمتد من التقصي والبحث لينتهي بصياغة القوانين وضبط النتائج، وحتى ينبني العلم أيضا لا بد له أن يستقل عن موضوعه، وأن ينفصل بمبادئه ورؤيته عن معطيات الحياة المبتذلة والثقافة الشعبية وإلا لكان العلم والرأي الشائع سواء. ثانيا : **العلم هو ثمرة عصر الأنوار، وخلاصة ارتقاء الانسان من واقع أسوأ لواقع أفضل، وهو وسيلة للتطوير الحياة والمجتمع.**

[*] يقول "روني ديكارت" (René Descartes 1596 – 1650) مكرسا **لسيادة الذات على الموضوع في المعرفة** :« لا أقبل شيئا ما على أنه حق، ما لم أعرف يقينا أنه كذلك: بمعنى أن أتجنب بعناية التهور والسّبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع شك » رونيه ديكارت، مقال في المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3، (د.ب)،1985، ص 190-191.

نقد المسلمة الأولى : (انفصال العلم عن الحياة اليومية)

يعيد "دوسارتو" النظر في الفكرة التي ترسخت في أدبيات "الأبستمولوجيا الحديثة" والتي تقضي بأن **"الذات المفكرة" (Sujet)** هي مركز المعرفة، وليس **"الموضوع"(Objet)** إلا مادة يخضعها الفكر للتحليل والفحص ويسير بها إلى النتائج، لكنه يعتقد أن علاقة الذات بالموضوع في المعرفة العلمية لا تسير في اتجاه أحادي **(أي من الذات إلى الموضوع)** بل يوجد **تأثير ديناميكي بينهما،** إذ ليس من الصواب أن ننظر إلى الظواهر المدروسة كموضوعات ميتة أو مجرد مادة للتفكير، بل هي **كيانات حية** تؤثر بدورها تأثيرا خفيا وعميقا في تفكير العلماء، وهي من تحدد في أغلب الأحيان محتوى نظرياتهم وتتحكم في اختياراتهم المنهجية والإجرائية، ولو أخذنا موضوع الدين كمثال، فإننا لن نجد عناء في ملاحظة تأثيره في تصورات الفقهاء والمتدينين، وكيف أن مضامين نصوصه تتحكم في مناهجهم وتفسيراتهم، وتحدد توجهاتهم العقدية.

لهذا يدعونا "دوسارتو" للنظر إلى ما نسميه "موضوعا" من زاوية مختلفة، أي من زاوية كونه عنصرا فاعلا ينفذ في النسق العلمي ليحتل المساحات والخطابات، وهو يقول: « نلاحظ في الخطابات العودة الخفية **لبلاغة** تجعل من "الحقول الخاصة" للبحث العلمي **مجازات(*)**، وفي مكاتب الدراسات المسافة المتنامية لممارسات فعلية ويومية [...] هذه البنية المنفلتة والملاحظَة في عدة

*__المجازات__: هي كل ما يمكن إضفاؤه على العلم من عناصر ليست من نوعه، كالخيالات والاستعارات الأدبية التي قد نجدها متضمّنة في الكتابة العلمية.

إدارات أو شركات تتطلب إعادة التفكير في كل هذه التكتيكات التي تنكرت لها حتى اليوم ابستمولوجيا العلوم الإنسانية » [1].

إن تأثير الموضوع على الذات قد يتم بشكل حدسي مباشر، كتأثير سقوط التفاحة على تفكير نيوتن، حتى صرنا نتذكر قانون الجاذبية (النظرية) لكن لا أحد يستذكر **"السياقات" وهي وقع وتأثير الموضوعات على حدس العلماء وأفكارهم**، أو قد يتم بشكل بطيء وغير مباشر من خلال تأثير الظروف التاريخية والاجتماعية على فكر العلماء.

يصف المفكر "محمد شوقي الزين" وهو أحد المختصين في فكر "دوسارتو" علاقة الذات بالموضوع **"بالحلقة اللادونية"**، بمعنى أن الموضوع لا ينفك عن الذات لأنه يمثل مجال اشتغالها المباشر (مادة التفكير)، ويمثل أيضا حاضنتها (الاجتماعية والسياسية والثقافية) وهي مجمل العوامل الخارجية التي تؤثر بشكل مباشر في نشاط العلم، وهو يقول: « بإدراج الموضوع في المكان الاستراتيجي للمعرفة العلمية، يقوم الموضوع بشكل خفي وغير مباشر بتنظيم مساحة العمليات العلمية ذاتها، فهو ينتقل من الموضوع الجامد إلى العنصر الفاعل، مثلما تنظم اللغة العادية مساحة اللغة العلمية ذات الأشكال والرموز: قضايا تتخللها تفسيرات، محادثات بين الفاعلين العلميين » [2].

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، فنون الأداء العملي، ترجمة وتقديم: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر العاصمة،2011،ص39.

[2] محمد شوقي الزين، ميشال دوسارتو، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات (مدخل إلى قراءة تداولية)، ابن النديم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2013، الجزائر العاصمة،ص186.

ولهذا السبب يقوم العلماء -فيما يرى دوسارتو- بإخفاء طرائق بحثهم وأساليبهم العملية، وهو المجال **"غير المفكر فيه"** (l'impensé) **من قبل أغلب علماء الاجتماع، إنه المجال الذي يشمل رواسب العلم الخفية وارتباطاته المتشعبة بالإيديولوجيا والسياسة والاقتصاد، وما قد يطرأ عليه من تغيير بفعل التأثيرات الطفيفة والصامتة في لحظة تشكله داخل المؤسسات.**

أما الجانب الذي يظهره العلماء، فهو الجانب المكشوف من كتلة الجليد، أي تلك **الموضوعات التي يشتغلون عليها** (pensable) **والنتائج التي يتوصلون إليها، والخطابات والنظريات التي يصوغونها،** ولو جاز لنا أن نستعير تشبيه "دوسارتو" العلم بالمصنع نقول: أن العلماء يظهرون المنتوج النهائي لما يصنعون (منتجاتهم النظرية) ويخفون طرائق صناعتهم (الأساليب العملية)، « **فيحجب المنتوج عمليات الإنتاج** » [(1)].

يتوخى "دوسارتو" خيارات منهجية تمكنه من **تفكيك مركزية الذات في المعرفة العلمية،** لأنه بدل أن يرد نشأة العلم للذات، نجده يبحث عن أصله في **"البنى المادية"**، بمعنى **السياق الاجتماعي الذي شكله، وفي الممارسات التي انبثقت منه نظرياته و خطاباته**[(*)]، وهو يقول في هذا السياق:« **كل معرفة ترتد لتنظيمات سوسيو- ثقافية توضحها، ونتائج المعرفة لا يمكن فصلها**

[1] محمد شوقي الزين، ميشال دوسارتو، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات، المرجع السابق، ص 187.

[*] رد المعرفة للبنى المادية والعلاقات سوسيو-اقتصادية هي ميزة يشترك فيها فوكو ودوسارتو يتبين من خلالها أثر المنهج الماركسي في فكر الفيلسوفين.

عن الوضعية الشاملة التي أتاحتها، إنها محصّلة تنخرط في "لغة"(مرجعيات عقلية وبنيات اجتماعية) تضمّها أو تشتمل عليها » [1].

إنّ مهمة عالم الاجتماع-كما يتصورها دوسارتو- تتلخص على الأرجح في كشف تلك **الصلات الخفية و التواطؤات المتوارية التي تربط العلم بما هو خارج عنه (خيال، استعارات، مجازات...)**، وبدل الإغراق في البحث في المسار الخطي للعلم، لا بد أن يتوجه الباحث بفكره إلى الأسس لتعريتها، وأن يفحص **إجراءات العلماء أنفسهم وممارساتهم داخل المخابر والمؤسسات العلمية، ويمتد نظره ليشمل تأثير اللغة العادية في اللغة التقنية.**

إن السؤال الأساسي الذي كان هاجسا بالنسبة له هو: **كيف نهتدي لتحليل شروط نشأة العلم برده من النظريات إلى الممارسات، أو برده بوصفه منتوجا علميا (أو صناعة) إلى الشروط الاجتماعية التي أنتجته (أي المصنع)؟**[*].

[1] Michel de Certeau, *La faiblesse de croire*, établi et présenté par Luc Giard, éditions du Seuil, Paris,1987,p 183-184.

[*] يعمل "دوسارتو" على نقد الأطروحات التي تقيم تعارضا بين الحقيقة العلمية والمعيش اليومي، والتي تفصل فصلا ابستمولوجيا بين العلمي الذي يقوم على الدليل المخبري، وغير العلمي الذي ينتمي للثقافة الشعبية والحياة اليومية.

يعتقد "دوسارتو" أن العلم لا يستطيع –مهما تطورت مناهجه ووسائله– الإحاطة بجميع جوانب "الحياة اليومية" (la vie quotidienne)[*] لأنها تشمله، وهي بمثابة المحيط أو البحر الذي يحتضن السفن (العلوم) في رحابه فتتأثر بأمواجه. "فالحياة اليومية" تجارب حية زاخرة بالمعاني والاستعارات والأسرار لها نظامها الخاص ووجودها المستقل، والعلم نفسه — مهما ادعى من استقلالية ومجاوزة– فهو ينبثق من تلك التجارب الحية « لأنه ينتمي إلى ما يسميه "فتغنشطاين" **"شكل الحياة"** وهو ما يعيشه الفاعل الاجتماعي ولا يبرهن عليه»[1]، والمقصود هنا ممارسات العالم داخل المؤسسات والمخابر وتأثره بالخلفية الثقافية، وبالوضع الاجتماعي الذي ينتمي إليه.

ولو أخذنا نموذج **"العلوم الإنسانية"** لوجدنا أن العلم قد حوّل الإنسان لموضوع دراسة وتوجه إليه بوصفه ظاهرة مستقلة، لكن ما تم اهماله هو النظر إلى **"الإنسان العادي"** فيما يصنع ويبتكر في الحياة اليومية، إذ ينبغي على العلم أن يخرج "الإنسان" من دائرة الأشياء وأن يتوجه إليه بوصفه كائنا له قدرة **على الخلق والإبداع**.

---

[*] **الحياة اليومية**: مصطلح أساسي في فلسفة دوسارتو يعني به تجارب المعيشة للإنسان العادي في تجلياتها البسيطة بما تحمله من ذكاء في الفعل ومهارة في التصرف، هذا لأن حياة الأفراد وأساليب عيشهم وإن بدت لنا عفوية وفوضوية في ظاهرها، فإنها تسير وفق نظام وقوانين تحكمها (شكلية).

[1] محمد شوقي الزين، ميشال دوسارتو، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات (مدخل إلى قراءة تداولية)، المرجع السابق ، ص 189.

ويستشهد "دوسارتو" بأعمال "فرويد" (Sigmund Freud1856-1939) منتقدا ذلك الفصل الذي أقامه بين الأغلبية وهم أناس عاديون منفعلون صنفوا على أنهم محط للشهوة والقلق، وبين أقلية مبدعة خرجت عن المألوف وتسامت بالغريزة. لقد صوّر "فرويد" "الإنسان العادي" **ككائن خاضع لمجموع غرائز دفينة** تسربت في نفسيته وهي توجه حياته دون وعي منه، ففكرة الإنسان عن " الإله" ليست نابعة من إيمان حقيقي بقدر ماهي حاجة النفس لوجود سلطة عليا تحتكم إليها وتشكو لها ضعفها. يقول "فرويد" في كتابه "قلق الحضارة" : « لا يمكن للإنسان البسيط أن يتصور الإله إلا في صورة أب محاط بأعظم تمجيد، فمثل ذلك الأب هو وحده القادر على معرفة حاجات الطفل البشري، وهو وحده الذي يستطيع أن يلين قلبه للصلوات ويهدي غضبه لتوبته [...] **إن الغالبية العظمى من بني الإنسان لا تستطيع أن ترتقي أبدا فوق هذا التصور للوجود** » [(1)].

إن "فرويد" بهذا التصور يزدري "الإنسان العادي" الذي يتوهم أنه **"ينير العالم بمعتقداته الدينية"**[(*)] ، وبحكم أن التحليل النفسي يتوجه إلى الاستثنائي ولا يُعنى بالحياة اليومية. في كتاب "ابتكار الحياة اليومية" يرد "دوسارتو" على ادعاء "فرويد" ويبين بأنه هو نفسه كان يعتمد على نوع

[1] سيغموند فرويد، قلق الحضارة، ترجمة: جورج طرابشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1 1988، بيروت،ص 19.

[*] يفسر "فرويد" ظاهرة "الإيمان الديني" تفسيرا سيكولوجيا يؤدي إلى **هدم أي تصور ميتافيزيقي لوجود إله متعال**، فالإيمان في نظره يعكس في النفس العميقة **"حاجة طفولية للاحتماء، فاحتماء الطفل بالأب هو مثل احتماء المؤمن بالإله"**، لكن البشر يتوهمون- أنهم يضفون قيمة على العالم بما يعتقدون (فالحاجة الدينية –كما يقول- مرتبطة بحاجة طفولية وهي التبعية المطلقة وما تبعثه من حنين وتوق إلى الأب). سيغموند فرويد، قلق الحضارة، ترجمة: جورج طرابشي، المرجع السابق ، ص17.

من **"السردانية"** (narrativité) في التأسيس لنظرياته وهي تلك **الحكايات المستوحاة من الأساطير والحياة اليومية**، ويشير أيضا أن "فرويد" لو أعاد قراءة مؤلفاته لاكتشف تأثير الانسان العادي في نظرياته، إذ يتساءل قائلا: « ألم تستفد النظرية الفرويدية من التجربة العامة التي تستحضرها؟[...] ألا يمنح الإنسان العادي – وإن كان منحطا وممزوجا بالعموم الخرافي– للخطاب سبيلا لتعميم معرفة خاصة وضمان صحتها عبر التاريخ برمته»[1] ؟.

لقد كان لزاما على "فرويد" – في نظر دوسارتو– أن يستعين بالأسلوب الروائي السردي والأساطير ليعبر على النظرية العلمية، لأنه لاحظ عدم وجود تناسب بين نظرية التحليل النفسي واللغة العلمية المتصلبة ذات المعطيات التقنية، لهذا « لقد تم اكتشاف نوع من الأدب السردي داخل التحليل النفسي بوصفة حاملا لمشكلة نظرية » [2].

لم يقف الحد عند "فرويد" بل حتى "فوكو" و"بيار بورديو" (Pierre Bourdieu 1930-2002) اعتمدا على **"الحكي و السردانية"** في التأسيس لخطاباتهم العلمية، ولو كان الأمر خلاف ذلك فمن أين يشخصون المشكلات النفسية والأزمات الاجتماعية؟، أليس من الحياة اليومية لأناس عاديين؟. «**لقد** أعلن "فوكو" أنه لم يكتب سوى روايات، ومن جهة جعل "بورديو" من الرواية الطليعة

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق ، ص 46.

[2] Ignacio Martinez, (Entretien avec Michel de Certeau*)*, **Revue:Figures de la psychanalyse**,2003/1 N8, éditions ERES, p108.

والمرجعية لنسقه الفكري » [1]. ويستدل "دوسارتو" أيضا بخطاب الأنوار، فهو نفسه « يعبر عن تجربة عمومية ويشرحها » [*][2]، **بمعنى أن الأنوار هو خلاصة وقائع معيشية كان الفاعل الرئيسي فيها"الانسان العادي"، قبل أن يحتكرها المفكرون ويحولونها لنظرية فلسفية،.**

إن "الحياة اليومية" في نظر "دوسارتو" لها منطق داخلي يحكمها (شكلية)، لكن العلم يسعى إلى إخفاء هذه "الشكلية" لإحلال أيديولوجيته، ويتم له ذلك من خلال استحداث لغة تقنية خاصة به تختلف عن لغة الإنسان العادي، فهو يقصي اللغة السردية الأدبية لأنها لا تعدو أن تكون لغة الثقافات الشعبية.

إن دوسارتو لا يفصل بين العلم والحياة اليومية، لأن العلم ذاته (بما فيه التحليل النفسي) منغرس في التجربة المعيشية ومستوحى من عمق الحياة اليومية، ونظرياته في الأصل ناجمة على ممارسات اجتماعية لأفراد ونخب تنشط داخل مؤسسات علمية. والعلماء مهما بلغوا من الاستقلالية فهم يتأثرون بواقعهم المعيشي، وبأزمات مجتمعاتهم، وسجالات قضاياهم، وبحوائجهم المادية والمعنوية.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق ، ص 158.

[*] بمعنى أن الصراعات السياسية والثورات الاجتماعية **هي التي أقامت الأساس النظري والفلسفي لعصر الأنوار، فلولا الانسان العادي الذي كان يناضل ويحرك الأحداث اليومية لما تحقق الصرح الفلسفي للأنوار، فالفكر هو انعكاس لممارسات اجتماعية .**

[2] المصدر نفسه، ص 47.

نقد المسلمة الثانية: (أثر العلم على الإنسان والمجتمع):

انشغل "دوسارتو" بالوضعية التي آلت إليها المسحية في المجتمع الغربي الحديث، وكيف تدهور التدين لصالح قيم أخلاقية علمانية، وقد خصص لذلك دراسات مفصلة في مجال التصوف المسيحي[1]. ومن بين سمات ذلك العصر هو اكتساح "المعرفة العلمية" لكل مناحي الحياة، حيث طغت على أساليب التفكير وفنون العيش، لدرجة أنها أضحت**"المرجعية الأساسية"** للنظام الاجتماعي برمته، مما نتج عنه **ضرورة علمنة الدين المسيحي وعقلنته.**

إنّ فصل القيم المسيحية عن السياسة وتحويلها إلى أخلاق مدنية، اقتضى النظر إلى الدين بوصفه ظاهرة تستوجب الدراسة والبحث بشكل موضوعي،كما لم يعد "للمتدين" (religieux) مكان في المجتمع « وصار يصنف ضمن الفولكلوريين والسحرة المتكهنين »[2] .

لهذا لا تتحقق "المعرفة العلمية" في رأي "دوسارتو" إلا إذا أفرغت موضوعاتها (كالدين أو الإنسان) **من أي قيمة رمزية،** بحيث تحولها إلى « مجرد أعراض تدل على أفعال وشعائر بمعزل عن

[1] voir les deux livres de Michel de Certeau, *La Fable mystique* (XVI^e^-XVII^e^ siècle) ,(tome I) et (tome II), éditions Gallimard, Paris.
[2] Michel de Certeau, *L'absence de l'histoire*, éditions Maison MANE, 1973, Paris, p7.

مضامينها الرمزية والإيديولوجية » [1] . إن الدين بهذا المعنى لا قيمة له في ذاته إلا من خلال ما يضفيه عليه العلم من معاني ودلالات [*].

لقد أفرغت المسيحية من مضمونها الروحي، ولم تعد تعبر عن حقيقة متعالية وعن عوالم رمزية زاخرة بالمعنى، وأصبحت قيمة النص الديني مرهونة بما نفهمه (تأويلات) وليس بقدسيته أو روحانيته.

لكن هذه "العلمنة" في نظر "دوسارتو" لم تحدث بسبب تأثير المعرفة العلمية فقط، وإنما حدثت بفعل **تحول جذري في عمق المجتمع الغربي**، فالحداثة كرست بموجب هذا التحول **لمنظور جديد للإنسان**، إنسان مفصول عن القيم الروحية ولا يحتكم إلا للمرجعيات العلمية والسياسية، وتطغى عليه النظرة المادية (الاقتصاد والمصلحة)، وهو يقول:« أصبح الدين يُنظر إليه من الخارج، ويصنف ضمن العادات والتقاليد والصدف التاريخية، بهذا المعنى يتعارض الدين مع العقل ومع الطبيعة[...]لقد أصبح محتوى الاعتقاد معروضا على التحليل انطلاقا من مسافة ضرورية مع فعل الاعتقاد. أصبح الدين موضوعا اجتماعيا، أي موضوعا للدراسة ولم يعد بالنسبة للذات مبدأ التفكير والتدبير » [2].

---

[1] محمد شوقي الزين، ميشال دوسارتو، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات (مدخل إلى قراءة تداولية)، المرجع السابق، ص 189.

[*] الأمر نجده أيضا عند فوكو: حيث أُفرغ الجنون من عوالمه الرمزية والفنية والجمالية، وتم اختزاله في كونه مرضا عقليا يستوجب العلاج.(كتاب تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي).

[2] Michel de Certeau, *L'écriture de l'histoire*, éditions Gallimard1975, Paris, p 181-182

ويعلق "شوقي الزين" على هذا الانقلاب قائلا: « لقد وقع ما يسميه دوسارتو **"القطيعة التأسيسية"** قلبت نظام التفكير والتدبير في عصر الأنوار، عندما اتخذت الممارسة الدينية دلالة جديدة، ليست لاهوتية بل أخلاقية، ليست كهنوتية بل اجتماعية» [1].

لكن ما كان لهذا **"النموذج الانسان"** أن يتحقق دون أن تقيم العقلانية الحديثة أنظمة معرفية تدعوا له وتنسج حوله الخطابات وتشيد له المؤسسات، وحتى العلوم الانسانية[*] في نظر "دوسارتو" جاءت كانعكاس لرغبة الانسان في عقلنة نفسه ومختلف جوانب حياته، فالدين مثلا أحيط بشتى العلوم وادخل في معادلات الأرقام، وقد ظهرت مباحث شتى "كالأنثروبولوجيا" و"السيكولوجيا" و"التاريخ" كلها مباحث جعلت من الإنسان موضوعا لها. « لقد تعاملت العلوم الإنسانية مع الظواهر الدينية بوصفها منتوجات، وتم تحليلها وكأنها حقائق من نوع خاص»[2] . إن اكتساح المعارف العلمية لم يرى فيه "دوسارتو" أي علامة على تقدم الإنسانية، وإنما هو اكتساح يضمر نية في السيطرة ورغبة في الاحتواء والهيمنة.

[1] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص 186.

[*] لماذا تزامن عصر الحداثة مع إحاطة الإنسان بالعلوم واتخاذه كموضوع بحث ؟ هذا سؤال يعد بمثابة هاجس مشترك بين فوكو ودوسارتو .

[2] Michel de Certeau, *La faiblesse de croire*, op.cit, p 191.

2.1 نقد الهيمنة الاقتصادية:

لا ينكر "دوسارتو" ما يمارسه "النظام الاقتصادي" من هيمنة شاملة على الأفراد، فهو يسخر المؤسسات والشركات التي تتمكن بدورها من خلال ترسانتها الإعلامية من تأطير الوعي وتوجيه السلوك نحو غاية محددة وهي **"الاستهلاك"**، وهو يقول: « تبحث الشركات والإدارات والإعلام على صياغة القيم، والتحكم في العلاقات الإنسانية [...] الصحافة والراديو يوقعان بهذا "الحشد المنعزل" (foule solitaire) بسحر سماوي، وبقصص الحب الغريبة والسهلة، وأخبار المخدرات المرعبة، **هذا يعني أن هنالك إحساس بالخضوع** »[1] . لكن السؤال المطروح: **هل الفرد يخضع خضوعا مطلقا لهذه السيطرة الاقتصادية؟ أم أن هنالك هامشا للمناورة والانفلات ؟.**

على رغم من اعتراف "دوسارتو" بوجود هذا النمط من الهيمنة، إلا أنه يفترض وجود هامش مناورة تمكن الفاعل الاجتماعي من التحرر من السلط المفروضة عليه. وهو الجانب الذي لم يلق القدر الكافي من الاهتمام من طرف علماء الاجتماع، والذين انتقدهم دوسارتو على اعتبار أنهم يصوّرن "الإنسان" في أبحاثهم بوصفه كائنا "مستهلكا" (consommateur)[*]ينفعل للأحداث وتسيّره

[1] Michel de Certeau, *la culture dans la société*, Revue:*Etudes*, mars 1972, p396.

[*] يفهم دوسارتو مصطلح **"الاستهلاك"** بمفهومه الأوسع، وهو لا يقصد به حصرا استهلاك السلع المادية بل حتى المنتوجات الرمزية (كمضامين الإعلام، والمجلات والكتب، والسنيما والأخبار والروايات).

الأسباب مثله مثل الظواهر الأخرى، ويتضح ذلك من خلال دراساتهم للفاعل الاجتماعي بأسلوب كمي وإحصائي: كنسبة مشاهدة التلفاز، واستهلاك المواد الغذائية وغير ذلك.

لقد أغفلت تلك الدراسات الاجتماعية- في رأيه- **الفعالية و"الانتاجية"** التي يتميز بها الأفراد داخل المجتمع، فهم يوظفون مهاراتهم وذكائهم ليعيدوا إنتاج ما هو موجه للاستهلاك، وعليه فإن "دوسارتو" يفترض أن الفاعل الاجتماعي هو "**مستعمل**"(**l'usage**) أكثر منه "مستهلك" لتلك الأغراض، وقد توصل إلى هذا الافتراض من خلال التمييز بين ما يفرضه النسق الاقتصادي (كرأس المال)، وبين استعمال الناس له (كالصفقات)، فالأفراد في المجتمع ليسوا خاضعين لأنهم يتحولون إلى **"مُلاك" لرأس المال** يوزعونه أو يحتكرونه أو يضاربون به. وهو يقول في هذا السياق:« من الممكن والواجب أيضا اكتشاف الاستعمال الذي تؤديه الجماعات والأفراد، مثل تحليل الصور المنشورة عبر التلفزة، والأوقات التي تقضى أمام الشاشة، **ينبغي أن تكمّل دراسة حول ما يصنعه المستهلك الثقافي خلال هذه الساعات وما يفعله بهذه الصور، الأمر نفسه يتعلق بالمكان الحضري أو المواد المشترات** » [1].

وإذا كان النسق الاقتصادي يحاول فرض منتوجاته على ما يسميهم "مستهلكين" استعانة باستراتيجيات مدروسة في التسويق، فإن الفاعل الاجتماعي في المقابل يستعمل مهاراته الدفينة في التلاعب بهذه الاستراتيجيات، ويشمل "دوسارتو" كل تلك المهارات في مصطلح واحد وهو

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 22 .

"التكتيك"(tactique)، وفي مواضع أخرى يشير إليها بمسميات مختلفة "كالكايروس" (kairos) ويعني **اقتناص الأهداف في ضرف وجيز**، وهي حيلة تمكن "الإنسان العادي" من تحقيق غرضه الشخصي داخل النسق المشيد، أو حيل "الاختلاس" (perruque)، أو "الصناعة" (fabrication) وكلها تعني: الكيفية التي يتحرر بها الأفراد من هيمنة الاستهلاك، فهم يمتلكون براعة متأصلة في خلق وابتكار أشياء جديدة داخل النسق المفروض عليهم، مما يمكنهم من إعادة استعمال الأشياء لغير غرضها الحقيقي(*).

ويدعوا "دوسارتو" علماء الاجتماع إلى الاهتمام بدراسة "تكتيكات" الأفراد والتي بقيت بعيدة عن الدراسات الاجتماعية، إذ يقول:« بعد تحليل الصور المنشورة والزمن الذي يقضيه المستهلك أمام الشاشة يبقى علينا أن نتساءل حول ما يصنعه بهذه الصور وخلال هذا الزمن، ماذا يصنع خمس مائة مشتر بمجلة إعلام وصحّة، أو مستعملي المتجر المركزي (سوبرماركت)، أو ممارسي المكان الحضري أو مستهلكي الروايات والأساطير الصحفية، فماذا يصنعون بما يهضمونه ويحصلون عليه ويدفعون ثمنه؟ ماذا يفعلون بذلك » (1).

---

* **الأنشطة اللارسمية:** كالسوق الموازية، والسمسرة وأنواع الاحتيال، وانتحال الشخصية، والوساطة والرشوة مرورا بالأفعال البسيطة: كأن يستعمل عامل مهني آلة العمل أو سيارة الشركة لتحقيق منفعة شخصية، أو البيع في الأرصفة، واعادة استعمال الأغراض القديمة كالألبسة البالية وقارورات الماء، **كلها تشير إلى صنائع منفلتة توحي بدهاء في الاستعمال. (بغض النظر عن المحاكمات الأخلاقية لهذه الأفعال).**

1 ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص86.

3.1 نقد المعرفة التاريخية:

يتصور "دوسارتو" التاريخ بوصفه **مجموعة من الإجراءات المعقدة والمتداخلة، يتقاطع فيها النظري مع العملي، والذاتي مع الموضوعي والفردي مع الجماعي**، وبالتالي فهو يحاول تجنب الوقوع في **النظرة التبسيطية والاختزالية** للتاريخ التي تصوره بوصفه علما موضوعيا قائما على ما يدونه المؤرخ بشكل فردي حول حدث ما، أو على أنه تصور كوني لحركة الأحداث و مسار الوقائع (هيغل)، وعليه فإن قراءة دوسارتو تتجاوز الطرح العلمي والفلسفي معا **لتقيم تحليلا أكثر شمولا واتساعا يحيط بالتاريخ من جميع جوانبه:** ومن بين الأسئلة الأساسية التي طرحها في كتابه " كتابة التاريخ" ما يلي: :« **ماذا يصنع المؤرخ عندما يكتب التاريخ؟ على ماذا يشتغل؟ ماذا ينتج؟** » [1].

يتبين لنا من خلال الأسئلة أن أسلوبه في معالجة سؤال التاريخ يتميز بالواقعية، فهو بحكم أنه عالم اجتماع يقارب التاريخ **بوصفه ممارسة تنجز في إطار علمي داخل مؤسسات (جامعة،** معاهد، ورشات بحث..)، لكنها ممارسة تتأثر بالعوامل الاجتماعية المحيطة بها، وعليه فكتابة التاريخ لا تنفصل عن الأطر الاجتماعية التي تحتضنها، وعوامل الضغط الخارجية كالاقتصاد والسياسة والمناخ الثقافي.

[1] Michel de Certeau, *L'écriture de l'histoire*,op.cit, p63.(que fabrique l'historien, lorsqu'il « fait de l'histoire » ? à quoi travail-t-il ?que produit-il ?)

إن الإشكال المركزي بالنسبة لدوسارتو ينحصر في **التساؤل حول ما إذا كان التاريخ (كممارسة ميدانية) ناتج عن عوامل موضوعية أم ذاتية ؟، بمعنى آخر هل هو عملية "آلية" (استراتيجية) تؤطرها بيروقراطية المؤسسات وحكم السياسات، أم هو عملية "حيوية" (تكتيكية) ترتكز على أنشطة الفكر والنقد والتحيل؟**.بالمحصلة نقول أن التاريخ في نظر دوسارتو هو نتاج عملية مركبة تتابع فيها ثلاثة ممارسات أساسية تتمايز فيما بينها من الناحية النظرية، وتتداخل من حيث هي ممارسات وهي : **التاريخ من حيث هو نتاج لممارسة اجتماعية، التاريخ من حيث هو ممارسة فردية، التاريخ من حيث هو صناعة نصية.**[1].

التاريخ كممارسة اجتماعية:

المقصود هنا السياقات الاجتماعية والعوامل الموضوعية المشكلة لفعل كتابة التاريخ ، نذكر مثلا المؤسسات والمخابر البحثية، والجامعات التي ينخرط فيها المؤرخ والتي تكون خاضعة بدورها لشروط قانونية ولإجراءات بيروقراطية، وتكون في الغالب خاضعة أيضا للرقابة السياسية.

نذكر أيضا الإطار الثقافي والمناخ الأيديولوجي الذي ينتمي إليه المؤرخ، والذي يحدد طبيعة المواضيع التي لها الأولية في المعالجة، والتي تستفيد من تمويل مالي مضاعف مقارنة بمواضيع أخرى

[1] راجع قراءة محمد شوقي الزين في كتابيه: الغسق والنسق، المرجع السابق ، ص134. (**الفصل الثالث: سؤال التاريخ من الفكرة المجردة إلى الممارسة الفعلية**)، وأيضا كتاب: ميشال دوسارتو، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات (مدخل إلى قراءة تداولية)، المرجع السابق نفسه، ص 217. **(الفصل الخامس: الممارسة التاريخية، مختبر الأفكار في صناعة الحدث)**

تخضع للاستبعاد أو الحظر، ولعل هذا ما يبرر اعتبار التاريخ محل صراع سياسي وسلطوي بين أقطاب مختلفة داخلة المجتمع الواحد، وبين الدول فيما بينها.

يقول "دوسارتو" في توصيف علاقة التاريخ بالمؤسسات والفضاءات الاجتماعية :« كل بحث تاريخي متمفصل مع حقل إنتاج سوسيو-اقتصادي وسياسي وثقافي، ويتضمن فضاء تحقق (كالمخبر) تُقيّد فيه معطيات خاصة » [1]، ويعلق على نفس العلاقة المفكر محمد شوقي الزين: « الموقع الاجتماعي هو موطن الانتاج الاقتصادي والسياسي والثقافي، بمعنى جملة الشروط والإكراهات التي تحدد العملية التاريخية كممارسة[...]فهي علاقة عضوية لا فكاك عنها [...] وللإحاطة الاجتماعية (المجتمع الأصغر وهو المتجمع العلمي، والمجتمع الأكبر وهو البنيات السياسية والمعطيات الاقتصادية والثقافية، والتآول الفكري..) دور واسع في تحديد عملية بناء التاريخ ونمط اشتغاله » [2].

التاريخ كممارسة فردية:

وهنا يتطرق إلى تحليل "مهنة المؤرخ" ودوره داخل المؤسسة التي ينتمي إليها، بحيث يساهم في إنتاج الخطاب التاريخي وفق مراحل ثلاث: عرض المعطيات التاريخية (كمادة أولية)، تشكيل معقولية حولها من خلال إخضاعها للتحليل والدراسة (فبركتها)، ثم أخيرا إخراج نص تاريخي هو بمثابة خلاصة إجراءات تقنية، وعليه فالمؤرخ في مؤسسته أشبه بالعامل (l'ouvrier) في مصنعه، مما يعني

[1] Michel de Certeau, *L'écriture de l'histoire*, op.cit, p65.

[2] محمد شوقي الزين، ميشال دوسارتو، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات (مدخل إلى قراءة تداولية)، المرجع السابق، ص 219.

أن التاريخ له طابع اجتماعي، لأنه موصول بأطر وسياقات "مادية"(المؤسسة) و"رمزية"(الخطاب) ومرهون "بالزمرة العلمية" (المؤرخون) التي تساهم في إنتاجه.

لهذا فالتاريخ ليس نتاج لمعطيات الواقع، بقدر ما هو إنتاج مادي واجتماعي، يقول دوسارتو: « فعل التاريخ هو بالأساس **ممارسة**، وفق هذه الرؤية يمكننا تصوره كعملية آلية[*] » [1].

يعلق المفكر شوقي الزين على عمل المؤرخ قائلا: « ما يقوم به المؤرخ أولى من المعطيات التي بين يديه، وأرقى من النتائج الخطابية والفكرية التي يتوصل إليها. ما يفعله هو تشكيل **"قطيعة تأسيسية"** عندما يقوم بعزل معطياته وتقسيمها ثم إعادة تركيبها، فيفصل المعطيات عن تربتها الأصلية (قطيعة) ليعيد تشكيلها في حقله الخاص (تأسيس) » [2].

التاريخ كصناعة نصية:

وهي المرحلة النهائية التي تصل فيها الممارسة التاريخية إلى إنتاج نص تاريخي ذو معقولية محكمة هو بمثابة خلاصة نظرية لما تم تداوله في الخطوات العملية، وعليه « فما تحلله الممارسات، تركبه الكتابة » [3]، لكن على الرغم من الطابع الاستراتيجي للنص التاريخي، تبقى هنالك إمكانية انفلاته

---

[*] آلي (مبرمج) programmatique: أي أن التاريخ يكتب وفق إجراءات تقنية تدخل فيها البرامج والحسابات والجداول، ولا يكون لتصورات الذات ولقناعات الأفراد السلطة العليا في إخراج الخطاب التاريخي.

[1] Michel de Certeau, *L'écriture de l'histoire*, op.cit, p.79

[2] محمد شوقي الزين ، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص147 .

[3] المرجع نفسه، ص152.

من الصرامة العلمية، فهو لا يخلو في مضامينه من بعض الاستعارات البلاغية والمجازات اللغوية والخيالات.

بالإجمال نقول أن التاريخ كما يتصوره "دوسارتو" هو ممارسة وليس تنظيرا عقليا، هو عمل جماعي ومؤسساتي وليس إنجازا فرديا، هو نشاط يُبنى بتأثير عوامل موضوعية (اجتماعية سياسية واقتصادية) وذاتية في الآن نفسه. ونقول ذاتية لأنه هنالك دائما إمكانية انفلات التاريخ من الطابع الاستراتيجي لخطابه، لأن هنالك عنصر خفي يدخل في تشكيله وهي حيل الأفراد في تضمين التاريخ استعارات ومجازات وبلاغات، لأن التاريخ هو علم وهو أيضا **فن في السرد وبلاغة في المعنى**، أو بمعنى آخر هو مهارة في إعادة تصوير الأحداث بأسلوب يجمع بين الخيال والسرد الروائي من جهة، وبين الالتزام بالمضامين العلمية والصرامة المنهجية من جهة أخرى.

2.تصور دوسارتو للمعرفة:

1.2 مفهوم المعرفة عند دوسارتو:

يشير "دوسارتو" بمصطلح المعرفة : **لنمط من أنماط الإنتاج على مستوى الخطاب أو الممارسات**، فالإنتاج المعرفي قد يكون على هيئة نص مؤلف أو خطاب مكتوب، وهنا يكون للمعرفة بعد نظري، كالجرائد والمجلات وإخراج الكتب و المدونات، وقد يكون الإنتاج المعرفي في صورة ممارسات مثلما نشهده في المختبرات العلمية، وفي المعاهد والجامعات (وحتى المهن والحرف اليدوية)،

وعلى الرغم من هذا التمييز إلا أن "دوسارتو" لا يضع حدا فاصلا بين الجانب النظري والعملي في المعرفة، بل العكس المعرفة حالة من التأليف بين النظرية والممارسة، لأن التفكير والتدبير، والنظر والعمل لا ينفصلان عن بعضهما،(*).

وعليه يتبين لنا مما سبق أن دوسارتو يطرح مفهوم المعرفة بمعناها الواسع وليس بالمعنى الابستيمولوجي الضيق، لأن إنتاج الخطابات والممارسات ليست نشاطا نخبويا يحتكره المتخصصون والتقنيون، فقد نجده عند الخاصة من الناس كما قد نجده عند عامة الناس، وبالتالي فالمعرفة تؤخذ هنا بمعنى المهارة وفن استحداث الأشياء. كما يعطي دوسارتو خاصيتين أساسيين لمفهوم المعرفة يمكن تلخيصهما فيما يلي:

أولا: ليس من الصواب أن نربط ربطا شرطيا بين المعرفة وملكات الذات، كأن نقول أن كل معرفة ترتد إلى تفكير مبدع وخلاق سواء كان تفكيرا فرديا أو جماعيا، فالمعرفة ليست انعكاسا لنشاط ذاتي كالتخيل والتحليل والافتراض، وإنما هي- كما يراها "دوسارتو"- **"نسق بنيوي بالغ التعقيد"** تتداخل في تشكيله عوامل مركبة (اجتماعية وسياسية واقتصادية).

*انظر مثلا الصحف والمجلات والكتب، فهي منتجات معرفية نظرية لكنها ألفت بشكل عملي في ورشات وفضاءات مخصوصة كمؤسسة الصحافة أو المكتبة، **بحيث يتخذ الانتاج بعدا ماديا واجتماعيا** مع وجود المطبعة والحبر والورق والمكنة وحتى الاجراءات البيروقراطية، وقس على ذلك في طب مثلا، فهو مبحث نظري لكنه غير مفصول عن إجراءات المستشفى والعمليات الجراحية والمعاملات الإدارية... وعليه كل معرفة مهما كانت نخبوية يتولاها المتخصصون التقنيون أو عادة يتولاها الحرفيون فهي لا تخلو من الجانبين النظري والعلمي.

ثانيا: يعري دوسارتو المعرفة من كل تجريد محض، من خلال طرحه لسؤال يعيد النظر في أسسها: ماهي الشروط الممكنة التي تجعل كل معرفة محققة ومكتملة؟، فتحليل أي "نظرية معرفية" يستوجب – من الناحية المنهجية– رد أصولها إلى شروط نشأتها التاريخية والاجتماعية، وكذا ربطها بالحياة اليومية وبالوقائع المعيشية ، وبالتالي فهو يربط المعرفة بسياقات حددت شروط نشأتها :**كالبنية الثقافية، ونمط الخطاب السائد، والشروط الاقتصادية والمؤسسات، والفضاء المكاني**، وعليه فهو يرفض الفصل بين النظري والعملي في المعرفة، لأن الممارسات تؤثر في تشكيل النظريات .

2.2 المعرفة استراتيجية والمعرفة تكتيكية:

يميز "دوسارتو" بين نوعين من المعرفة: معرفة ذات نزوع استراتيجي، ومعرفة ذات نزوع تكتيكي.

1.2.2 المعرفة ذات النزوع الاستراتيجي:

يكون للمعرفة نزوع استراتيجي عندما تأخذ في التوسع والانتشار لتشمل الهيكل الاجتماعي، وعندما تتحول إلى نسق مغلق أو (باراديغم) يسود العصر بحيث يصعب على الأفراد الانفلات منه أو التفكير خارجه(*).

*الباراديغم المعرفي عند "دوسارتو" هو الابستيمي عند ميشال فوكو، وكلاهما يشير إلى البنية المعرفية التي تحكم مجتمعا معينا.

ويتضح النزوع الاستراتيجي للمعرفة في اللحظة التي تتولى الخطابات والمؤسسات إنتاج نمط موحد من التّصورات والمعتقدات والسلوكيات، بدليل أن المعرفة ليست معطى طبيعي في بعدها الاجتماعي وإنما هي – بتعبير ميشال فوكو- **"إنتاج"** (production) **تتولى صناعته المؤسسات السياسية وفق ما يخدم هيمنتها، والمؤسسة الدينية وفق ما يخدم معتقدها، والمؤسسات الاقتصادية وفق ما يخدم مصلحتها،** ولنا في تاريخ الغرب أمثلة بينة على النماذج الثلاث من المعارف الاستراتيجية، "يقول دوسارتو": « من السديد التسليم بوجود مكان خاص من المعرفة في هذه الاستراتيجيات، وهي المعرفة التي تدعمها وتحددها القدرة على تشكيل مكان خاص، فقد تم تدشين الاستراتيجيات السياسية أو العلمية بفضل تأسيس حقول خاصة »[1] .

وتفيد كلمة "استراتيجي" في هذا السياق على أن **كل معرفة توجهها سياسات وفق تخطيط وتدبير مسبقين،** وتشير أيضا لكل خطاب يتسلح بالعقلانية، ويتخذ لنفسه مكانا مركزيا في المجتمع تتبناه مؤسسات ويتخذ من الغيريات موضوعا له، وهي الصفة التي يطلقها "دوسارتو" على المعرفة في عصر الأنوار.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق ، ص94.

2.2.2 المعرفة ذات النزوع التكتيكي:

أما المعرفة التكتيكية فهي من طبيعة زمانية وليس مكانية، إذ ليس لها محل استراتيجي خاص بها (كالمؤسسات أو الشركة...)، وهي تنشط في أماكن متعددة وتتحرك في نطاقات مختلفة، لأنها تتعلق أساسا بالأفعال العادية للفاعلين الاجتماعيين، و هي ليست من طبيعة نخبوية كمعارف الخبراء والمختصين.

إن المعرفة التكتيكية تُرصد في ممارسات ومهارات الأفراد في حياتهم اليومية، وهي تنشط أيضا داخل النصوص والخطابات العلمية على شكل مقتطفات خيال وتعبيرات بلاغية، وهي تمثل **الجانب الجمالي** من المعرفة. إنها معرفة التكتيكية كما يقول دوسارتو: « غير معروفة، لها في الممارسات وضعية مشابهة لما يوجد في الحكايات أو الأساطير بوصفها تعبيرات لمعارف لا وعي لها بذاتها [...]**إنها معرفة لا يفكر فيها الأفراد، يشهدون بها ولا يمتلكونها** » [1].

المعرفة التكتيكية من طبيعة زمانية، فهي أشبه بفعل "التجوال" لذا يشبهها دوسارتو"**بالذاكرة**"(*) فيقول :« تشمل هذه المعارف – ويقصد المعارف التكتيكية- على الكثير من اللحظات والأمور

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص147.

* لأننا حينما نتذكر وكأننا نتجول، نرتحل بخيالنا في أزمنة وأمكنة في الماضي دون أن نغادر المكان الذي نحن فيه، ويستعير "دوسارتو" مصطلح **(المعرفة/ الذاكرة)** ليشير إلى الطابع المنفلت للمعرفة التكتيكية .

المتنافرة، وتفتقر إلى منطوق خاص ومجرد وإلى مكان خاص، **هذه المعرفة هي "ذاكرة"** لا تنفك معارفها عن زمان اقتنائها » [1].

مُحصّلة المبحث:

لقد بيّنا مواضع النقد التي اشتغل عليها "دوسارتو" و التي عمل فيها على تفكيك ومراجعة النسق المعرفي للمجتمع الغربي، من جوانبه الثلاث **العلمية ، الاقتصادية والتاريخية** ومن حيث أثره على المجتمع والإنسان، ثم تبين لنا أن المعرفة في نظره هي كل أشكال انتاج الخطاب والممارسات والتي تتخذ إما طابعا استراتيجيا عندما تتولى المؤسسات هذ النمط من الإنتاج فتوسعه وتفرضه، وإما طابعا تكتيكيا عندما نرصد تلك المعرفة عند الفاعلين الاجتماعيين على هيئة فنون في الصنائع، ومهارات في العيش، وحيل في الافلات.

[1] المصدر نفسه، ص165.

المبحث الثاني للفصل الثاني:

مفهوم السلطة عند ميشال دوسارتو

تمهيد:

1. تصور دوسارتو للمجتمع كمدخل لفهم نظريته في السلطة:

2.تصور دوسارتو للسلطة من خلال مصطلحاته الأساسية.

1.2 السلطة بوصفها "استراتيجية".

2.2 السمات العامة للسلطة الاستراتيجية.

3. أنماط السلط ومجالات اشتغالها.

1.3 السلطة والمكان الحضري (استراتيجية المدينة ومؤسساتها)..

2.3 السلطة والخطاب (استراتيجية النص)

3.3 السلطة والجسد (استراتيجية الانضباط)

4. السلطة الانضباطية وتجربة الموت:

مُحصّلة المبحث:

تمهيد:

تميّز العصر الذي عاش فيه "دوسارتو" بكثرة الحروب بين الدّول، وبحدّة الصّراعات السّياسية داخل المجتمعات، وقد كان شاهدا على الثّورة الطّلابية في فرنسا سنة 1968، ونتيجة لتلك العوامل تسابق الكثير من فلاسفة عصره من "الماركسيين" و"الوجوديين" ومن "مدرسة فرانكفورت" **لإيجاد صيغة فلسفيّة تفسّر حالة التّمزق السّياسي والاضطراب الاجتماعي، والتّصاعد الرّهيب للأيديولوجيات الشّمولية الاستعمارية، واستعمال وسائل الإخضاع والهيمنة،** والأهمّ من ذلك **إيجاد تفسير فلسفي جاد لسؤال السلطة.**

ولعلّ هذا الهاجس كان حاضرا بشكل لافت في كتابات "دوسارتو"، فقد كان من الضّروري أن ينخرط هو الآخر في نقد وسائل السّيطرة، ولعل الأسئلة التي كان يتوجّب عليه الإجابة عنها هي كالآتي: **ما هي السلطة وما طبيعتها ؟ من له مشروعية امتلاكها؟ هل هي أداة بناء نسير بها إلى التّوافق والعيش المشترك، أم أنّها أداة هدم وصراع ؟ هل هنالك منطق يحكم السّلطة أم أنّها قوّة عمياء تحرّكها الفوضى؟.**

1.تصور دوسارتو للمجتمع كمدخل لفهم موقفه من السلطة.

يذكر "دوسارتو" حادثة بالغة المعنى: بعد غلق سجن "ألكاتراز"[*] (Alcatraz) قالت بنت لأبيها متهكّمة – وهو أحد حرّاس السّجن: « **أن نصل إلى سلام دائم ، هذا ضرب من الحلم** »[1]. وكأنّها تريد أن تقول أنّنا حتّى وإن وضعنا الأشرار كلّهم في السّجون، وتجاورنا مع الأخيار، « فما الذي يضمن لنا أن لا نجد من بين جيراننا بعض المزعجين والأنداد والأعداء بمحاذات الأصدقاء »[2].

إن "الصّراع" كما يتصوّره "دوسارتو" ليس عنصرا دخيلا على المجتمع هادما لأسسه، بل بالعكس، **المجتمع ذاته لا يقوم إلاّ على وجود الصّراع ; فالتّنازع بين الأقطاب (المؤسسات والهيئات والعُصب)، والتّدافع بين الأشخاص على المناصب والنّفوذ، والتّسارع نحو التّموقع، هو ما يجعل المجتمع متحرّكا نحو الأمام، ولولا هذا الصّراع لكان المجتمع ساكنا وميتا**، وعليه لا وجود لمجتمع نموذجي يعمّه السّلام مهما بلغ من التّطور والرّقي. وتدعيما لموقفه يذكر في أبحاثه الاجتماعية ما يسميه "حالة الفعل الاجتماعي" (l'état de fait social)، ويقصد بها الديناميكيّات والتّأثيرات التي تنتج عن تصادم الفاعلين الاجتماعين، وهو يقول: « انظر لتلك الدّيناميكيّة و لتلك التّيارات

---

* سجن فيدرالي أمريكي يقع في جزيرة معزولة في المياه الباردة لخليج سان فرانسيسكو بكاليفورنيا، كان يضم أخطر المجرمين الأمريكيين و اشتهر بحراسته المشددة وتم غلقه سنة 1963 بسبب ارتفاع تكاليف التشغيل.

[1] Michel de Certeau, *L'étranger ou l'Union dans la différence*, éditions Foi Vivante,Paris, 1969, (chapitre 2:loi de conflit),p 17.

[2] Ipid, p 17.

المتضاربة للفاعلين النّشطين، يحدث هذا لأن الجسد الاجتماعي في حالة تغيّر، إذن فهو في حالة تمزّق، إن جسد الأفراد هو في حالة فعل أكثر من كونه في حالة "معاناة" (pâtir). زهد المتصوّفين عذاب الممسوسين، التّنكيل بالمهرطقين، إبادة الهنود الأمريكيين، صراعات السّياسيين، وهجران الأموات » [1].

يوجّه "دوسارتو" نقدا مباشرا للأطروحات الفلسفية الدّاعية إلى السّلام، فهؤلاء الحالمين يطلبون التّوافق وينشدون النّظام في حين أنّ الصّراع حتمي وأبدي، **لأن المجتمع لا يقوم فيه بناء إلا من خلال الهدم، ولا يسير نحو التطوّر إلا بالتّدافع بين قواه الحيّة المتصارعة، لكنه صراع تنقلب فيه الأدوار وتتبدّل فيه الأحوال تبدّلا لا نهاية له.**

ويأتي موقف "دوسارتو" مطابقا لتقليد فلسفي يبرّر مشروعيّة الصّراع بوصفه عنصرا أساسيّا لحركيّة المجتمع واستمراره، وأهمّ هؤلاء نذكر الفيلسوف والحكيم الإغريقي "هرقليطس" (Héraclitevers 540-480 av.J-C) الذي قال بأن الوجود يتحرّك بالتّنازع وأنّ: «الحرب هي أم الأشياء جميعا »[2] ، وتلميذه "هيغل" الذي تصوّر أن الحرب هي معيار قياس أخلاق الأمم وقوتها.

[1] Luce Giard, Hervé Martin, Jacques Revel, *Histoire mystique et politique (Michel de Certeau)*, éditions Jérôme Millon, Grenoble, 1991, p41.
[2] Marcel Conche, *Héraclite* **fragments**, Presses Universitaire de France, Paris,1986, p 437.

لكن القول بالصراع بالنسبة "لدوسارتو" لا يعني الوقوع في فخ النظرية الفوضوية (l'anarchisme)، التي تقضي بأن العالم تسيره قوة عمياء لا منطلق لها ولا منتهى .

إن الصراع بالنسبة له – مهما بدى لنا فوضويا – فهو محكوم بمنطق يسيّره يسميه "دوسارتو" "الشّكلية" (formalité)[*]، فما يحرك الصّراع **هو وجود "استراتيجيات" إخضاع تمثّلها المؤسّسات والتّنظيمات والهيئات، وتقابلها "تكتيكات" تمثّلها قدرة الأفراد على المناورة والانفلات من قبضة الاستراتيجيات،** وكل من "الاستراتيجي" و"التكتيكي" له ميكانيزماته الخاصّة وطريقة اشتغاله.

لقد استمد "دوسارتو" هذين المفهومين– وفق قراءة المفكر محمد شوقي الزين– من« المعجم التّقني للعمليات الحربيّة والمناورات العسكريّة » [1] ليوظّفهما في الحقل السّياسي والاجتماعي، ليبيّن أنّ ما يحدث في المجتمع هو أشبه بما يحدث في ساحة الحرب، كلاهما قائم على ما يسميه "دوسارتو" "بالبوليموس" (polimos)، وهو مصطلح إغريقي يعني الصّراع الدّائم والحرب المستمرة، ليس فقط بين النّوع البشري بل بين الكائنات كلها.

---

* "الشكلية": مصطلح أشبه بمفهوم "اللوغوس" عند هرقليطيس **وهو القوى العقلانية الخفية التي تدفع بالنّظام من وراء الفوضى**، "فالثورة"مثلا على الرغم من طابعها العنيف وما قد تخلفه من دمار في ظاهرها، **إلا أنها تحمل قوة دافعة للحياة والتجدّد،** وعن طريقها يحدث البناء والتغير، فيحلّ النظام الجديد محلّ النظام القديم وتنهار أنساق سياسية واقتصادية وتحل مكانها أنساق جديدة.

[1] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق ، ص 283.

إذا السّلطة حسب "دوسارتو" **هي مجموع الصّراعات بين بؤر ومحاور عدّة، وهي مواجهات وتوتّرات تحدث داخل النسيج الاجتماعي**، بين ما ينتمي للاستراتيجيات وما ينتمي للتكتيكات. لكن ماهي الاستراتيجية وكيف تشتغل بوصفها محرّكا للسلطة ؟

2. تصور دوسارتو للسلطة من خلال مصطلحاته الأساسية:

1.2 السلطة بوصفها "استراتيجية":

تعود كلمة "استراتيجية" في أصلها الاشتقاقي إلى اللفظة الاغريقية (stratègos)، والتي تعني "جيش"، أما المعنى الاصطلاحي، فتعني « **تسخير الإمكانات اللاّزمة، والفرص المتاحة من أجل تحقيق غاية محدّدة وهي الغلبة أو الانتصار على العدو** »[1]، وبالتالي يتّضح لنا أن المصطلح يشير للنّشاط العسكري ويعني **فن إدارة الحرب**. لكن كيف تم إزاحة هذا المصطلح من سياقه العسكري وتوظيفه في السياق الاجتماعي؟

يعرّف "دوسارتو" "الاستراتيجية" بأنها: « حساب علاقات القوى الذي يصبح ممكنا من السّاعة التي تعزل فيها "ذات" لها إرادة وسلطة عن بيئة معينة، فهي تؤمن بوجود محل من المرجح أن يتقيّد

[1] Michel Blay, *Larousse*, opi.cit, p986.

كمحل خاص، وكأساس في إدارة علاقاتها مع خارجية متميزة. **تأسست العقلانيّة السّياسية أو الاقتصادية أو العلمية على هذا النّموذج الاستراتيجي** » [1] .

يقصد "دوسارتو" بمصطلح "الاستراتيجية" نمط اشتغال "المؤسسة" (institution) على وجه التّحديد، فهي منظومة متكاملة من السّلط التي يجتمع فيها الجانب النّظري كالتّخطيط والتّدبير على مستوى الإدارة، والجانب العملي وهو تفعيل القوانين البيروقراطية والتطبيق الصّارم للتّعليمات وحفظ الانضباط، وأخيرا الجانب المادّي وهو بناية المؤسسة (بانوبتيك).

وأهم شرط لاكتمال اشتغال السّلطة الاستراتيجية هو وجود "موضوع" هو بمثابة حقل تدخّل بالنسبة للمؤسّسة. ومن أمثلة ذلك "المؤسسات السّياسية" التي توظّف استراتيجياتها لإخضاع المواطنين وحفظ الأمن، المؤسسات الاقتصادية كالمعامل التي تطبّق تعليماتها على العمّال من أجل ضمان الإنتاج، وحتّى المؤسّسات الدّينية تؤطّر المريدين وتلقّنهم أصول الاعتقاد وشروط الإيمان، دون أن ننسى المؤسّسة العلميّة التي تتّخذ من الظّواهر الانسانيّة موضوعا لها. يقول المفكر شوقي الزين: « الاستراتيجية هي "الجسد" المؤسساتي (منظومة، نسق، قالب) لسياسة أو إيديولوجيا أو مختبر علمي لما ينطوي عليه من علاقات في القوة وتعابير في التصنيف والتقييد وتدابير في العزل والإقصاء »[2].

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 32.
[2] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص287.

2.2 السمات العامة للسلطة الاستراتيجية:

تتميز السلطة عند دوسارتو-بوصفها استراتيجية- بعدة مواصفات وهي:

- **العزل في المكان (الخاص هو انتصار المكان[*] على حساب الزمان):**

بمعنى حصر الموضوع في حيز مكاني تمهيدا للسّيطرة عليه، كالمختبر العلمي بالنّسبة لموضوع الدّراسة، أو المصنع بالنّسبة للعامل، أو الثّكنة بالنّسبة للعسكري أو المدرسة بالنّسبة للتلاميذ. فكل استراتيجية « تفترض مكانا يمكن حصره أو تقييده كمكان خاص هو القاعدة التي تُدبّر فيها وقائع خارجية في شكل أهداف وتهديدات (الزبائن أو المنافسين، الأعداء، البادية المحيطة بالمدينة، أهداف البحث ومواضيعه) »[1].

- **السيطرة على الأمكنة بالبصر:**

لا يكفي حصر موضوع في حيز مكاني، بل لا بد من إحاطته بنظام من الرّقابة المستمرة (البانوبتيك) حتى لا يكون هنالك هامشا للمناورة والإفلات، والرقابة إمّا أن تتّخذ طابعا مشخّصا كرقابة الحرّاس والمفتّشين والمخبرين، أو تتّخذ طابعا رمزيّا كالزّجاج العازل للبنايات و الملصقات التّوجيهية والخطابات التّحذيرية والمواعظ والإرشادات والاستجوابات النفسية...). يقول "دوسارتو" في علاقة المكان بالرقابة: « تتيح تجزئة المكان ممارسة شاملة (بانوبتيكية)، انطلاقا من مكان يحوّل

[*] يُفهم **المكان** عند "دوسارتو" بالمعنى الفلسفي (ما يشبه البانوبتيك عند فوكو)، أي أنه لا يعني الحيز الحسي المباشر بل هو المكان الذي يكون وجوده شرطا لتقييد موضوع معين، سواء كان مختبرا أو سجنا أو مدرسة أو نصا أو شركة أو مدينة.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 93.

فيه نظر القوى الأجنبية إلى موضوعات يمكن ملاحظتها أو تقديرها، بمعنى مراقبتها[...]**النّظر يصبح أيضا التنبؤ، أي استباق الزمن بقراءة المكان** » [1] .

- **حساب علاقات القوى (التدبير العقلاني):**

كل فعل استراتيجي يسبقه **"تدبير عقلاني" للموضوع: كالإحاطة بطبيعته، وتحليل مكوناته وتوقّع ردود أفعاله،** وملاءمته مع المكان السّلطوي الذي يحتويه، بحيث «يتم السّيطرة على الزّمن بتأسيس مكان ذاتي ومستقل»[2]، ونذكر من بين تلك الاجراءات: **التّوزيع، والتّصنيف والتّصفيف،** وهو ما نجده في "المدرسة" عندما ينتظم التّلاميذ في صفوف، ويصنّفون حسب الأعمار والجنس والمستوى ويوزّعون على الأقسام، وقس على ذلك في باقي المؤسّسات كالثّكنة والمصنع وحتى المدينة.

إن السلطة بهذا المعنى -كما يقول دوسارتو- « تحاول إرجاع العلاقات الزّمانية (مناورات، مراوغات، تخفي، انفلات) إلى العلاقات المكانيّة، (حجرات مراقبة، بنايات محروسة، قاعات مرتبة بإحكام) بإسناد مساحة خاصة بكل عنصر، وبتنظيم إدماجي لحركات تخصّ الوحدات أو مجموعات الوحدات، لقد كان النّموذج عسكريا قبل أن يكون علميّا[*] » [3].

---

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 93، 94.

[2] المصدر نفسه، ص 93.

[*] إدماج العنصر الواحد في المجموع المنظم وفق ترتيب وقتي صارم هو ما يسميه "فوكو""**الترويض الانضباطي للجسد"،** ونلاحظه في الثّكنة من خلال حركات الجنود المنسجمة أثناء التّدريبات، بحيث تتحوّل أجسادهم بفعل الانضباط إلى ما يشبه آلات متحركة لا مجال فيها للخروج عن النّظام.

[3] المصدر نفسه، ص 97.

- **الطبيعة الإنتاجية للسلطة الاستراتيجية:**

تعني الصّفة الإنتاجية أن السّلطة اتخذت صيغة "رمزية"، فلم تعد مُشخّصة في إرادة الحاكم السّياسي أو قرارات البرلمان أو في حكم الديموقراطي، وإنّما صارت تشير إلى كل ما يمكن فبركته من منتجات قابلة للاستهلاك، وتُفهم كلمة "إنتاجية" (productivité) **هنا بالمعنى المادّي**، لأن المؤسسات تنتج ما يستوجب على الفرد استهلاكه كما يستهلك السّلع الغذائية من المصنع .

فالمؤسسات الإعلامية مثلا تنتج الجرائد والمجلاّت والكتب بوصفها سلعا ثقافية موجّهة للاستهلاك، وقس على ذلك في الدّعايات الاشهارية والحملات الانتخابية. يقول "دوسارتو": « من بين مميزات الحضارة الغربية هو تراجع الحضور المشخّص للأفراد في المجال الإعلامي والثّقافي، فبدل أن يرتكز تواصل الجماهير على الوسائط (médiateurs) صار يرتكز على الوقوف أمام الشّاشات (l'écran) »[1].

إن "الإنتاجية" – بالمعنى الذي يطرحه دوسارتو– لم تعد **انتاجية أشخاص** (مخبرين، مراقبين، عسكريين) كما كان الأمر في السلطة الانضباطية، وإنما **"إنتاجية رمزية دعائية"** تتولى تنفيذها وسائل الإعلام وما تبثه الشّاشات من خلال السّنيما والبرامج والأخبار.

[1] Michel de Certeau, *L'étranger ou l'Union dans la différence,* opi.cit, p47.

3. أنماط السلط ومجالات اشتغالها:

1.3 السلطة والمكان الحضري (استراتيجية المدينة ومؤسساتها):

تتميز "المدينة" في نظر "دوسارتو" بثلاث ميزات أساسية: **تشييد البنايات والصّروح العمرانية تنامي النّشاط العلمي، وميزة الكونية:** أي أنها مكان رمزي تذوب فيه كلّ الأماكن، وهي أشبه بالدّولة عند "هوبز" بوصفها الكيان الذي ينصهر فيه الأفراد.

ويضيف أيضا بأن الجانب السّلطوي "للمدينة" يتضح من خلال إجراءين: الأول هو« فرض النّظام عن طريق القمع » [1] ويتحقق ذلك من خلال توظيف "جاهزيات" (dispositifs) تتولى التّرتيبات الأمنية والإجراءات الإدارية التي تنظم حياة النّاس، وتجبرهم على الخضوع والانقياد.

والإجراء الثّاني هو "إقصاء" (exclusion)كل ما ينفلت من قبضة "الجاهزيات"، « إذ تقصي "المدينة" كل ما هو غير قابل للمعالجة ويشكل نفايات لإدارة وظيفية (اختلال، انحراف، مرض، موت) » [2].

[1] Michel de Certeau, *L'absence de l'histoire*, opi.cit, p136.
[2] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 185.

يوظف "دوسارتو" استعارة "القطار" [*] ليصف الطّابع الاستراتيجي والمعمّم لسلطة المكان الحضري (المدينة)، **فحالة الفرد داخل "المدينة" هي أشبه بحالة مسافر جالس في عربة القطار** كلاهما خاضع لمراقبة معمّمة، وكلاهما خاضع لإجراءات محسوبة ولترتيبات المكان، فلا شيء في فضاء المدينة متروك للصّدفة أو العبث، لأن السّلطة الرقابيّة تحتل كل الأمكنة، وتضع كل أفراد المجتمع موضع حراسة.

ونفس الأمر بالنّسبة للمسافر في القطار ينبغي أن يخضع لترتيبات السّفر، وإجراءات مكان الجلوس، ورقم العربة، وفحص التّذاكر. يقول دوسارتو: « المسافر الثّابت موضوع في خانة، مرقّم ومراقب في ضامّة العربة، إنّه إنجاز كامل لليوتوبيا العقلانية. تنتقل فيها الحراسة والغذاء من خانة إلى خانة:"مراقبة التّذاكر من فظلكم؟" شطائر؟ صودا؟ قهوة؟ » [1].

ويوظف أيضا استعارة **"المرحاض"** باعتباره المكان الوحيد الذي يهرب إليه راكب القطار حتّى لا تطاله رقابة السّلطة الكاسحة، **"فدورة المياه"** هي بمثابة فسحة حرية، "فالمرحاض" كما يقول "دوسارتو": « **مفتوح على مفرّ داخل نظام مغلق. إنه "فانتازم" العاشقين، وخلاص المرضى ومهرب للأطفال** » [2].

[*] استعار "دوسارتو" مشهد "القطار" من الحياة اليومية، لكن أضاف إليه لمسة فلسفية وأدبية ليصوّر لنا بشكل عميق حالة خضوعنا لسلطة التّمدن حتّى في التّفاصيل البسيطة لأنشطة حياتنا.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 209.

[2] المصدر نفسه، ص 209.

إن" دورة المياه" استعارة للمكان الذي نتحرر فيه من المراقبة، ولا نتقيّد فيه بأي قوانين، فهو مكان تتحرّر فيه النّزوات من كل قيد، ويمارس فيه الإنسان جنونه(*).

إن ما يشير إليه "دوسارتو" "**بالمجتمع– القطار**" أو "**المدينة– العربة**" هو المكان الذي تسود فيه السّلطة كأسلوب من أساليب فرض النّظام في المكان وفرض معايير السّلوك، إذ يقول:« ما عدا هذه الهفوة التي تستسلم لكل أنواع الافراط،– **ويقصد دورة المياه–** كل شيء يخضع للتّربيع (quadrillage) ، لا تسافر سوى خلية معقلنة، خاتم السّلطة البانوبسية و المصنِّفة، مقياس في الحبس الذي يجعل النّظام أمرا ممكنا، أرخبيل مغلق ومستقل: إنها وظائف تخترق المكان وتستقل عن التّأصيل المحلي » [1] .

ونجد فيلسوفنا يشبّه "سلطة المدينة" أيضا بنسق "النّص"، فهي تموضع الأفراد داخل الفضاء الحضري (بيوت، عمارات، سكنات...) **كما تتوزّع الحروف والكلمات داخل النّصوص**، (أو كما يتوزّع المسافرون داخل القطار)، والمشترك بينهما هو " **النّسق المطلق والمغلق**" يقول "دوسارتو": « كل شيء موضوع في مكان كما هو الحال في فلسفة الحق عند "هيغل". **كل كائن مرقّن كحرف**

*بمعنى أن **"دورة المياه"** مكان يمارس فيه الحبّ في الخفاء هروبا من الرقابة، ويتألّم فيه المريض، ويبكى فيه العاشق ويعبث فيه الطفل، **هو مكان لا نتقيّد فيه بأي نظام أو بأية قوانين.**

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 209.

مطبعي على صفحة مرتّبة بشكل عسكري. هذا النّظام كنسق منظّم وكهدوء العقل هو شرط حركة العربة والنّص معا » [1].

يصف "دوسارتو" أيضا "التّمدن" "بمجتمع المشهد" (société de spectacle) وهو مصطلح استعاره من كتابات "جي ديبور" [2] (Guy Debord1928-1994) ليشير به إلى "سلطة المرئي" أو "سيميوقراطيا (sémiocratie)، وتعني: هيمنة وسائل الإعلام التي تدفع الأفراد إلى استهلاك المنتوجات الدعائية، إذ توظّف أساليب الإغراء وتلعب على رغبات الجماهير واحتياجاتهم مستعملة في ذلك وسائط إعلامية: كالتلفاز والهاتف واللوحات الإشهارية، وهنا تكون السّلطة من **طبيعة رمزية** لأنها تستعين بالرّمز أو العلامة.

2.3 السلطة والخطاب (استراتيجية النص):

لقد ارتبطت "سلطة النّص" (أو الخطاب) – في نظر "دوسارتو"– بفعل "الكتابة" (l'écriture) والتي يعرفها بأنها :« النّشاط الملموس في صناعة النّص على فضاء خاص وهو الصّفحة، **وهو نصّ له سلطة على الأمر الخارجي**[*] الذي عُزل عنه » [3].

---

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 209.

[2] غي ديبور، **مجتمع المشهد**، ترجمة: أحمد حسان، دار شرقيات للنشر والتوزيع،ط1 2000.

[*] بمعنى أن **"النص"** على الرغم من بنيته المغلقة باعتباره خطابا يستبطن المعاني والأفكار إلا أنّه يؤثر في الواقع بشكل واسع، **فمضامينه تستثير المشاعر وتحرّك السلوكيات وتحرّض نوازع العداء وتغذّي الصّدامات**، ولعل هذا ما نشهده في النّقاشات العامة بين التّيارات الدّينية والسّياسية والإعلامية.

[3] المصدر نفسه، ص 245.

إنّ الصفحة الورقية بالنّسبة للكاتب هي "**المكان المادّي** (الخاص) الذي يحتوي الموضوع، وهو أشبه بالمكان المادّي الخاص بالثّكنة أو المدرسة أو المختبر، وبالتّالي كل سلطة سواء كانت نصّية أو مؤسّساتية لها مكانها الخاص الذي تمارس فيه فعل الاخضاع والاحتواء.

وتمارس سلطة الخطاب (أو النّص) على مستويين: **المستوى الفردي (الشّخصي)، والمستوى المؤسّساتي ؛** يتّضح المستوى الفردي من خلال **سلطة الكاتب الفكرية،** فهو ينتج النّص ويخلق الحقائق وفق رؤيته الخاصة أو وفق ما يخدم انتماءه الأيديولوجي، لذا لا يمكن أن يكون الكاتب محايدا فهو ينخرط –شاء أم أبى، بوعي أو بدون وعي– في صراع الأفكار والتّجاذبات ولعبة الانتماءات.

أمّا المستوى المؤسّساتي، فنقصد به الهيئات الإعلامية أو المدارس والجامعات التي يكون مضمون خطابها في الغالب خادما وتابعا لأيديولوجية الدّولة وتوجهاتها السّياسية.

ولتأكيد "سلطة النص" يستشهد دوسارتو بحدث بارز اكتسح الثّقافة الغربية المعاصرة ألا وهو "**طغيان المكتوب على الشّفهي**"، حتى صارت الكتابة نشاطا تختّص به الثّقافة الغربية بامتياز، أي أنّ المعارف الحديثة قامت على "**التّدوين" وكثرة إنتاج النّصوص أمام تراجع الشّفهي،** وهو حدث يمثّل في نظر دوسارتو **لحظة القطيعة التي أقامتها الثّقافة الغربية مع مصادرها الرّوحية**[*](بحكم أنّ الصّلوات الدّينية تتلى ولا تُكتب).

[*] يعبر "دوسارتو" بمصطلح "المنسي" (l'oublie) أو "الأصل" (principe) عن المصادر الروحية للثقافة المسحية الأصيلة التي دفنت تحت أنقاض الثقافة الغربية المادية، حيث قال: « **آلهتنا لا تتكلم لقد مات الإله»**

لقد وُظفت "الكتابة" بشكل سلطوي من أجل **"سرد هوية جديدة للإنسان الأوروبي"**، يقول "دوسارتو" :« يرتبط الاكتساح الرّأسمالي الكتابي بهذا الفقدان، وبالجهد الجبّار للمجتمعات الحديثة لتعيد تعريف ذاتها بدون هذا الصّوت »[1].

لقد تحولت "الكتابة" في رأي "دوسارتو" إلى صناعة "تُنتج" (production) وزادت عن ذلك لتبلغ حدّ **"المنتَج المُضخَّم"**(capitalisation)، « فهي ليست الأمر الذي يتكلّم[*]، وإنّما الأمر الذي يُصنع »[2] ، وهو مؤشر على اكتساح الثّقافة البرجوازية وهيمنة النّظام الرأسمالي على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية.

من خلال **إنتاج المكتوب والتّحكم في اللّغة وتوجيه مضامينها، استطاعت المجتمعات الغربية في القرن** 17 **أن تبلور تصوّرا جديدا للإنسان والعالم**، إنسان مفصول عن قيمه الروحية ولا يحتكم إلاّ للمرجعيات السّياسية والاقتصادية، وقد تّم ذلك من خلال الانتقال من التّعامل مع اللّغة **"كأداة لفهم العالم" (قراءة النصوص وفهم العالم من خلالها)**، إلى التّعامل مع اللّغة **بوصفها "منتوجا أو صناعة" لا تختلف عن الصّنائع المادّية**، يتم التّحكم في مضامينها ونسج أفكارها وتوجيهها

وهنا نجده يستعير مقولة "نيتشه" في "موت الإله" ليعبر عن انهيار المعتقدات المسيحية الذي لم يعد لها أثر ولا قيمة في ظل اكتساح العقلانية لكل مناحي الحياة.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 249.

[*] بمعنى أن "الكتابة" تحمل مضامين الوحي، لأن الكتاب المقدس هو كلام الرّب الذي يجتهد البشر في تأويله وفك رموزه والعمل به، لكن "الثقافة البرجوازية" حولت الكتابة إلى منتوج استهلاكي (جرائد، مجلات، كتب...) تسويقي لا يحمل أي أبعاد روحية متعالية.

[2] المصدر نفسه، ص 249.

"للاستهلاك" كما تستهلك السّلع. يقول "دوسارتو":« التّحكم في اللّغة يضمن سلطة جديدة تكمن في البرجوازي الذي يصنع التّاريخ بفبركة اللغة [...] إنّها (أي السلطة) تحدّد قانون التّرقية الاجتماعية والاقتصادية، وتسيطر أو تراقب أو تختار حسب معاييرها كلّ ما لا يملك هذا التّحكم في اللّغة »[1].

إنّ اللغة بهذا المعنى هي وسيلة سيطرة يستعملها "النظام البرجوازي" من أجل صياغة "**وعي الطّبقات**" (إذا جاز لنا أن نستعير مقولة ماركس)، أو إعادة هيكلة التّراتبية الاجتماعية.

3.3 السلطة، القانون والجسد (استراتيجية الانضباط):

لم تكتفي هيمنة "ثقافة الكتابة" في العصر الحديث بفرض نموذج خطاب علمي، وإنّما حوّلت الجسد إلى مادّة يُدّون عليها القانون، إذ أنّ السّلطة في تصوّر "دوسارتو" هي بالأساس " **تدوين القانون على الجسد**" وهو يقول: « لا يوجد قانون دون أن يدوّن على الأجساد، **للقانون سلطات على الجسد،** عزل الفرد عن الجماعة هي فكرة تم إنشاؤها مع ضرورة معاقبة الجسد في العدالة الجنائية، وضرورة عرض الجسد للصّفقات بين الجماعات في قانون الزواج » [2].

تمارس السّلطة على الجسد من خلال وسيط هو "**القانون**"، وفكرة العقاب تتحقّق من خلال إخضاع هذا الجسد للمراسيم والنّصوص و القرارات التي تتحكّم فيه.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 251.
[2] المصدر نفسه، ص 252.

ويتصور "دوسارتو" أن حياتنا بأكملها خاضعة للنّصوص القانونية، من تسجيل الميلاد إلى الدّراسة إلى الخدمة العسكريّة ووثائق العمل، فالبيروقراطية وقوانين العقاب والأعراف المدوّنة وغير المدوّنة، الخفية أو المعلنة تحيط بالفرد من كل جانب وتحوّل جسده إلى أشبه بالحجر الذي تُنقش عليه العلامات، أو الورق الذي تُطبع عليه العبارات، وعليه فالجسد هو **"خلية السّلطة"** وهو المادة التي تتحقق فيها ممارساتها من خلال القانون « فمن الميلاد إلى الوفاة يتحكّم القانون في الأجساد ليجعل منها نصوصا، فهو يحوّلها بأي نوع كان من الانخراط – شعائري، مدرسي..ألخ- إلى ألواح قانونية أو إلى لوحات حيّة من القواعد والأعراف أو إلى فاعلين في مسرح ينظّمه النّظام الاجتماعي » [1].

إن السّيطرة على الجسد لا تتمّ فقط عن طريق إخضاعه للنّص (تنصيصه)[*] (intextuation) وإنّما تتمّ السيطرة عليه أيضا عن طريق "أجهزة تنفيذية" (appareils exécutifs) هي بمثابة وسيط بينه (أي الجسد) وبين القانون.

إنّ سلطة النّص وحدها غير كافية، إذ لا بد لها من "تنفيذ"، وهو ما نشهده عند القاضي وهو يعلن الحكم أمام الجميع (حكم لا نقاش فيه، لا رجعة فيه، يسمعه الحاضرون بحسرة وتنهد)، ولا يكتمل الحكم إلا **"باستعراض"**[**] عقابي تؤدّيه "أجهزة" لها حضورها **"الرمزي والمرئي"** (سلاسل فضّية، فولاذ السّجون، هراوة الشّرطي) حتّى تضفي على الحكم ما يلزم من مهابة وسلطة. « لكي

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 252.

[*] بمعنى أن الجسد يتبع ما تمليه عليه مضامين النصوص القانونية: كالقوانين الجنائية وقانون الأسرة وغيرهما.

[**] يعبّر فوكو عن فكرة **"الاستعراض"** في كتاباته بمصطلح **"الطقسية":** وهي الإجراءات المهيبة، والمراسيم التي بمقتضاها يتم معاقبة الجسد في المحاكم أو مجالس التأديب أو في ساحات الإعدام.

يُسجّل القانون على الأجساد، ينبغي أن يتوسط "الجهاز" العلاقة بين القوانين، منذ أدوات الخدش والوشم والتّلقين البدائي وحتى أجهزة العدالة، تقوم الآلات بالاشتغال على الجسد. بالأمس كان السّكين الصّوان أو الإبرة، والجهاز اليوم يتأرجح بين هراوة رجل الأمن وبين القيود أو **مربع المتّهمين** تشكّل تلك الأدوات سلسلة من الأشياء المخصّصة لنقش قوّة القانون على الذّات الحاملة له، ووشمها لجعلها برهانا في الحكم، وإنتاج نسخة تجعل القانون المعياري مقروءا » [1].

تخدم الأجهزة التنفيذية "سلطة النّص"، لكنها تختلف عنه في قدرتها على التّغلغل والامتداد في النّسيج الاجتماعي، فهي تسكن مخيال الأفراد وتذكّرهم دائما – من خلال حضورها المرئي المكثّف- بأنّهم عرضة للعقاب في أيّ لحظة (شرطة، مخبرين، بنايات مراقبة، لافتات تحذيرية...).

إنّ الأجهزة التّنفيذية « تحيط بالقانون (لتقوم بتسليحه)، وتستهدف البدن (لتقوم بتعليمه بعلامات قانونية). إنّها **حدود هجوميّة تنظّم الفضاء الاجتماعي** » [2] .

لا تتحقّق سلطة الكتابة بدون تدوين القانون على الجسد، فهي تستعين بشبكة من الأدوات التّنفيذية والاستراتيجيات المدروسة الموجّهة لترويض ذلك الجسد لجعله منتجا ومنقادا، كما يمكن إصلاحه وتوجيهه بوصفه آلة. تقوم السّلطة الكتابيّة والقانونيّة "بمكننة" الجسد mécanisation du corps أي تحويله إلى آلة تخدم النّظام .

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 254.
[2] المصدر نفسه، ص 254.

4.السلطة الانضباطية وتجربة الموت:

يتصوّر "دوسارتو" أنّ "الجسد" ليس معطى طبيعي، و لا يسير وفق ذاتيّة الفرد وما تمليه عليه إرادته وعواطفه، بل هو بالأساس **"منتوج اجتماعي"** خاضع "للأطر الاجتماعية" التي توجّهه وتصوّبه وتصحّحه باستمرار، وعليه فهنالك **"إجراءات انضباطية"** تسير بالجسد نحو مرام وغايات محسوبة فلا مجال للقول بأن الأجساد تتحرّك بعفوية وتلقائية في الحقل الاجتماعي، لأن كل سلوك محكوم بأعراف وبعادات وتقاليد ومؤسسات.

يشبه "دوسارتو" **"الممارسة الطّبية"** باستراتيجية السلطة (الانضباطية) اتجاه الجسد، فإذا كان تدخّل الطّبيب في العمليات الجراحية يكون إمّا بغرض "الحذف" (استئصال ورم أو عضو فاسد) أو "الإضافة" (غرس عضو)، فإنّ السّلطة تخضع الجسد لعمليات مشابهة للتّدخل الجراحي للطّبيب لكن في السّياق الاجتماعي، فهي تصحّح اختلالات الجسد، إمّا **"بالاستئصال" (البتر الاجتماعي)**: كالسّجن أو النّفي أو الإعدام أو فرض إقامة جبرية، أو **بالتّعديل والإضافة**: وهنا نذكر تكوين الأجساد داخل المؤسّسات، وإخضاعها لنُظم متكاملة من القيم والمعايير الملزمة (كالتّعليم الأسري أو المدرسي أو الدّيني...).

لا يقف الأمر عند **"الاستئصال"** أو **"التّعديل"**، بل يمتدّ تأثير السّلطة ليخترق التّفاصيل الدّقيقة للجسد، **ومنها شكل اللّباس والزّينة والرّقص**، وعليه فهي تتولى تشكيل الأجساد وفق معايير اجتماعية وقيم جمالية والسلوكية. يقود "دوسارتو": « تقوم هذه العمليات –ويقصد استراتيجيات

السلطة- **بتصحيح الإفراط أو النّقصان**(*) من الدّاخل أو الخارج، ولكن بالمقارنة مع ماذا؟ بما أنّ الأمر يتعلّق بإزالة شعر السّاق، أو تدهين الرّموش، أو قصّ الشّعر أو وخزه، **فإنّ هذا النّشاط في الاستخراج أو الضّم يحيل إلى عرف أو قانون، فهو يجعل الأجساد في مبدأ معياري** »[1]، ما يؤكد بأن الجسد منتوج اجتماعي هو أنّ السّلط الخارجية تعمل على فبركة كل جزئية من جزئياته، ويذكر "دوسارتو" بعض الأمثلة **في المودة والحركات والغذاء.**

إن "**المودة**" (la mode) هي أن يختار الفرد ما يلبس وكيف يتجمّل وفق ما يتلاءم مع معايير مجتمعه على المستوى الثقافي والأخلاقي، كذلك **الحركات**: فاستعمال السّيارة بشكل دائم ومتكرّر أو استعمال درّاجة هوائية أو المواظبة على نشاط حركي معين يعيد قولبة الجسد بشكل آلي، فالجسد يتشكّل وفق ما يقوم به من أداء، وحتّى **الغذاء** يؤثّر بشكل مباشر في نشاط أجسادنا حتى وصفه "دوسارتو" بأنّه **بطاقة هوية**، إذ يقول :« يمكن اعتبار **الألبسة** كآلات يضمن بفضلها القانون الاجتماعي الأجساد وأعضاءها، تقوم بتنظيمها وممارستها بتغيير الموضات كما هو الحال في المناورات العسكريّة، تقوم السيارة على غرار المشدّ بقولبة الأجساد وإخضاعها لنموذج وضعي(خاص باستقامة

---

* وهو نفس **"الفعل الاستراتيجي"** الذي يقوم به الطبيب في العمليات الجراحية، إما يستأصل الزائد الذي هو أساسا سبب اعتلال الجسد، أو يضيف المنقوص مثلما نشهده في زرع الأعضاء أو تقوية المريض بدعامات خارجية.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 262-263.

الأداء)، وتقوم أيضا الأغذية التي تختارها التّقاليد وتعرضها للبيع في أسواق المجتمع بصياغة الأجساد بتغذيتها، إذ تفرض عليها شكلا وحيوية لها قيمة بطاقة هوية » [1].

لقد حوّل النظام البرجوازي الجسد إلى **مادة مُنتَجة وأداة إنتاج:** يكون **"مادة مُنتَجة"** عندما يخضع لوسائل الانضباط فيتم قولبته-كما بيّنا- **في حركاته وغذائه ولباسه،** ويكون **"أداة إنتاج"** عندما يتّم توظيفه إما كآلة حركية تشتغل بها المصانع (ouvriers)، وإمّا بوصفه سلعة معروضة على الاستهلاك مثلما نشهده اليوم من إشهاريات الإغراء في التّلفاز، والعروض الجنسيّة عبر الأنترنت.

يسلّط "دوسارتو" الضّوء على مشكلة **"الاحتضار" وهي لحظات الموت،** فهي من الموضوعات المسكوت عنها في المجتمع الغربي المعاصر، **لأنّه مجتمع لا يهتمّ إلا بالأحياء الذين يُستفاد من طاقتهم وأنشطتهم،** وهذا دليل على المادّية المتوحّشة التي حكمت المجتمع الغربي بعدما أضحى النّظام البرجوازي هو من ينحت المعتقدات والتّصورات. « فالمحتضرون هم المنبوذون لأنّهم منحرفون عن المؤسّسة المنظّمة من أجل الحفاظ على الحياة. يقوم "الحداد المسبق" كظاهرة في النّبذ المؤسّساتي بوضعهم في غرفة الميّت ويغلّفهم بالصّمت، أو الأدهى بالبهتان ليحمي الأحياء من دوي الصّوت الذي يخترق الجدار ليصرخ "سأموت" » [2].

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 263.
[2] المصدر نفسه، ص 372.

يتعارض وجود "المحتضر" مع مبرّر وجود المستشفى وهو الحفاظ على الحياة وإعادة تنشيط الأجساد، وفي هذه الحالة يتم **"إصمات"**(*) كل ما يتعلّق بالجسد الميت لأنه استنفذ وظيفته النّفعية ولا طائل من وجوده. ونفس الأمر ينطبق على البطّالين « فانعدام العمل يدل عند هؤلاء على اللا-معنى » [1] و انعدام القيمة الاجتماعية والأخلاقية لوجودهم.

إن مهمّة **"السّلطة الطبية"** (المستشفى) في تصور دوسارتو هو تخليص النّظام البرجوازي من الفئات المريضة غير المنتجة، **وهو أشبه بعمل منظّف الشّوارع الذي يخلّص المدينة من القمامة ومن كل ما يشوّه منظرها** (**)، ونفس الأمر ينطبق على السّجن الذي يخلّص المجتمع من خطر الجانحين والمجرمين، وقس على ذلك في المصحة العقليّة التي تخلّص الناس من خطر المجانين ومن ثقل التّكفل بهم . إن السّجن والمستشفى والمصحّة العقلية هي مثل مكبّ النّفايات بالنّسبة لعامل نظافة، فهي فضاءات يتمّ فيها التّخلص فيها من العاطلين حتى لا تتعطل ماكنة الانتاج البرجوازي، إذ يقول

---

* إحاطة **"الاحتضار"** بالصمت نجده عند فوكو في فكرة **"إسكات صوت الجنون"**، وهي من الاستراتيجيات السلطوية التي ترمي إلى تحييد كل ما يتنافى مع قيم العقلانية الغربية، فكل ما يعجز العقل عن استصاغته أو احتوائه كالجنون أو الموت يتم رميه في الهوامش المظلمة وإحاطته بالصمت، حتى أن دوسارتو وصف **"الاحتضار"** بأنه: **"ما يتعذر تسميته"** (**innommable**) « إذ لا شيء يمكن أن يُقال في المجال الذي لا يُفعل فيه شيء » . ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص328.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر نفسه، ص 328.

** يذكر "فوكو" في كتابه: "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" كيف كانت تعطى الأوامر الملكية للشرطة للقبض على المتسولين والعاطلين والجذاميين ورميهم في سجن، لأنهم يخلون بالنظام، ويجلبون الرذيلة والإجرام ويشوهون المنظر العام.

"دوسارتو" : « يوضع المريض بعيدا في إحدى المناطق التّقنية والسرّية (المستشفى، السجون، المزابل) التي تريح الأحياء من كل ما يعيق سلسلة الإنتاج والاستهلاك» [1].

مُحصّلة المبحث:

إجمالا لما سبق نقول أنّ "السّلطة" كما يتصوّرها "دوسارتو" **هي توصيف لحالة الصّراع الشّامل الذي يعمّ النسيج الاجتماعي،** لكنه صراع لا تحرّكه الفوضى بقدر ما تحرّكه استراتيجيات وتكتيكات، وبالتالي فالمجتمع هو أشبه بساحة حرب تتدافع فيه القوى، وتنقلب فيه الأدوار بين الغالب والمغلوب و المسيطر والخاضع، إذ يتسلّح الضعيف بالتّكتيكات والمناورات ليحفظ بقاءه ويحتمي المسيطر بالاستراتيجيات ليفرض هيمنته ويضمن بقاءه.

يصنّف دوسارتو "السّلطة" على حسب طبيعتها، فهي ليست فكرة نتأمّلها ولا هي صورة نمطيّة لأساليب الحكم التّقليدية، وإنّما هي ممارسة تاريخية تنوّعت تطبيقاتها واختلفت كيفياتها من مجتمع لآخر ومن عصر لآخر، لكن لها سمات عامّة يمكن أن نلخّصها فيما يلي: **الصّفة البانوبتيكية، الصّفة الرّقابية، الصّفة الاخضاعية، والصّفة الإنتاجية.**

كما يصنفها على حسب ميكانيزماتها وآلية اشتغالها، إذ يميّز بين **السلطة التّمدنية (المكان الحضري أو المدينة)، والسّلطة النّصية (الخطابية) والسّلطة الانضباطية (تدوين القانون على الجسد).**

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 328-329.

المبحث الثّالث للفصل الثاني:

علاقة السّلطة بالمعرفة عند ميشال دوسارتو.

تمهيد:

1. أيّ علاقة تربط السّلطة بالمعرفة؟

1.1 السّلطة والفضاء المكاني (التّنظيمات).

2.1 السّلطة والاشتغال العلمي (الممارسات العلمية).

3.1 السّلطة والإنتاج المعرفي للنّص (الخطابات).

2. قراءة دوسارتو لشخصية الخبير.

1.2 السّلطة الاجتماعية للخبير:

2.2 السّلطة الانضباطية للخبير:

مُحصّلة المبحث.

تمهيد:

بيّنا فيما سبق أنّ المعرفة في نظر "دوسارتو" هي **نمط من أنماط الإنتاج الذي يكون إمّا على مستوى الخطاب (النّظريات)، أو على مستوى الإجراءات (الممارسات)**، وهي على نوعان: **"معرفة استراتيجة"** من مميزاتها أنّها عامّة وشاملة (مؤسسات/براديغم معرفي تاريخي)، و**"معرفة تكتيكية"** نجدها في الثّقافة الشّعبية وأشكال التّعبير الأدبي، وهي خاصّة بأفعال الأفراد لأنها محصّلة مهاراتهم وتعبر عن غاياتهم الشّخصية. وبيّنا أيضا أنّ السّلطة هي **التّخطيط الاستراتيجي الذي يضفي إلى تحقيق غاية السّيطرة والإخضاع بأساليب متنوّعة ومدروسة .**

والسّؤال الذي نطرحه في هذا المبحث هو: ما العلاقة التي تربط المعرفة بشقّيها (النّظري والعملي) بالاستراتيجيات السّلطوية؟ هل يستوجب **التّخطيط الاستراتيجي** بالضّرورة وجود معرفة تحقّق له غايات الإخضاع؟ وهل تحتاج المعرفة إلى التّنفيذ الاستراتيجي الذي يمدّها بالقبول والمشروعيّة؟.

ما مدى ارتباط المعرفة بالسّلطة في تصوّر دوسارتو؟ وما طبيعة العلاقة القائمة بينهما؟ **كيف تتموضع السّلطة داخل المعرفة ؟ وكيف تصير المعرفة وسيلة لممارسة السّلطة لحدّ لا يمكن الفصل بينهما؟.**

2. أي علاقة تربط السلطة بالمعرفة؟

لم يطرح "دوسارتو" فكرته حول علاقة المعرفة بالسّلطة كفرضيّة أوّلية تستوجب الإثبات، بل صِيغت كنتيجة لتحليلات ودراسات مطوّلة للمؤسّسات والنّظم الاجتماعية.

لقد خلُصَ إلى نتيجة مفادها أنّ **السّلطة هي الحاضنة الاجتماعية للمعرفة** وهي **القوّة الدّافعة والمحرّكة لها**، بدليل أنّ أطراف الصّراع التي تتجاذب حول موضوع ما (سواء داخل المؤسّسة أو خارجها) هي من تحدّد الصّيغة النّهائية لشكل الخطاب أو النّموذج النّهائي للحقيقة.

والمعرفة بدورها **هي المنتوج النّهائي للإجراءات السّلطوية**، إنّها بمثابة المادّة الأولية (خطاب، نص، موضوع، فكرة...) الّتي تعطي للسّلطة وظيفتها وأسباب وجودها وتمدّها بالمشروعيّة وتضمن لها استمرارية أدوات الهيمنة، فلولا وجود ما "يستوجب الصّراع من أجله " كالأيديولوجيات والأفكار والمشاريع السّياسية والاجتماعية لما كان للسّلطة وجود. يقول "دوسارتو": « السّلطة سابقة على المعرفة وليست فقط نتاجها أو خاصّيتها. فهي شرط إمكانها وتوجه ميزاتها وتَنتُج في ثناياها » [1].

يفترض "دوسارتو" أن "السّلطة" كان لها دور مباشر في تشكيل "الأنساق المعرفيّة" عبر التّاريخ في العصر الحديث، وهي ما كانت في الغالب تحدّد اختيارات العلماء وتوجّه خطاباتهم. لقد لعبت دور "**الوضع الاستراتيجي العام**" الذي يتحكّم في نوع خطاب الحقيقة الذي يصدر عن المؤسسات.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 94.

بهذا المعنى تشتبك المعرفة مع السّلطة من خلال سباق التّموقع والنّقاش الاجتماعي، وسجال امتلاك الخطاب، والرّغبة في الاقصاء.

يكشف لنا تحليل "دوسارتو" لمفهوم "الاستراتيجيا" علاقة المعرفة بالسّلطة بحيث يصير إحداهما مشروط بالآخر. إذ يمكن حصر العلاقة بينها في ثلاث مستويات سنعمل على تحليلها بالتّفصيل وهي: **على مستوى الفضاء المكاني (التّنظيمات)، على مستوى الاشتغال المعرفي (الممارسات)، وعلى مستوى الإنتاج النّصي (الخطابات).**

1.1 ارتباط المعرفة بالسلطة على مستوى الفضاء المكاني (التنظيمات):

إن "الاستراتيجية" (بوصفها سلطة) هي الوسط الذي تتشكّل فيه المعرفة، وهي التي تتيح لها أن تتحقّق بشكل عملي، "فالاستراتيجيا" تهيء للمعرفة أولا **"الفضاء المكاني"** كالمؤسسات، وثانيا: تمدّها بالوسائل العملية التي تمكّنها من حصر الموضوع وتحليله وعزله وتشكيل خطاب حوله.

تتشكّل "الاستراتيجيات" في صورة "مؤسسة" أو "معهد" أو "جامعة" أو "مختبر" إذ تحتوى كل مؤسسة على هيكل مادي (بانوبتيك) **وعلى إجراءات وترتيبات انضباطية.**

لو أخذنا مثلا "المدرسة" (machine à apprendre) لوجدنا أن الفعل المعرفي فيها غير مفصول عن استراتيجيّة السّلطة في **"تهيئة المكان للتّحكم في المتعلّمين"**، إذ يتمّ توزيع "المتمدرسين" في أماكن الجلوس وفق ترتيب وقتي محسوب (emploi du temps)، ووفق ما يسهّل وضعهم تحت الرّقابة الدّائمة، وليس التّرتيب المكاني إلاّ تمهيدا لتلقين المتمدرسين رزنامة دروس ومضامين وبرامج تنتهي

بإجراء امتحان (examen)، يختبر من خلاله كفاءة المتمدرس، فالانضباط إجراء سلطوي ضروريّ حتّى تتحقّق المعرفة[*]. يقول دوسارتو: « من السّديد التّسليم بوجود نمط خاص من المعرفة في هذه الاستراتيجيات، وهي المعرفة التي تدعمها وتحدّدها القدرة على تشكيل مكان خاص » [1].

ونفس الأمر ينطبق على "المؤسسة التّاريخية" بحيث يرتبط الإنتاج المعرفي فيها أشدّ الارتباط بالصّراع السلطوي، على اعتبار أنّ مضامين التّاريخ هي محل تجاذب ونزاع سواء داخل المؤسّسة (بين العلماء والمتخصصين) أو داخل النّسيج الاجتماعي. لكن ما يميّز المؤسّسات على اختلافها هو التّماهي بين استراتيجيات الانضباط (أي السلطة) مع إجراءات التّعليم والتّلقين (المعرفة)، ولا فائدة للسّلطوي إلاّ إذا كان النّشاط المعرفي حاضرًا فيه، وبالتّالي فإنّ **"تنظيم المكان" هو شرط لتقييد المعرفة وإنتاجها**، لأنّ مهمة السّلطة داخل الفضاء المؤسساتي (المعرفي) –كما يقول دوسارتو– هي:«**إرجاع العلاقات الزّمانية إلى العلاقات المكانية**، بإسناد مساحة لكل عنصر – تلميذ أو سجين– وبتنظيم إدماجي لحركات تخصّ الوحدات أو مجموعات الوحدات » [2].

---

* المؤسّسة الانضباطيّة (institution disciplinaire):مصطلح يشير به فوكو إلى الفضاء المكاني الذي تجتمع فيه تقنيات السّلطة الانضباطيّة مع نشاط المعرفة، فالسّجن مثلا (أو المدرسة) مكان مشيّد يفرض فيه الانضباط بوصفه فضاءً للرّقابة والعقاب، وهو في الآن نفسه مختبرا تمارس فيه تقنيات معرفية لفهم السّلوك الإجرامي واحتوائه، فعزل المجرم واستجوابه وتسجيل كل ما يقول وتدوين تاريخ إجرامه هو نوع من الممارسة المعرفيّة التي وجدت شروط تحققها في امتزاجها مع تقنيات الانضباط. راجع: ميشال فوكو، المراقبة و العقاب، المصدر السابق، ص 162.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 94.

[2] المصدر نفسه، ص 97.

لقد أقامت الأنظمة السّياسيّة مراكز بحث ومعاهد تنتج فيها خطابات معرفيّة داعمة لأيديولوجيتها، ومن تلك المراكز والمخابر تتجدّد السّلطة السّياسية وتستمدّ وسائل سيطرتها، ومن منابر المعاهد والجامعات تنشر خطاباتها بحيث تمتزج السلطة امتزاجا تامّا مع المعرفة، « لقد تمّ تدشين الاستراتيجيات السّياسية أو العلمية بفضل تأسيس حقول "خاصة"– مدن مستقلة، مؤسسات محايدة أو مستقلة، مختبرات بحث موضوعية.. » [1].

2.1 ارتباط المعرفة بالسلطة على المستوى الاشتغال المعرفي (الممارسات):

من علامات نفوذ السّلطة في المعرفة بعد **"تشييد المكان"** نذكر استراتيجية **"عزل الغيريات"**، إمّا على شكل موضوعات يتمّ التّجريب عليها وصياغة حقائق حولها (كالتاريخ والإثنولوجيا)، وإمّا على شكل تلقين الدّروس للغير في السّجون والمدارس والجامعات ودور الرّعاية، يقول "ميشال دوسارتو": « كل عقلنة استراتيجية تعمل قبل كل شيء على عزل "الخاص" عن "بيئة" معينة، أي مكان السّلطة والإرادة الخاصة: إنّه سلوك "ديكارتي" إن جاز لنا وصفه: تقييد أو حصر الخاص في عالم فتنته قوى الآخر الخفيّة. **إنه أسلوب الحداثة العلمية والسياسية والعسكرية** » [2].

هكذا يصف "دوسارتو" في عباراته بشكل دقيق الكيفيّة التي تتداخل فيها المعرفة بالسلطة فالسّلطة هي بالنّسبة للمعرفة مجموع إجراءات ذات طبيعة استراتيجية، وهي تمثّل تلك الخطوات المحسوبة التي بدونها لا يمكن للمعرفة أن تتحقّق، وقد نسب "دوسارتو" النّزوع السّلطوي للمعرفة إلى

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 94.
[2] المصدر نفسه، ص93.

أسلوب تفكير ديكارت، لأن "المنهج الديكارتي"(*) يعزل موضوعاته ويعمل على تحليلها ثم تركيبها وهذا الاجراء العقلاني يعبّر في رأي "دوسارتو" عن نزوع للسّيطرة، وقد كان أحد سمات عصر الحداثة وامتدّ ذلك النزوع لمجالات أخرى عسكرية وسياسيّة وعلمية.

لقد اتّخذت المعرفة وضعا استراتيجيا، عندما تعينت في جسد سلطوي داخل المؤسسات، وعندما أقامت فصلا في معايير في معايير الحقيقة، فكل ما لا ينتمي إلى دائرة العلم ولا يخضع لمقاييسه لا يمكن تصنيفه في مجال المعرفة الصّحيحة بما في ذلك الدّين والثّقافة الشّعبية، ولعل هذا الفصل هو ما دفع كاتبنا إلى اعتبار أنّ السّلطة بنية أساسية في تكوين الأنساق المعرفية الحديثة، وأن المعرفة تنتج في نسيج السلطة .

لم يعد التّاريخ في تصور دوسارتو مرويات يتداولها الأجيال بالحكايات، ولم يعد مصطلحا يشير إلى الذّاكرة الشّعبية والموروث الرّمزي للأمّة، بل تحوّل إلى صناعة ينتجها "مجتمع مصغّر" تمثّله المؤسّسات الخاصّة (مخابر، معاهد، مراكز بحث...)، هنا يكتسي التّاريخ طابعا **"أدائيا"**، فهو عملية

---

* يتفق فوكو ودوسارتو على اعتبار أن "الفلسفة الديكارتية" هي لحظة ميلاد **سلطة المعرفة**، إذ أن السيطرة على العالم (بما فيه الإنسان) لا تمر إلا من خلال الإلمام به ودراسته، ويذكر "إيدوارد سعيد" في كتابه الشّهير "الاستشراق" أن السلطة غير مفصولة عن المعرفة، إذ يبيّن في أطروحاته أنّ الحركات الاستعمارية جاءت موازية لدراسة ثقافة البلدان الشّرقية والإلمام بطبيعة شعوبها تمهيدا للسّيطرة عليها، بحجة أنّها شعوب وجب عليها أن تطلب الوصاية من دول الغرب لأنّها ليست قادرة على تشكيل ما سمّاه "بلفور" **"حكما ذاتيّا"**، راجع : إيدوارد سعيد، الاستشراق (المفاهيم الغربية للشرق)، ترجمة: محمد عناني، دار بنجوين العالمية للنشر والطباعة، ط1، القاهرة، 2006، ص 88.

إنتاجية تبدأ بطرح المادة الأولية (الوثائق والمعطيات) وتمرّ بتحليلها وتنتهي في الأخير بصياغة النّص النّهائي، إنها عمليّة أشبه بإنتاج المصانع لمواده الاستهلاكية.

لكن داخل "مؤسّسة التاريخ" لا بد من حدوث ما يسميه المفكر شوقي الزين **"تعاقدات"** وهي التّجاذبات الأيدولوجية التي قد تحدث داخل المؤسّسة التّاريخية بين المؤرّخين أنفسهم، أو التّجاذبات الخارجيّة التي قد تحدث بين فاعلين اجتماعيين يمثّلون محاور ضغط خارجية على المؤسّسة نفسها، إذ تحدث **التّعاقدات** في شكل :« إكراه أكاديمي أو اشتراط اقتصادي أو قرار سياسي، وهي المحرّك الرّئيسي للمعرفة التّاريخية وليس فقط المحتويات العلميّة [...] فالمؤرّخ لا يقرّر بذاته أنّ مادّته العلميّة تتمتّع بالمصداقيّة أو الحصانة إذا لم يقرّر المجتمع العلمي الذي ينتمي إليه ذلك و يعرضه على محك المناظرة والمراجعة» [1].

من المعروف أنّ الإنتاج التّاريخي في كل مجتمع يخضع للرّقابة والتّحقيق قبل كل إخراج (أو حتى بعده)، من أجل التّيقّن إن كان هذا الإخراج يتوافق مع التّوجه الأيديولوجي للدّولة وسياستها أم لا.

[1] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص 54.

ومهما كانت تلك الدّولة ليبرالية، ومهما بلغت فيها الحرّيات أقصى ما يمكن أن تبلغه، فهي لا تخلوا من وجود هيئات رقابيّة تابعة لوزارة الإعلام تمارس الحضر والمنع على كل توثيق يهدّد **عقيدة الدّولة**[*].

إضافة إلى التاريخ يستدل "دوسارتو" أيضا بمبحث "الهيتيرولوجيا" (hétérologie) الذي تختص علومه بدراسة ثقافة الشّعوب والأديان وسلوك الأجناس، ومن ميزاتها أنّها تحوّل التّراث الشّفهي إلى نصّ مكتوب في المختبر العلمي، وتوجّه العلم لاكتشاف واستنطاق ما هو مخفيّ في تلك الظواهر الغامضة، وكأنها ظواهر لا تحمل أي أبعاد قيميّة (جمالية ودينية وأخلاقية) غير البعد الّذي يستخلصه العلم من مضامينها. [**] يقول "دوسارتو": « يفترض التّحليل التّنويري أو العلمي الجاد وجود شيء جوهري يتبدّى في أسطورة المتوحّش أو في معتقدات المؤمن، أو في مناغاة الطّفل أو في تعبيرات الحلم أو في المحادثات الحِكميّة للشّعب، ويسلّم بأنّ الأقوال لا تعرف ما تعبّر عنه من أشياء جوهرية. "الحكاية" إذا تعبير زاخر تنتظر التفسير العالم "للإفصاح" عما تقوله ضمنيّا » [(1)].

---

[*] **عقيدة الدولة** هي ثوابتها الأخلاقية والسياسية والتاريخية التي لا يجوز المساس بها أو نقدها، وتسخر لها الدولة مؤسساتها (كالإعلام والجامعات) لتثبت صحتها وتذكر المواطنين بضرورة التمسك بها، وهي أشبه **بالعقيدة الدينية** التي لا يسمح المؤمن بأن يبلغها نقد أو تشكيك.

[**] نفس الأمر بالنّسبة "للجنون" عند فوكو، فهو في "الطّب العقلي"(psychiatrie) ظاهرة لا تحمل أي أبعاد أخرى (فلسفية وجمالية وفنّية) غير البعد المرضي الذي يستوجب العلاج، ومن واجب الطّب العقلي – كما الهيتيرولوجيا- أن تأوّيل تلك العلامات وفق ما تقتضيه المعقوليّة العلمية.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 279.

ما يبرر تلاقي المعرفة بالسلطة هو أن "المؤرخ" لا يمكن أن يتجرّد من "الانتماءات" التي تدخله في صراعات لا مفرّ منها، فهو يستعمل "المعرفة" على الأرجح لتبرير إمّا أيديولوجيّته الخاصّة، أي بما يؤمن به من معتقدات وقيم و أفكار، أو لتبرير أيديولوجيّة جماعة ينتمي إليها: كالحزب السّياسي أو الطّائفة الدّينية، **وهنا لا يمكن أن نفصل بين التّاريخ كمعرفة وكونه سلطة.**

كما لا ننسى تأثير **"الانتماءات للمؤسسة"** وما تمارسه من إكراهات وتقيد على "المؤرّخ"، فهو ليس مستقلاًّ عن الزّمرة العلميّة التي تخضع موضوعات التّاريخ للنّقاش والمداولة. إن الممارسة التاريخية عند "دوسارتو" -كما يقول المفكّر شوقي الزين- « هي تفاعل بين أعضاء المجتمع العلميّ في مكان اجتماعي. كل إنتاج هو حصيلة تداول وتشاور ونقاش. فهو نتاج عمل خلاّق على المعطيات المادّية والرّمزية، وتغمره الصّراعات الحيّة في ثقف الموضوع للظّفر بخاصّيته ومنظومته. كلّ اشتغال على المواد العلميّة لإعادة تشكيلها وتأويلها هو تغيير **"للوضعية الابستمولوجية"** (*) ذاتها لأنّها تمسّ أيضا الشّرط الاجتماعي والقانون الدّاخلي للمؤسّسة التّاريخية » (1).

---

* **الوضعية الابستمولوجية**: هي شكل ومضمون النّظرية المعرفيّة التي تتأثر بالممارسات التي يكتنفها الصراع.

1 محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص 56-57.

3.1 السلطة والإنتاج المعرفي للنص (الخطابات):

إنّ السّلطة في السّياق الاجتماعي **لها القدرة على صياغة "المعتقدات"** [*] (croyances) وليس المقصود هنا المعتقد الدّيني أساسا، وإنّما **كلّ قضيّة يؤمن بها الفرد ويدافع عنها ويعمل بمقتضاها ضمن الجماعة التي ينتمي إليها**، ويشمل "المعتقد" بهذا المعنى: **العقائد السّياسية والدّينية والأخلاقية (العلمانية)، وحتى النّفعية و الثّقافية الموروثة عن الأجداد والآباء.**

والوسيلة التي تمكّن السّلطة من اختراق المعتقدات السائدة **هو التّحكم في الخطاب واستعماله كوسيلة للتّرويج لمعتقدات جديدة**، وذلك عن طريق منظومات استراتيجية تخدم هذا الغرض مثل: المؤسسات التّعليمية والإعلاميّة والقضائية.

ويشير "دوسارتو" إلى أنّ "عصر الحداثة" (modernité) قد شهد حدّة لا مثيل لها في "صناعة المعتقدات"، لأنّه العصر الّذي اتّخذ فيه "الخطاب" وضعا استراتيجيا ومؤسّساتيا، فلا يكون المجتمع هو الّذي يوجّه الخطاب وينتج النّص، بل يصبح النّص هو من يصوغ معتقدات المجتمع ويصوغ تمثّلات أفراده. إن المجتمع –كما يقول دوسارتو– « ينتجه النّسق الكتابي، والجمهور تشكّله الكتابة وسيصبح

---

[*] يقول دوسارتو: « لا أقصد **"بالاعتقاد"** موضوع "العقيدة" (مذهب أو برنامج...)، وإنّما استثمار الأفراد في القضية، **فعل التّعبير عن القضيّة باعتبارها صحيحة**، بتعبير آخر **"إجراء" في الإثبات** وليس مضمونه » . راجع: ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 208-209.

مشابها لما يتلقّاه(*)، وأنّه مطبوع بالنّص وشبيه بالنّص المفروض عليه » [1]. الخطاب بهذا المعنى هو الخيط الرّابط بين السّلطة والمعرفة وهو ما يتيح للسّلطة التّحكم في الأجساد وتسييرها وذلك بطريقتين هما: **التّقنين والتّأريخ**.

المقصود "**بالتّقنين**" استعمال الخطاب على أوسع نطاق لنشر معايير السّلوك والآداب الّتي يجب على كل فرد أن يتقيّد بها وإلا سيتعرّض للعقاب، والأمر هنا لا يقف عند الإشارة للمنظومة القانونيّة التي تميز كل المجتمعات، بل حتّى الخطاب غير الرّسمي المتداول في الصّحافة ومؤسّسات الإعلام وفي الشّوارع، فهي أيضا خطابات **لها أدوات للضّغط على الأجساد** بحث تؤثّر على الرّأي والسّلوك وحتّى القرارات السّياسية للحكام.

أما العمليّة الثّانية فهي: **التّأريخ (أو الأرخنة)**، وتستعين فيها المؤسّسات الاستراتيجية بالخطاب لنسج حقيقة تسرد حقيقة الآخر (الأفغاني، أو المسلم، أو الآسيوي..) على شكل – ما يسميه دوسارتو- "**رواية**" يتمّ تداولها ونشرها على نطاق واسع في صورة "**دعاية**" (**)تحمل الجمهور على

---

* أي أن هنالك حالة من التّماهي والانصهار بين فكر الشّعوب و الخطابات التي تعبر عن معتقداتهم، **فيصير النص منتجا للمعتقد وليس العكس**، ولهذا يتم توظيف المدونات والخطابات توظيفا إيديولوجيا من أجل صناعة وعي الشعوب، ومن أمثلة ذلك سيطرة الايديولوجيّة الدّينية أو العلمانيّة على **إنتاج النصوص** لدرجة أنّ شعوبها تتأثر تأثيرا مزدوجا: فنجدها مهوسة بالدّين، إما بالدّفاع عنه أو بإقصائه وتحييده.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 289.

** يحضرنا كمثال **"المركزية الغربية"** التي تقودها الولايات المتحدة الأمريكية ضد كل ما يتنافى مع قيم ومبادئ الحضارة الغربية، وهي دعاية لا تستعمل فيها الوسائل الحربية والعسكرية بقدر ما تستعمل فيها الوسائل المعرفية والاقتصادية والدعائية. راجع كتاب: إيدوارد سعيد، الاستشراق (المفاهيم الغربية للشرق)، المرجع السابق.

"الاعتقاد" بها. إذ يقول :« لا يشتغل الخطاب المعياري إلاّ إذا أصبح **"رواية"**، أي نصّا يتمفصل مع الواقع ويتحدّث باسمه، بمعنى قانون مُزيَّن ومُؤرَّخ ترويه الأجساد[...]من التّلقين وحتى التّعذيب تستعين **"الأرثودوكسية الاجتماعية "** (*) بالآلات لتتعاطى شكلا تاريخيّا، وتنتج المصداقيّة المرتبطة بخطاب تفصح عنه الأجساد » [1].

إن ما يسميه "دوسارتو" **"بالأرثودوكسية الجديدة"**« **هي الدّين الجديد الّذي يكتب ولا يتكلّم الّذي يؤلّف ولا يتجسّد في المحادثة** » [2]، والذي جاء أساسا كنتيجة لتدهور الموروث الثّقافي المسيحي (الفقدان). إنّها الدّين (العلماني الجديد) الذي يكرّس للمكتوب كأفق مطلق للتّعبير عن الحقيقة. أمّا كل ما ينتمي للمشافهة والثّقافة الشّعبية فتمّ تصنيفه ضمن المجهول واللاّمعقول.

يعتقد "دوسارتو" أنّ "الحداثة" أفرغت الدّين (المسيحي) والثّقافات والأساطير من الحمولة الرّمزية فالعوالم الرمزيّة بالنّسبة **"للأرثودوكسية الجديدة"** مجرّد فلكلور شعبي لا علاقة له بالعلم، في حين كانت هنالك محاولات في نظر "دوسارتو" قام بيها "فرويد" وغيره لإحياء الصّلة بين العلم وبين العوالم الخفية للّامعقول.

---

* **الأرثدوكسية الجديدة (أو الاجتماعية) :** مصطلح يشير به "دوسارتو" إلى **العقيدة الفلسفية** التي يدعوا إليها فلاسفة عصر الحداثة، والتي حاولوا من خلالها **فرض رؤية للعالم والإنسان،** وقد وصف هذا التيار بالأرثودوكسية تشبيها له **بعقيدة الكنسية** التي عرفت بتشدّدها وطغيانها.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 265.

[2] المصدر نفسه، ص 277.

تمكن أهميّة الخطاب في تحويل المعرفة إلى سلطة، فهو يحوّل الواقع(*) إلى معتقدات راسخة، ويتمّ ذلك – في تصّور دوسارتو- من خلال تأثير المنظومة الإعلامية والدّعائية على وعي الأفراد، إذ نشهد كمّا هائلا من الأخبار والمعلومات وسبر الآراء والإحصائيّات، لدرجة أنّنا نعجز على اختيار مضمون ما نفكر فيه خارج ما تختاره لنا الدّعاية الإعلاميّة والسّياسية، التي لها القدرة على **تضخيم وتصغير الأحداث،** حتّى أنّ "دوسارتو" وصف أصحاب الدّعاية « بكهنة الحقّ الذين يحملون الأشياء على التّكلم » [1]، ووصفهم أيضا « برسل الواقع وأنبياؤه » [2]، فهم يمارسون وصاية على **"المعتقدات"** عن طريق خلق واقع جديد ينتجونه بخطاباتهم وبمؤسساتهم .

3. قراءة ودوسارتو لشخصية الخبير:

يذكر "دوسارتو" في كتابه "ابتكار الحياة اليومية" بعض الميزات التي طبعت المجتمع الغربي في عصر الحداثة وما بعدها، أولها: هو انتشار المؤسسات العلمية في شتى مرافق المجتمع وكأنها "خلايا" تنتشر في جسم، ومن مهامّها تحويل الظّواهر الممكنة (بما فيها الواقع) إلى موضوع دراسة علمية.

* ليس "الواقع" عند "دوسارتو" معطيات الحياة الاجتماعية، بل هو مجموع الأحداث التي تنتجها مؤسسات إعلامية لها توجهات سياسية، هدفها توجيه الرأي العام والتّحكم في معتقدات الجماهير وأفكارهم وتفاعلاتهم.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 320.

[2] المصدر نفسه، ص 320.

والميزة الثانية: هي ظهور شخصيّة "الخبير"(l'expert)[*]كشخصية مركزية وبارزة، إذ زاد وجوده بشكل ملحوظ، وتوسّعت أدواره على حساب العلماء. يقول "دوسارتو": « لا شكّ أن الخبير يتكاثر في المجتمع لدرجة أنّه أصبح الصّورة المعمّمة والممدودة بين ضرورة التّخصص المتزايد وضرورة التّواصل. فالخبير يحذف – وبوجه ما يعوّض– الفيلسوف الّذي كان متخصّصا بالأمس فيما هو كوني » [1].

لكن السؤال المطروح: ما هو نشاط الخبير وما هو دوره وموقعه في المجتمع؟ وكيف يصير شخصية جامعة بين المعرفة والسّلطة؟.

1.2 السلطة الاجتماعية للخبير:

دور الخبير في رأي "دوسارتو" هو: « **التّوسط بين المعرفة والمجتمع** » [2]، فهو يكتسب المعرفة حتّى يجعل منها أداة للانخراط في الشّأن العام، ووسيلة لحسم السّجالات والتّجاذبات السّياسية والاجتماعيّة والقانونيّة، وهنا ينكشف بشكل واضح التّوظيف السّلطوي للمعرفة. إن الخبير على حدّ تعبير "دوسارتو" : « يقوم بإدراج تخصّصه في المنطقة الواسعة والمعقّدة للقرارات الاجتماعية

---

* الخبير (expert) : هو شخص متخصّص توكل له –داخل مجاله- **مهمّة التّخطيط للسّبل الّتي تحقّق أغراضا استراتيجية**، ويصفه "غرامشي" **"بالمثقّف التّنسيقي"** لأنه يمارس التّأثير المزدوج على الجماهير من جهة وعلى السّلطة الوصيّة من جهة أخرى، و على عكس "المثقّف التّقليدي" الّذي يبقى على مهمّة ثابتة طول حياته كالمعلّم أو رجل الدّين أو العامل البسيط، **تتبدّل أوضاع "المثقّف التّنسيقي" بتغيير خططه، وتزيد سلطته بزيادة تأثيره**. راجع: إيدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، مؤسسة هنداوي للنشر ،ط1 2018، د.ب، ص25-26.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 51.

[2] المصدر نفسه، ص 51.

والسّياسية » [1]، إذ له الحق- **باسم سلطة المعرفة**- في التّدخل في أيّ مجال كان بوصفه الشّخص المخوّل له حسم السّجال، وبوصفه الشّخص الّذي يجب على الجميع الاصغاء إليه عندما تشتد الأزمات والخلافات .

هذا يعني أنّ "المعرفة" عند "الخبير" **لها بعد وظيفي،** أي أنّ مهمّتها تكمن في **التّأثير على القرارات والتّدخل في المواقف وتوجيه الرّأي العام،** بمعنى آخر "المعرفة" عند الخبير تخدم السّلطة على الرّغم ما قد يبدو عليها من حياد و موضوعية، فبالنّسبة للخبير:« **يتحول التّخصص إلى سلطة اجتماعية** » [2].

يحوّل "الخبير" المعرفة إلى سلطة من خلال **مكانته الاجتماعيّة وليس بفضل مكانته العلميّة**[*] لأنّ معرفته موجّهة أساسا لخدمة النّظام العام، أي إحداث توازن في الرّأي ودرء التّصدعات وإزالة الخلافات، فيكفي أن يسمّي المرء نفسه **"خبيرا"** حتى يُنصت إليه ويؤخذ كلامه وقراراته بمحمل الجد. يقول دوسارتو: « إذا لم يكتفي الخبير بما يعرف، **فإنّه يقرّر بوصفه مكانة يمنحها له تخصصه** » [3]، وعليه فهو يمتلك **"سلطة رمزية"** يمنحها له المجتمع، لكنّها سلطة مغلّفة ومخفيّة في

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 51.
[2] المصدر نفسه، ص 51.
[*] يطرح "فوكو" نفس الفكرة بخصوص "طبيب الأمراض العقلية" فهو (مثل الخبير عند دوسارتو) يمارس المعرفة ليس انطلاقا من كونه عارفا بشؤون النّفس وأمراضها، وإنّما انطلاقا من مكانته الاجتماعية، ومن **سلطته المعياريّة بوصفه صورة مشخّصة للضّمير الجمعي.**
[3] المصدر نفسه، ص 52.

الكفاءة المعرفية، **كالتي يمتلكها "رجل الدّين" عندما يتعلّق الأمر بقضايا اللاّهوت، أو "الطّبيب" عندما يتعلّق الأمر بالأمراض، أو "رجل القانون" عندما يتعلّق الأمر بالجنايات والجنح.**

بمعنى أدق "الخبير" إذا طرح نفسه على أنه عارف سيؤدي به هذا الأمر إلى امتلاك **"سلطة معيارية"، ونقصد "بالمعيارية" القدرة على الفصل والتّمييز بين الخير والشر والعفّة والخطيئة، وبين الصّحة والمرض و الجائز والممنوع.** وهي "معيارية" حاملة للمعرفة كونها ناتجة عن "خبير"، وحاملة للسّلطة لأنها مُلزمة للأجساد، ومحرّكة للأفعال، و دافعة للقوانين.

ويلاحظ "دوسارتو" أنّه على الرّغم من أنّ المعرفة والسّلطة في شخصيّة الخبير وجهان لعملة واحدة، إلاّ أنّ **كفاءته تتقلّص إذا زادت سلطته، وتتقلّص سلطته إذا زادت كفاءته،** "فالخبير" مثلا إذا تحوّل إلى "وزير" **زادت سلطته كوزير ونقصت معرفته كمتخصص،** والعكس بالعكس **كلّما تقلّصت سلطة "الخبير" زادت معرفته وكفاءته في الظّهور،** وكأنّ العلاقة بين المعرفة والسّلطة في نشاط "الخبير" هي **علاقة عكسية،** كلّما زاد طرف تقلّص الطرف المقابل والعكس صحيح. يقول "دوسارتو": « بعمليّة عجيبة تحوّل الكفاءة أو الخبرة إلى سلطة، كلّما كانت للخبير السّلطة كانت كفاءته أقل » [1].

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 52.

لكن لا يعني أن "المعرفة" عند "الخبير" في رأي "دوسارتو" قد اختفت، وإنّما قد وظّفت لخدمة السّلطة ولصالح توسّعها(*) يقول: « خلال فترة التّحول هذه – أي من المعرفة إلى السّلطة- فالخبير لا يخلو من الكفاءة، **ولكنّه يتخلّى عن كفاءته التي بحوزته تبعا لتوسّع سلطته وتفاقمها، وتبعا للطّلب الاجتماعي أو من جرّاء مسؤوليات سياسية** » [1].

2.2 السلطة الانضباطية للخبير:

لا تقف سلطة "الخبير" عند التّدخل في الشّأن العام و التّأثير على القرارات و المؤسّسات، وإنّما تتعدّى ذلك لأن **تكون وسيلة لخدمة الانضباط** من ناحيتين:

فمن جهة يتمّ تكوين الخبراء بإدراجهم في عجلة "الانضباط" من خلال تدريسهم وتكوينهم ليؤدّوا دورا موكلا إليهم في "إنتاج المعرفة"، وهي في رأي "دوسارتو" "ممارسات تدريبية" تدمج الخبراء في معايير المجتمع وتجعلهم منخرطين « في نظام عام حيث يكتسي التّخصص -كما يقول- قيمة تلقين أو تدريب **(initiation)** بوصفه قاعدة وممارسة لها وظيفة هرمية للاقتصاد الإنتاجي » [2].

ومن جهة أخرى يتحوّل "الخبير" نفسه إلى **"مهندس انضباط"** فهو من يقترح - عندما تضعف فعاليّة السّلطة وعندما يقتضي الأمر ذلك- الأساليب العملية الجديدة في ضبط السّلوك، ويساهم في

---

* لهذا السبب نلاحظ أن بعض الحكومات توظّف وزراء (أصحاب سلطة) كانوا بالأمس خبراء في المعاهد والجامعات، لأن معارفهم المسبقة تزيدهم من التمكّن والسيطرة .

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 52.

[2] المصدر نفسه، ص 52.

صياغة مناهج جديدة في الاخضاع، فتدبير "الخبير" لسياسة المعرفة واستراتيجياتها لا ينفصل عن تدبيره لتقنيات ممارستها داخل المؤسّسات الانضباطية، فلو أخذنا "المدرسة" كمثال لوجدنا أنّ "الخبير" يؤدي فيها دورين مدمجين: دور المدبّر لبرامج التّعليم وهو ما يسميّ "بالبيداغوجيا" (pédagogie) ودور المدبّر لبرامج الإخضاع والتّأديب.

مُحصّلة المبحث:

لقد تبين لنا من خلال مما سبق أنّ علاقة المعرفة بالسلطة عند "دوسارتو" ليست علاقة بين مفهومين مجردين، بل هي تجسيد لأشكال التلاقي بين نظم وممارسات بالغة التعقيد والتداخل نرصدها داخل النسيج الاجتماعي لكل مجتمع.

إن المعرفة لا تتأسس في فراغ، بل لا بد أن تتخذ **"وضعا استراتيجيا"** تضمنه لها السلطة لأنها حاضنتها والقوة الدافعة لها، إذ نقول أن لا معرفة بدون رهان صراع و بدون مؤسسة تحيط تلك المعرفة باستراتيجيات تضمن بقاءها واستمراها، كما لا يوجد سلطة تمارس في فراغ بل لا بد لها من حقول ومعابر معرفية تجعلها تمتد وتتجدد، وأهم تلك المعابر هي الخطابات التي بها ومن أجلها يحدث صراع السّلط.

هنالك ثلاث مجالات-حسب دوسارتو- هي محور تلاقي المعرفة بالسلطة وهي: **فضاء الاستراتيجي للمؤسسة، الاشتغال العلمي داخلها، والنص أو نوع الخطاب الذي يترتب عنهما.** والمحور الرابع هو: **شخصية الخبير** التي يزيد صاحبها سلطة إذا تناقصت معرفته بحكم المكانة الاجتماعية والدور الذي يؤديه، وقد تزيد معرفته بتواري سلطته وهي إشارة للسّمة التكتيكية التي تتخذها علاقة المعرفة بالسلطة، إذ تتوارى إحداهما وتتقلص لتبرز وتتعاظم الصفة الأخرى دون أن تنعدم.

خلاصة الفصل الثاني:

لقد قام "دوسارتو" بنقد الأنساق المعرفية من الناحية التاريخية والابستيمولوجية، وقد خلص إلى نتيجة مفادها أن المعرفة نشاط غير قابل للاختزال أو الامتلاك، كما أن المعرفة ليست نسقا ثابتا وليست لها صورة نهائية تنتهي إليها، وبالتالي لا بد أن نحذر من الوقوع في المقاربات الاختزالية التي تصور المعرفة بوصفها نشاطا خالصا للذات والوعي والإرادة، أو تلك التي تصورها بوصفها نتاجا لبنيات خارجية ولعلاقات قائمة بين ممارسات وخطابات. وعليه يبدو لنا أن موقف دوسارتو هو موقف جامع بين القول بتأثير البنيات الخارجية والإقرار بنشاط الذات، فالمعرفة بالنسبة له لها بعد نسقي وذاتي معا.

تُفهم المعرفة من حيث هي نسق عندما تتخذ **وضعا استراتيجيا** فتتحول بموجبه إلى مشروع فكري أو نظرة شاملة للحياة تفرض نفسها على المجتمع والتاريخ، وتسخر لها المؤسسات والهيئات السياسية لتحقيقها، ومن أمثلة ذلك نموذج الحداثة الذي انخرط في لعبة السياسة والصراع فتحول إلى تحديث عنيف يراد من خلاله فرض نموذج حضاري على الآخرين. وتُفهم المعرفة من حيث هي نشاطا ذاتيا عندما تتخذ **وضعا تكتيكيا** نرصده في مختلف مهارات وحيل الفاعلين الاجتماعيين سواء على مستوى الخطاب كالرواية والحكايات الشعبية أو على مستوى الممارسات كسلوك المواطنين اتجاه المواد الاستهلاكية.

إن المعرفة في تصور دوسارتو من طبيعة تاريخية، وبالتالي فهي نسبية محلية تتغير بتغير المجتمع، وتتأثر بالممارسات أي بالحركية الاجتماعية والاقتصادية، إنها نتاج بنيات متحركة بالغة التعقيد يتداخل فيها النظري مع العملي، والفردي مع المؤسساتي، والتاريخي مع الواقعي (أو اليومي).

إن الإحاطة بطبيعة المعرفة مرهون – من الناحية المنهجية- بالبحث في الشروط المادية التي شكلت بنيتها، وبالتالي فإن دوسارتو يستعمل المنظور الاجتماعي والمنهج المادي (الماركسي) لأنه يرد المعرفة النظرية إلى "**البنى السوسيو- اقتصادية**" التي تشكلها (مؤسسات، سياسات، تمويلات، خطابات...)، فهو يفهم النظريات بردها إلى الممارسات.

كما أن السلطة في نظره مفهوم غير قابل للحصر، فلا نشير بها حصرا للعنف المادي أو لهيمنة الدولة على الأفراد، ولا هي قوة هدامة تسير بالمجتمع إلى الانهيار، ولا هي علاقات الاخضاع والخضوع التي تربط الأفراد بعضهم ببعض، وإن كانت السلطة جامعة لكل هذه المعاني إلا أنها تتميز بخصائص عامة أكثر شمولا يلخصها دوسارتو في ثلاث مفاهيم وهي : **الصراعية، الاستراتيجية، والانتاجية.**

تتضح الميزة **الصراعية** من خلال تبني دوسارتو لوجهة نظر فلسفية تقضي بأن الصراع ضرورة اجتماعية، **فهو القوة الدافعة للمجتمع نحو البناء بعد الهدم، ونحو الحركة بعد الثبات.** ولا تفهم السلطة إلا بوصفها مجموع الصراعات الشاملة التي تعم النسيج الاجتماعي ككل في علاقاته الأفقية والعمودية. وتعني الصفة **الاستراتيجية** أن الصراع لا يحدث بصورة فوضوية ولا تحكمه قوة الهدّامة، بل

يتخذ وضعا استراتيجيا، إذ تحدث الصراعات وفق خطط ومرام ومقاصد معينة، كتلك الاستراتيجيات التي نشهدها في المؤسسات العسكرية أو الصناعية أو السجنية الموجة لإخضاع الجسد وترويضه، ويقابل تلك الاستراتيجيات وجود ما يسميه دوسارتو "**تكتيكات**" وهي سلط مجهرية يتسلح بها الانسان العادي وهي الحيل والمناورات التي تمكنه من تكسير هيمنة الاستراتيجي والتلاعب به. أما الصفة **الانتاجية** فالمقصود بها المعنى المادي لمفهوم الانتاج، لأن **المعارف** في اعتقاد دوسارتو مثلها مثل المواد الصناعية هي منتوجات يتم فبركتها وفق شروط مادية ورمزية.

يربط دوسارتو ربطا وثيقا بين المعرفة والسلطة لدرجة التماهي، لأن كل طرف هو بمثابة شرط إمكان الطرف الآخر، وقد رصد مجالات التلاقي بينهما في عدة مواضع منها: **المؤسسات** التي هي حقل نشاط معرفي وفضاء رقابة وانضباط في الآن نفسه، **والنصوص العلمية والقانونية** التي تكون محور تجاذبات وصراعات تحدد الصياغة النهائية لمضمون الخطاب، وعلى المستوى الاجتماعي حيث تتحدد معالم البراديغم المعرفي السائد على حسب السلط المهيمنة كالسلطة السياسية والقوى الاقتصادية وغيرها.

الفــصل الثّالث

فـهرس الفصل الثالث:

المعرفة والسلطة بين ميشال فوكو وميشال دوسارتو

(دراسة مقارنة في المفهوم واستعمالاته)

توطئة:

المبحث الأول: السلطة والمعرفة بين فوكو ودوسارتو (مقارنة في المفهوم

واستعمالاته)

المبحث الثاني: مقاربات نقدية لمفهوم السلطة والمعرفة عند ميشال فوكو

المبحث الثالث: ميكروفيزياء التكتيك كإزاحة لاستراتيجيات السلطة

خلاصة الفصل الثالث.

توطئة:

لم ينخرط "دوسارتو" في سجالات فلسفية مباشرة مع "ميشال فوكو"، لكن يبدو أنه انشغل بفلسفته نقدا ومراجعة، وتبصّر في منهجه ومفاهيمه، ولعل القارئ المتطلّع لكتاباتهما لا يجد عناء في رصد الهواجس الفلسفية مشتركة التي جمعتهما، فقد كانا شاهدين على أحداث القرن العشرين وما صحبه من تنام للحركات الاستعمارية، والنزعات السياسية الشمولية والحروب التدميرية والثورات الاجتماعية (كالثورة الطلابية في فرنسا سنة 1968)، لقد ترتبت عن تلك الأحداث أسئلة حرجة أهمها: بحث الفلاسفة **في خلفية ذلك التسابق الجنوني والصراع المحموم (الذي لم يكن له مثيل في عصر سابق) نحو امتلاك السلطة وممارستها، سواء باستعمال الحرب المباشرة، أو عن طريق الانقلابات السياسية والثورات الاجتماعية؟.**

لكن لم يقف الحد –بالنسبة لفوكو ودوسارتو– عند التساؤل عن خلفية الصراع حول السلطة ومشروعية امتلاكها، بل امتد الأمر إلى رصد حدث بالغ الأهمية والذي أخذ في التّشكل بصورة بطيئة **وهو حالة التماهي بين المعرفة والسلطة، إذ كانت الإيديولوجيات السائدة لا تكتفي بالعنف المادي، بل تبحث عن المبررات القانونية والنظريات المعرفية التي تضفي على وجودها القبول والمشروعية، مما يزيد من هيمنتها دون أثر تدميري.**

ولعل ما ذكرناه من أحداث هو ما دفع الفيلسوفين إلى البحث **عن المنهج المناسب الذي يمكنهما من كشف التواطؤ المتوار، وفك التشابك المعقد بين المعرفة والسلطة في البنى الاجتماعية والسياسية؟ وتتبع الخيوط والممرّات الخفيّة والمجهريّة لهذا التّماهي وابرازه للعلن.**

وحتى نضيء بعض آفاق هذا الإشكال كان لزاما علينا أن نقيم مقارنة بين موقف الفيلسوفين من علاقة المعرفة بالسلطة، إذ نلتمس في بعض الأحيان تقاربا في وجهات النّظر بينهما وتباعدا في مواضع أخرى. وعليه لا بد من فحص نقاط الاختلاف والتشابه بينهما من ناحيتين: من حيث المضامين الفكرية وطريقة تعاطي كل منهما لهذه العلاقة، ومن حيث الخلفيّة المنهجيّة التي حكمت كل فيلسوف، لنصل في الأخير إلى محاولة الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما هي خصوصية تصور "فوكو" لمشكلة علاقة المعرفة بالسّلطة مقارنة مع أطروحات "ميشال دوسارتو"؟، وماهي مواضع الاختلاف والتشابه بينهما؟. وهل للفيلسوفين مواضع التقاء أم أن لكل منهما منهجه الخاص ورؤيته الخاصة؟.

المبحث الأول للفصل الثالث:

السلطة والمعرفة بين فوكو ودوسارتو

(قراءة مقارنة في المفهوم واستعمالاته)

تمهيد:

1. مقارنة في مفهوم المعرفة

1.1 مجالات الاتفاق

2.1 مجالات الاختلاف

2. مقارنة في مفهوم السلطة.

1.2 مجالات الاتفاق

2.2 مجالات الاختلاف

3. علاقة المعرفة بالسلطة بين فوكو ودوسارتو.

خلاصة المبحث.

تمهيد:

لا شك أن هنالك اختلاف في وجهات النظر بين فوكو ودوسارتو حول تصورهما للمعرفة والسلطة وطبيعة العلاقة بينهما، وفي هذا المبحث سنحاول أن نقيم مقارنة وجيزة بين مواقفهما لنستخرج ما هو مشترك ومختلف ؟، والأهم من ذلك أن نقرأ أفكار هذا الفيلسوف بأفكار الفيلسوف الآخر، لنصل في الأخير إلى تصور مركب لمفهوم السلطة والمعرفة.

1.مقارنة في مفهوم المعرفة:

1.1 مجالات الاتفاق من حيث السياق التاريخي وميدان الاشتغال:

2.1.1 من حيث السياق التاريخي:

ينتمي فكر الفيلسوفين لعصر "ما بعد الحداثة" (postmodernité)[1]، فهما على غرار "الفلسفة التفكيكية" و "ما بعد البنيوية" يعملان على **نقد أي شكل من أشكال الوحدة النسقية للمعرفة والإعراض عن اتخاذ الشخصية الفردية وقضايا الإنسان محورا للكتابة السردية الروائية،**[*] والتوجه بدلا من ذلك إلى الاهتمام **ببنية اللغة وتجلياتها وتحليل الوجود الإنساني من خلال البنى الاجتماعية والاقتصادية،** لهذا اهتم فوكو (ودوسارتو): « بالتاريخ والعلوم الاجتماعية، وعملا على إحياء بعض الجوانب من الفلسفة الماركسية » [2] التي دعت إليها الضرورة المنهجية في أسلوب اشتغالهما.

إن ما كان يحرك أفكارهما هو وجود "هاجس أخلاقي وسياسي" (souci éthico-politique) يستوجب إعادة النّظر بشكل جذري في قيم العصر، ومُساءلة المجتمع الغربي في منظومته السّياسية والاقتصادية التي أنتجت الحركات الفاشية، وخلّفت حروبا طاحنة استلب فيها الإنسان.

---

[1] جون-فرانسوا ليوتار، في معنى ما بعد الحداثة (نصوص في الفلسفة والفن)، ترجمة وتعليق: السيد لبيب، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2006.

[*] تفاديا للوقوع في التّعميم المخلّ نقول أنّ هذا النّمط من النّقد لا يوجد بشكل متساو عند كلّ فلاسفة عصر ما بعد الحداثة، ولكن نجد قدرا متفاوتا من هذا النّقد والتّجاوز بين هذا وذاك بأساليب وبكيفيات مختلفة.

[2] كريستوفر باتلر، ما بعد الحداثة (مقدمة قصيرة جدا)، ترجمة: نيقين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، القاهرة،2012، ص 12.

2.1.1.من حيث ميدان الاشتغال الفلسفي:

يشترك "فوكو" و"دوسارتو" في مجالات اشتغال عديدة، أهمها بحث مواضيعهما (كالجنون- والتصوف المسيحي) من **وجهة نظر تاريخية**، لكن التاريخ بالنسبة لهما هو مجموع الأحداث العينية الموثّقة التي على المؤرخ رصدها في زمان ومكان محددين بعيدا عن التاريخ الشمولي المجرّد.

إضافة لكونهما **"مؤرخين"**، يختصّ "فوكو" و"دوسارتو" في **"النقد الابستيمولوجي"** و**"النقد الاجتماعي"**، يتضح النقد الأول من خلال مهمتهما المشتركة وهي **المراجعة النّقدية للأسس التي قامت عليها المعرفة الحديثة** والبحث في: « الكيفية التي تنتقل فيها المعارف (connaissances) من نسق إلى آخر، وكيف ترتحل من الماضي إلى الحاضر » [1] ، وبأي صورة تتكوّن و تتحوّل من **"معرفة ناشئة"** إلى نسق مغلق يسود العصر بأكمله، أما النقد الثاني فيتبين لنا من خلال ما خصه الفيلسوفان من أطروحات « لنقد المجتمع المعاصر وتحليل الظواهر السائدة فيه » [2]، كعلاقة الجسد بالمجتمع وما يخضع له من ممارسات انضباطية، والبحث في القوانين التي تحكم "أفعال الأفراد" في علاقتهم بالمنظومة السياسية والبنى الثقافية وأيهما يؤثر ويتلاعب بالآخر، دون أن ننسى ما أفرده الفيلسوفان من اهتمام خاص "بالمؤسسة"(institution) كفضاء تتلاقى فيه المعرفة والسلطة، حيث انشغل "دوسارتو" بالمؤسسة التاريخية والكنسية، في حين عكف "فوكو" على دراسة المؤسسة الصحية والعقابية.

---

[1] Jean-François petit, *Michel Foucault et Michel de Certeau* (le dialogue inachevé), parole et silence,2020, Paris, p 24.
[2] Ibid, p 22.

2.1 مجالات الاتفاق من حيث المضمون(المعرفة):

1.2.1الصفة النسقية للمعرفة:(le savoir systématisé)

يشترك "فوكو" و"دوسارتو" في تجاوز الطابع الذاتي(*) والعقلاني للمعرفة، فهي بالنسبة لهما غير مفصولة عن حركية المجتمع ومكوناته، فهي أقرب ما تكون من **بنية عامة تتجاوز نشاط الأفراد وهي خارجة عن إرادتهم**، إذ لا يمكن أن نردّها لمفاهيم متعالية كالذّات والإرادة والوعي، لأنّها **نسق** (système) **معقّد تشكّله مجموعة من العناصر المختلفة تتحكّم فيها عوامل خارجية**.

ويمكن أن نتبيّن ذلك من خلال مفهوم "الإبستيمي" عند "ميشال فوكو" في كتاب "الكلمات والأشياء"، ومفهوم "الاستراتيجية" عند "دوسارتو" في كتابه "ابتكار الحياة اليومية". إذ لا تقاس "المعرفة" عند "دوسارتو" بمضامينها أو منهجها أو نتائجها (أي بدواخلها)، وإنما تقاس كما يقول الدكتور "شوقي الزين" « بالقوى الحيّة التي تحرك المجتمع، وبالشّروط الواقعية والإكراهات المؤسّساتية[...] والعوامل البرّانية التي ينتظم بموجبها الجسد الاجتماعي» [1].

---

* حتى وإن كان "دوسارتو" يعترف بالطابع الذاتي للمعرفة، بحكم أن الأفراد لهم القدرة على الابتكار، إلا أن تلك **"الذاتية المُبتكِرة"** لا يمكن أن تنفصل عن منظومة ثقافية وأطر معرفية تحيط بها وتحتويها، فهي تنشط داخلها وتتأثر بمفاهيمها، وغالبا ما يطرح "دوسارتو" علاقة الفرد بالأطر و الأنساق بأسلوب **يعكس حالة التّجاذب والتّوتر بين هذين الحدّين، فأحيانا يخضع الفرد إلى الأطر والأنساق (الاستراتيجية)، وأحيانا أخرى يتحرر منها بفعل حيله وألاعيبه (التكتيكية).**

[1] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص 140.

ونفس التّصور يثبته "فوكو" عندما يعتبر أن المعرفة: « لا تختزل في البراهين فقط (أي في النظريات)، بل حتى في التّخيلات والتّأملات والحكايات والقوانين الإداريّة، والقرارات السّياسية »[1]، بمعنى أنها ليست انعكاسا للفكر أو نشاط العقل، وإنما هي ما يترتب عن المنظومة الاجتماعية ككل بما تحتويه من بنيات ثقافية ونظام سياسي واقتصادي.

بالنسبة لهما هنالك **"شروط خارجية"** (extériorité) تدفع بالمعرفة إلى التّشكّل، ومن بين تلك الشّروط: **الممارسات والخطابات**: الممارسات: هي مختلف الأفعال البشرية والإجراءات الاجتماعية، إذ أن المعرفة هي قبل كل شيء **"فعل مؤسساتي"**، وهي أيضا **"فعل اجتماعي"** لأن هنالك نظم اجتماعية توجه النشاط المعرفي، كالأسرة والعادات والموروث الشعبي...أما الخطاب: فهو بالنسبة لفوكو و دوسارتو يتميز بميزة: **الإنتاجية والاستراتيجية والتّبعثر**[*]، وبالتالي فهو لا يحيل لنشاط الذات بالضرورة، فقد يصدر عن "مؤسسة تاريخية" عند "دوسارتو" في شكل **"منتوج"** (**produit**) أو "إخراج" كالمؤلفات، أو قد نرصده في صورة **"وثائق" و"أرشيفات"** (**archives**) بالنسبة "لميشال فوكو" كأرشيفات السّجون والمصحّات العقلية.

[1] ميشال فوكو، حفريات المعرفة، المصدر السابق ، ص 169.

[*] تعني صفة "التّبعثر" (multiplicité de discours) أن الخطاب غير قابل للامتلاك ولا ينفرد به قطب دون سواه، فهو موجود عند الجميع ويمر عبر الجميع ولا يخضع لأي قوانين ثابتة، وليس له أي منطق داخلي يحكمه.

2.2.1 الصفة الانتاجية للمعرفة: (productivité du savoir)

يبرز بشكل لافت مصطلح **"الإنتاجية"** (productivité) في كتابات "فوكو" و"دوسارتو" نظرا لتأثرهما بمقولات "ماركس"، فالمعرفة بالنسبة لهما من طبيعة إنتاجية لأنها ليست نتاج تنظير أو تأمل خالص، بل هي ما يتولد « عن سياقات وحقب عابرة » [1] تظهر بظهورها وتختفي باختفائها، فأي مبحث من مباحث المعرفة –عند دوسارتو– « ينشأ من خلال تلاقيه مع مباحث أخرى، أي حضوره في شبكة من التحديدات المتبادلة » [2]، فلطالما كان "الجنون" عند فوكو و "الاعتقاد" (المسيحي) عند "دوسارتو" يتقلّبان في معانيهما على حسب تداخلهما بالحقول المعرفية الأخرى، وبتأثّرهما بموازين القوى السائدة.

المعرفة إنتاجية لأنها "إنتاجية خطابات"(productivité de discours) [*] تتولى إخراجها مؤسسات اجتماعية محددة وفق شروط مادية وإجراءات إدارية، وعليه فالخطاب في نظر الفيلسوفين ليس معطى مباشر للوعي، و إنما تنتجه مؤسسة ليؤدي غرضا معينا، إذ يتم توجيهه **وفق مرام**

---

[1] Jean-François petit, *Michel Foucault et Michel de Certeau* (le dialogue inachevé), op.cit, p24.

[2] Sous la direction de Jean-François Bert et Jérôme Lamy, *Michel Foucault un héritage critique*, CNRS EDITIONS,2014, Paris, P 273.

[*] يتعاطى فوكو ودوسارتو مع الخطاب بمفهومه الواسع، فهو لا يشمل فقط ما يتم إنتاجه من نصوص داخل المؤسسات (كالجرائد بالنسبة للمؤسسات الصحفية، والبيانات الرسمية بالنسبة للوزارات والهيئات المعتمدة...)، بل يمس أيضا الأقوال المدونة وغير المدونة، الرسمية منها التي تصدر عن مؤسسات(سياسية أو اجتماعية)، وغير الرسمية التي يتم تداولها بين الفاعلين الاجتماعيين، والمعرفة بنسبة لها هي نتاج تفاعل وتمازج بين هذين الجانبين: جانب الممارسات وجانب الخطابات.

وغايات (التجييش أو التهدئة أو الاستعطاف)، أو يُستعمل بوصفه سلاحا للانخراط في صراعات خارجية والدخول به في محاور ضغط مختلفة.

المعرفة التاريخية مثلا عند "دوسارتو" تتم في محل خاص هو **"المؤسسة"**، وتمر بعملية فبركة تبدأ بطرح الوثائق والسندات، وتمرّ بعملية فرزها وتحليلها، ثم تنتهي بعملية إخراجها، وبالتالي فالمعرفة (التاريخية) بهذا المعنى هي **منتوج مادي**، فهي « ما يعترف به الأقران، وما يتموقع داخل جملة من العمليات (الإنتاجية) » [1].

أما "فوكو" فنجده يستشهد بالمعارف المدرسية التي لا ينتج خطابها إلا بحضور طقوس وإجراءات تحتضنها المؤسسة، فالنظام التعليمي -كما يعرفه- « هو عملية إخضاع الكلام لمجموعة من الطقوس »[2] التي هي في الأصل طقوس رقابية وانضباطية، وعليه فالمنظومة التربوية- كما يقول- « هي عبارة عن طريقة سياسية في الإبقاء على تملك الخطابات بجانب ما تحمله تلك الخطابات من معارف وسُلط » [3]، وعليه يتبين **إلى أي حد يربط الفيلسوفان المعرفة بسياقات اجتماعية ومادية تحدد شروط إنتاجها.**

[1] ميشال دوسارتو، كتابة التاريخ، المصدر السابق ، ص 87.
[2] ميشال فوكو، نظام الخطاب، المصدر السابق ، ص 24.
[3] المصدر نفسه، ص 24.

3.2.1. الصفة التاريخية للمعرفة: (historicité du savoir)

يفترض "فوكو" و"دوسارتو" أن التّصور الأصح للمعرفة يستوجب قراءتها **في بعدها النّسبي المحلي** ضمن الشروط الاجتماعية والتاريخية التي نشأت فيها، والإعراض عن النظر إليها في بعدها الكوني المتعالي، **فالمعرفة بالنسبة لهما لها تاريخ وهو مجموع الوقائع العينية والأحداث الاجتماعية والمواقف السياسية التي لها تأثير مباشر في تحديد النشاط المعرفي وتوجيهه.**

إن "تاريخية المعرفة" (historicité du savoir) في نظرهما تعني أنها نسبية متحوّلة على حسب كل مجتمع، فهي لا تثبت على حال ولا تأخذ شكل الاكتمال، نظرا لما يطرأ عليها من انقلابات بطيئة أو متسارعة أو مفاجئة، مما يدفعها إلى الانتقال من "نسق" إلى آخر بشكل لا ينبئ بوجود تطور خطي في المعرفة بل يشير لوجود "انقطاعات" (discontinuité)-بمفهوم فوكو- و"قطيعة تأسيسية " (rupture instauratrice)-بمفهوم دوسارتو-، فكلا الفيلسوفان يفكران في تلك التحولات بوصفها "الحدث" (évènement) الذي يمثل الحلقة الفاصلة بين عصرين مختلفين، « فالثورة الفرنسية بالنسبة لهما كانتا بمثابة "الحدث" الفاصل الذي أدى إلى أفول النظام الكنسي وبروز عصر الأنوار » [1] .

[1] Sous la direction de Christian Delacroix, François Dosse, Patrick Garcia, Michel Trebitsch, *Michel de certeau les chemins d'histoire*, éditions complexe,Paris,2002, P 30.

المعرفة بهذا المعنى هي عملية بنائية تستوجب تقصي وفحص وثائق العصر الذي سادت فيه، إنها **عملية استقصائية**[*] (صنائعية) مقيدة بمحيط مؤسساتي، وبوسائل اشتغال منهجية تخص المؤرخ، و بحقل محدد يُعنى بدراسته، وعليه فإن كان التاريخ عملية استقصائية، فإن المعرفة– بالنسبة لهما– هي منتوج اجتماعي وتاريخي– لأنها مرتبطة بشروط زمانية ومكانية ومتصلة بأطر اجتماعية ومؤسسات.

1.2 مجالات الاتفاق من حيث المنهج:

يتشابه "فوكو" و"دوسارتو" في كونهما « مؤرخين اهتما بالنّقد الاجتماعي »[(1)]، وتميّزا بفكرهما الموسوعي المتبحّر في النّصوص التّراثية والمعاصرة، **كما أنّهما غير ملتزمين بمنهج واحد،** إذ يصعب أن نصنّفهما في مدرسة فلسفيّة أو اتّجاه فكري نظرا لخلفيتهما المنهجيّة الثّرية والمتنوّعة.

ومن النّقاط المشتركة بينهما هو اشتغالهما "بفلسفة الفعل" (الفلسفة العملية)، فهما يحللان النظريات بردها إلى الشروط المادية والوقائع الحية التي شكلتها وعلاقات القوى الاجتماعية التي كانت دافعة لها نحو التشكّل، وبالتالي فهما **يتوخّيان الواقعيّة في التّحليل،** ويُعرضان عن الوقوع في التفكير المثالي والمعيارية التي تبحث فيما يجب أن يكون.

---

[*] التاريخ في نظر "دوسارتو" لا هو علم مكتمل القوام (positivisme) ولا هو نثر روائي لا يخضع لأي ضوابط (nihilisme)، بل هو **"صناعة استقصائية مؤسساتية"** ويعرفه قائلا: (**أسمي التاريخ هذه الممارسة (فرع معرفي) ونتائجها (الخطاب)، أو العلاقة بينهما في شكل إنتاج**). ميشال دوسارتو، كتابة التاريخ، المصدر نفسه، ص 37. راجع أيضا محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع ميشال فوكو، نظام الخطاب، المصدر السابق، ص 139.

[1] Jean-François petit, *Michel Foucault et Michel de Certeau* (le dialogue inachevé), op.cit, p15.

نلتمس في مؤلفاتهما أيضا **تشابها في المرجعيّة المنهجية**، فهما يوظّفان في تحليلاتهما **"المنهج البنيوي" و"المنهج الماركسي"** ونجد أيضا حضورا لافتا لتأثير "الأبستمولوجيا الكانطية" ، فهما بنيويان في خلفيّتهما المنهجيّة [*] لأنّهما يغلّبان القول بالبنية (أو النسق) في المعرفة ويبحثان عن أشكال تكوينها وانقطاعاتها بدل ردّها إلى نشاط الذّات أو تطور الوعي في التّاريخ (هيغل).

و هما **"ماركسيان"** في بعض تحليلاتهما لأنّهما ينظران إلى المعرفة انطلاقا من تحليل البنى المادية التي تشكّلها المؤسسات الاجتماعية، ويتّضح ذلك في تكثيفهما استعمال مفهوم **"الإنتاج"** في مقاربتهما للنّشاط المعرفي، فقد قال "دوسارتو" على "المؤرّخ" أنّ « **مهمّته تغيير العالم وليس تأويله** »[1]. وهنا يتّضح بشكل جلي **توظيف المقولات الماركسية** للتّدليل عل الطّابع المادّي والمؤسساتي للتّاريخ[**]، فالمؤرّخ مثله مثل "العامل" (l'ouvrier) عند "ماركس" كلاهما يخضع نشاطه

---

[*] من دلالات حضور المنهج البنيوي هو إقرارهما بأن **المعرفة تنشأ بفعل اجتماع عناصر مركّبة** يتداخل فيها الذّاتي مع الموضوعي، فلا يكون للذّات سيادة على الموضوع، كما أنهما يعترضان على المسار الخطي للمعرفة، ويطرحان بدلا عن ذلك مفاهيم تحيل إلى "الانقطاعات" كقول "فوكو" بفكرة "الانفصال"، وقول "دوسارتو" بفكرة "القطيعة التأسيسية"، و"الاشتغال على الحافة"، فالثورة مثلا عند "دوسارتو" هي **لحظة قطيعة** بين نظام معرفي قديم و نظام جديد، فهي تحدث انقلابا في الأسس وتغييرا في الممارسات، ولعل الثورة الفرنسية والثورات العالمية تؤكد هذا الطرح. راجع كتاب محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع نفسه (مفهوم الحافة ص269-270).

[1] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص 149.

[**] انتقد "ماركس" في أطروحاته **الحد الفاصل الذي أقامه الفلاسفة بين الفكر والواقع**، وقد اكتفوا في نظره بفهم التاريخ وتأويل العالم دون تغييره.

(المعرفي) لشروط إنتاج مادّية ولإكراهات سلطوية تفرض عليه حتمية الدّخول في صراع مع أطراف مختلفة

كما أنّ فكرهما لا يخلوا من أثر **"المنهج الكانطي"**، لأنهما أعادا نفس السّؤال المركزي الذي طرحه "كانط" حول البحث في الشّروط التي تجعل المعرفة ممكنة: **هل تتشكّل بفعل تأثير المعطيات الموضوعية أم أنّها انعكاس لنشاط الذّات ؟ .**

كما لا ننسى تأثير فلسفة **"فرويد"** (*) في توجيه فكرهما نحو دراسة **العوالم الرمزية اللاّمعقولة كالمعتقدات والأساطير والثّقافة الشعبية،** فهي بمثابة **الرّواسب الخفية التي تؤثر في بلورة النّظم المعرفية التي يُعتقد أن الإنسان صاغها بوعي وإرادة،** إذ فنجد أن "فوكو" قد درس "الجنون" و"الجنوح" في حين أن "دوسارتو" درس "التجربة الصوفية" في الثقافة المعاصرة، وكان عضوا في مدرسة "التحليل النفسي" مع "جاك لاكان". ولا شك أن اقتحام عوالم "اللامعقول" هو إجراء منهجي مكّنهما من مقاربة العقلانية الغربية من زاوية الهوامش التي تم إقصاؤها والحقائق التي تم تغييبها، وإذا جاز لنا أن نصف فلسفتهما بشكل أدق نقول أنها: **فلسفة الهوامش والظّلال التي تتعارض في توجهها مع فلسفة الأنوار والفلسفات القطبيّة والنّسقية.**

---

* استطاع **"فرويد"** أن يحطم أوهام العقلانية التي تضع-بحكم منهجها- حدا فاصلا بين العلمي والخرافي بين الحقيقي والخيالي، بين ما ينتمي إلى الواقع وبين ما ينتمي إلى الحلم، وقد استفاد "فوكو"و "دوسارتو" من هذا النقد، ومن **فكرة "فرويد" التي تقضي بأن كل نشاط معرفي تخفى من ورائه رواسب لاشعورية تحركه وتشتغل داخله .**

يتشابه الفيلسوفان أيضا **في الجمع بين الطريقة العلمية الصارمة وأسلوب الكتابة الروائية**، وهو أسلوب يعبر عنه "بول ريكور" بفن الحكي أو "الهوية السردية" (l'identité narrative) وهو بالنسبة لهما: « أسلوب انفلات (identité de fuite)(*) من كل أشكال المعرفة الجاهزة وحيلة هروب من الأساليب التي قد تفرضها عليهم المؤسّسات الاجتماعية »[1]. إنّ الأسلوب الرّوائي- في نظر دوسارتو- « هو المحور الذي يربط بين المباحث المعرفية (interdisciplinaire)، وهو الأسلوب الذي أضحى يحدد ملامح العلوم الانسانية كلها ويكتسح ميادينها »[2].

نلتمس في منهج الفيلسوفين حذرا يدفعهم إلى الإعراض عما قرّرته أطروحات الفلسفات الإنسانية (كالوجودية) التي تجعل من "الإنسان-الفرد" (individualisme) محور اهتمامها، وتفسّر أحداث التّاريخ بإرجاعها لتأثير الفاعل الاجتماعي، لكن يبدو أنهما يعرضان عن أي شكل من أشكال التّفسير الذي ينطلق من مرجعية أحادية أو مركزية، ولا يتبنّيان أي مبدئ راسخ يتّخذانه كمنظور تُفسّر به بقية المعارف، لكنّهما يتوخّيان تفكيرا "علائقيا"(relationnisme) "متعدد المنطلقات"(pluralisme) يستوجب إرجاع "النّظرية" كبنية المركّبة إلى مجموع أجزائها، وبالتّالي لا

* اهتمام الفيلسوفان ببلاغة اللغة والسرد الروائي وفن التّصوير مؤشر على حضور **"النزعة الاسمية"** (nominalisme) في منهجها ، وهي النزعة التي تقضي بأن **العالم له حضور في اللغة وليس العكس، وظواهر الانسان لا تنكشف إلا من خلال اشتغالنا على النصوص، مما يعني أن الانسان يُفهم من خلال النّص وليس النّص هو الذي يُفهم بوعي الانسان.**

[1] Jean-François petit, *Michel Foucault et Michel de Certeau* (le dialogue inachevé), po.cit, p24-25.

[2] Willett Laura,(Traverses, une interview avec Michel de Certeau).**Revue Paroles gelées**, 1983/1, éditions: l'Université de Californie, p 6.

يرجع "دوسارتو" (و"فوكو" أيضا)كل "فردانية" لذرّية اجتماعية، بل يجزم بأنّ العلاقات (الاجتماعية) كفيلة بتحديد مفاهيم تلك الفردانية وليس العكس. ولعلّ كلّ فردانية (individualité) هي الحقل الذي تنشط فيه "تعددية" (pluralité) غير منسجمة (ومتناقضة غالبا) في صلاتها وعلاقتها بمحاور أخرى » [1].

أما الفلسفة بالنسبة لهما فهي ليست فكرا نتبناه أو مذهبا ننتمي إليه، **وإنّما هي المفاهيم والرّؤى التي نستعملها في التّفكيك والنّقد والمراجعة والإزاحة، وهي أداة فهم وتحليل أكثر منها نسقا فكريا أو مذهبا فلسفيا**، إنّها **"علبة استعمالات"** (**boite à outil**) بالنّسبة "لفوكو"و هي **"عدسة مكبرة"**[2] للمسائل المجهرية بالنسبة "لدوسارتو".

2.1.1مجالات الاختلاف:

هنالك اختلاف بين "فوكو" و"دوسارتو" على مستوى الأطروحات والمنهج على الرغم من وجود نقاط مشتركة بينهما، فأطروحات "دوسارتو" تعالج "وهن الاعتقاد" (faiblesse de croire) والحالة التي آلت إليها المسيحية في عصر الحداثة وما بعدها، ويلتفت "للمسار غير المرسوم " (chemin non tracé) لكل يسوعي يعيش حالة الضياع وسط "البنى العلمانية" (structures non religieuses) التي حيّدت

[1] Christian de La Croix, (à propos de Michel de Certeau), Revue Mouvement, 2003/1, p155.

[2] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص76.

الدين، ويتوجه أيضا لدراسة نشاط ابتكار الأفراد في "الحياة اليومية"، في المقابل نجد أن "فوكو" لم يهتم بالسؤال الديني وانشغل بدلا من ذلك "بتاريخ الجنون" و"طب الأمراض العقلية"، وظاهرتي الجنوح والجنسانية.

استند "فوكو" في مرجعيته المنهجية على فلسفة "نيتشه"، فاستعار منه التحليل "الجينيالوجي" الذي يقضي **بأن الصّراع وأشكال الانقلاب والتّدافع بين القوى هو ما يحرّك أحداث التّاريخ ويرسي القيم والمعايير**، وقد أخذ عن "كانغيلام" ضرورة الالتفات لازدواجية المعايير التي أقامتها العقلانية الغربية بين الصحي والمرضي(الباثولوجي)، وبين العادي واللاسوي.

أما "دوسارتو" فقد ارتكز في منهجه على فلسفة "هيغل" حيث استمد منه عدة مفاهيم كالتمييز بين المحلّي والكوني في أفق المعرفة « والبحث في منطق التّاريخ والقوّة الخفيّة التي تحرّكه وحضور الروح الإلهية فيه، والتّفكير فيما إذا كان بالإمكان العيش في انسجام في ظلّ ما يشهده العالم من تجربة التشظي والصّراع » [1]، وقد استلهم أيضا من "فتغشتاين" ضرورة الالتفات لاستعمالات اللغة العادية وما تحمله من قيمة رمزية وأدبية مقارنة باللغة التقنية العلمية التي ادعى أصحابها لزمن طويل انفرادها بتصوير الحقيقة.

[1] Luc Giard, Hervé Martin, Jacques Revel, *Histoire Mystique et Politique, Michel de Certeau*, éditions Jérôme Millon, Grenoble, 1991, p 28-29.

ولا يخفى على القارئ ما قد يلمسه من الحضور اللافت **"للمنهج البنيوي"** في تحليلات فوكو(*) بدليل أنّه كان أكثر تطرّفا في استبعاد أثر الذات ولأنّه تصور المعرفة في شكل "إبستيميات" (بنية وأنساق) لا دخل للأفراد فيما قد يطرأ عليها من تحوّلات مفاجئة أو انقطاعات حاسمة.

أما دوسارتو فقط طغت على تحليلاته **"النزعة الماركسية"** لأنه يرد المعرفة لمجموع الوقائع العينيّة والمادّية التي حدّدت شروط إنتاجها، لكنّه يتميّز عن "فوكو" بأفق أوسع في التّحليل، **فهو يعترف بالجانب النسقي للمعرفة، لكنّه يُقرّ أيضا بأنّ الفاعل الاجتماعي له القدرة على خلق وابتكار معارف خاصّة داخل الهيكل العام الذي يُفرض عليه**، وهذا ما يرفض فوكو الاقرار به، لأن الإنسان بالنسبة له لا وجود له إلا كمفهوم تمّ اختراعه من قبل "علوم الإنسان" التي هي في الأصل إحدى تجلّيات السّلطة الانضباطية.

يختلفان أيضا في كون أن "فوكو" يرجّح البنى الخارجية (extériorité)، وهو يرفض النظر في "جوّانية" الخطاب ومقاصده (intériorité)، أما "دوسارتو" فهو يبحث في البنيتين معا: البنية الداخلية للمعرفة وكيف تتشكل بوصفها خطابا ينتج داخل مؤسسات، وفي البنية الخارجية: وكيف تتأثر المعرفة وتؤثر في الحقل الاجتماعي، وكيف يتم تداولها واستعمالها في سياقات وظروف مختلفة؟.

* من المهم أن ننبه القارئ بأننا نصنف "فوكو" و"دوسارتو" (فنقول على أحدهما أنه بنيوي أو ماركسي) فقط لإبراز خلفيتهما المنهجية لا غير، وليس في مقصودنا أن نصنفهما تعسفا في هذا المذهب أو ذاك.

إن أسلوب "فوكو" في معالجة "المعرفة" هو أسلوب "أركيولوجي" يعتمد على تحليل الخطابات واستقصاء الممارسات مع تعليق نشاط الذات، أما أسلوب "دوسارتو" فهو أسلوب "سوسيو-ألسني" (**sociolinguistique**)(*) لأنه اهتم بأشكال الممارسات اللغوية في الحياة اليومية للأفراد ومدى قدرتها على إزاحة المعارف النّسقية والتلاعب بها.

2. مقارنة في مفهوم السلطة:

1.2 مجالات الاتفاق:

يشترك "فوكو" و"دوسارتو" في عدة منطلقات وافتراضات فلسفية حول السلطة أهمها:

1.1.2 تبرير فرضية الصراع:

إن المجتمع في تصورهما هو أشبه **بحقل صراع تتنازع فيه الكيانات والعُصب الاجتماعية بعضها بعضا طلبا للريادة وبدافع الغلبة والسيطرة** (**)، وبالتالي يتحرك المجتمع وفق **مبدأي الهيمنة**

* لا تختزل "اللغة" عند "دوسارتو" في النسق المغلق للنص، بل هي أيضا ما نتداوله بالكلام وما نمارسه من ألاعيب وحيل لغوية في سياقات اجتماعية، فقد نستعملها استراتيجيا أو تكتيكيا (بشكل فردي أو جماعي) على حسب الدوافع والحاجات التي تفرضها الحياة اليومية للأفراد.

** الإقرار **"بفرضية الصراع"** بالنسبة "لفوكو" و"دوسارتو" لا يعني وقوعهما في تصور فوضوي للمجتمع، بل ذلك الصراع لا بد له من أطر وقوانين تحكمه، فهو بالنسبة لهما يؤدي وظيفة أساسية وهي **وظيفة الهدم والبناء**، ولولا الصراع لأصاب المجتمعات السكون وكان مآلها الزوال، وعليه يمكن القول أن تصورهما يقترب كثيرا من تصور الحكيم الاغريقي "هرقليطس" الذي قال أن **الوجود يحيا بالتنازع** و أن **الحرب هي أم الأشياء جميعا.**

والخضوع، بدليل أن « كل أشكال التمزق والتنكيل (torture) هو جزء من الممارسات الاجتماعية»[1] .

ويستند الفيلسوفان في تبرير "**فرضية الصراع**" على أطروحات "كلوزيفيتش" (Clausewitz) في كتابه "في الحرب" الذي تجاوز فيه التبسيط الاختزالي لمفهوم الحرب (كإعداد خطط القتال وصناعة الأسلحة) ليوسع من الأفهام لهذه الظاهرة ليعممها على كل أشكال الصراع الذي يحكم العلاقات [*]، فقد أخذ منه "دوسارتو" فكرة "التكتيكات" التي تجابه القوى الاستراتيجية، واستلهم منه "فوكو" النظرية التي تقول بأن "**السياسية هي الحرب بوسائل أخرى**"، وتعني هذه المقولة أن كل الأشكال الرمزية التي يكتسيها الصراع بما في ذلك المناظرات السياسية وأشكال الإقصاء والتهميش والاستبعاد الطفيفة التي تحدث بين الناس في الحياة اليومية، هي كلها نوع من الحرب الصامتة التي تحدث بوسائل أخرى، أي بوسائل رمزية غير الحرب بمفهومها التقليدي.

---

[1] Mohammed Chaouki Zine, *mystique et mystère du pouvoir* (Michel de Certeau et Michel Foucault: le labyrinthe du discours panoptique), article: date 09/09/1995, p 9.

[*] يقول "كلوزوفيتش" في كتابه "في الحرب":« **إن الحرب لا تخص ميدان العلوم والفنون، وإنما تخص الوجود الاجتماعي ككل** » .كلوزوفيتش، في الحرب، ترجمة: أكرم ديري، الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت،ص25.

2.1.2 الصفة القصدية والانتاجية للسلطة:

حسب قراءة "دوسارتو" هنالك "شكلية" (formalité) تخضع لها "السلطة" وهي الأطر العامة التي تحكمها وتوجهها نحو غايات مختلفة، كأن تكون "السلطة" مثلا دافعا للإنتاج المعرفي في "المؤسسة التاريخية" أو "الكنسية"، فلولا التجاذبات بين الأقطاب لما تشكلت لنا معرفة.

أما "فوكو" فالسلطة بالنسبة له ليست قوة عمياء بل هي حاملة "لقصدية" تسير بها نحو الإنتاج، لهذا يوسم "السلطة" بسمة "الإنتاجية" و"القصدية" (productivité- intentionnalité)[1]، **فهي تبني أكثر من كونها تدهم**، ومن خلال "الانضباط" تتحقق إنتاجية الأجساد الطّيعة والمنقادة فيُنتج الشرطي والخبير والقاضي وحارس السجن بنفس الوسائل الانضباطية التي ينتج بها الجانحين والمرضى، إن "الإنتاجية" تعني أن الانضباط يتولد عنه انضباط حتى يستقر المجتمع على معايير ثابتة (normalisation).

3.1.2 نقد مركزية السلطة وفرضية امتلاكها:

يشتركان أيضا في نقد "النظرية السياسية" "لتوماس هوبز" و"فلاسفة العقد الاجتماعي" والتي تقضي بأن السلطة قابلة للامتلاك، وأنها تمارس بشكل عمودي بحيث يكون للدولة حق الهيمنة على الأفراد وإخضاعهم للنظام الاجتماعي، لكن فوكو ودوسارتو يفترضان أن **السلطة مفهوم أعم من الدولة**، فهي ليست قابلة للامتلاك ولا هي امتياز خاص يتمتع به شخص (الملك) أو جماعة

[1] Rubert Dreyfus et Paul Rabinow, *Michel Foucault, un parcours philosophique*, traduit de Langlais par:Fabienne Durand-Bogaert, Editions Gallimard, Paris, 1984, p268.

(حزب)، وليس لها مركز يتحكم في مفاعيلها، بل هي شبكة علاقات يشكلها صراع الأقطاب ولا يمكن مقاربتها إلا في بعدها الشبكي (العلائقي) والميكروفيزيائي. إنها مجموع القوى المتحركة والنشطة التي يمارسها الأفراد وتمارس عليهم .

وبخلاف "توماس هوبز" أعرض "فوكو" و"دوسارتو" عن البحث في "السُّلطة" من حيث هي "نظرية"، وبدل التّساؤل عن : ما هي السُّلطة؟ تساءلا عن: **كيف تُمارس** (comment s'exerce)[1] **من حيث هي قوى حيّة ومتحرّكة داخل المجتمع، ماهي أدواتها ومفاعيلها، وما الآثار التي تخلفها؟**. وعليه فقد انصب اهتمامها على « رصد تقنيات السّلطة والكيفية التي تخضع لها الأجساد دون تحديد طبيعة السّلطة ذاتها»[2] .

4.1.2 علاقة السلطة بالجسد:

يقيم الفيلسوفان أيضا **علاقة وثيقة بين السلطة والجسد،** فلا سلطة بدون جسد تسوقه وتسيّره وتشكله، فهو مادة اشتغالها ومنفذ عبور تقنياتها، فبالنسبة لدوسارتو السلطة لها القدرة على "تنصيص" الجسد (textualisation) مثلما تقوم الطابعة بتنصيص الورق وإخراج النص المكتوب وهي إشارة لإخضاع الجسد بوسائل "الانضباط" التي تحيط به من كل جانب . « في الواقع لا يصبح

[1] Rubert Dreyfus et Paul Rabinow, *Michel Foucault, un parcours philosophique*, op.cit, p266-267.
[2] Mohammed Chaouki Zine, *mystique et mystère du pouvoir*, op.cit, P 9.

الجسد جسدا سوى بخضوعه للقوانين، فلا وجود لشيء في الجسد لم تكتبه أدوات "الرمزية الاجتماعية"، ولم تعد صياغته ولم تهذبه أو تعيّنه »[1].

أما فوكو فإن السلطة **تسيّس الجسد من أجل تطويعه ليصير منقادا، ومن أجل توظيفه ليصير منتجا،** وبالتالي فهو في كلتا الحالتين يخدم النظام البرجوازي بالطاعة السياسة والإنتاج الاقتصادي ومن خلال الانضباط (العسكري أو المدرسي..) « يُلعّب الجسد، ويُطوّع ويدرّب، ويُكيّف فيصيرا ماهرا وتتكاثر قواه »[2] بفعل ما يسلّط عليه من تدريبات .

5.1.2 الصفة الاستراتيجية:

يعد أيضا مصطلح "الاستراتيجية" مفهوما مركزيا بالنسبة لفوكو ودوسارتو، فقد وظفاه لنفي صفة العنف والسلبية على السلطة، ولإثبات ما قد تتصف به من إجراءات محسوبة لها مرام وغايات، فهي« حساب في علاقات القوى »[3] بالنسبة لدوسارتو، و« تشريح سياسي للجسد »[4] بالنسبة لفوكو، وعليه فالسلطة لا تشتغل في فراغ ولا هي قوة هادمة، وإنما هي **فن التحكم في الجسد** من خلال تلك "الجاهزيات"(**dispositifs**)[*] .

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 263.
[2] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر السابق، ص 158.
[3] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر نفسه، ص93.
[4] ميشال فوكو، المراقبة والعقاب، المصدر نفسه، ص 66.

[*] في اعتقاد كلا الفيلسوفين لا وجود لسلطة فاعلة بدون "جاهزية" تتولى تنفيذ مفاعيلها و الجاهزيات هي: القوى والمؤسسات، ومجموع الإجراءات والترتيبات والخطابات التي يتم تسخيرها لتؤدي وظيفة انضباطية، ومن تلك الجاهزيات نذكر: الخطط الأمنية والشرطة، والقوانين الجنائية، وجهاز القضاء، والثكنة والمؤسسات الصحية.

6.1.2 الصفة المؤسساتية للسلطة بوصفها (بانوبيتك):

يؤكد الفيلسوفان على أهمية وجود "الحيز مادي" للسلطة و هو ما يسميه فوكو "بالبانوبتيك" (**panoptique**)[1] ويشير إليه "دوسارتو" بمصطلح "الخاص"، ويشمل الفضاءات المكانية للمؤسسات بما تتميز به من ترتيبات وخطط يتحقق من خلالها الانضباط، وينطبق ذلك على المدارس والمصانع ومخابر البحث والثكنات، لهذا فالسلطة تتميز بالعمومية وبقدرتها على الحضور في الجوانب المجهرية والدقيقة للمجتمع .

كما يتفقان على أن السلطة قوى متجددة متكاثرة لا تعرف الثبات، بفعل الصراع الحاصل بين الأقطاب، تحدث انقلابات في مراكز القوى فيصير القوي ضعيفا والضعيف قويا، وتتغير وضعيات الإخضاع والخضوع فلا وجود لهيمنة دائما أو سيطرة مطلقة، وما يجعل المجتمع يتحرك باستمرار في شتى جوانبه هو هذا الانقلاب المستمر في الوضعيات.

2.2 مجالات الاختلافات:

يحلل "فوكو" السلطة من **وجهة نظر تاريخية (كرونولوجية)**، إذ يبين في مؤلفاته كيف أن أنظمة الهيمنة تتحول من عصر لآخر على حسب ما يطرأ من تغيير في موازين القوى، ولعله يرصد في البداية: نمط السلطة الملكية السياسية التي كانت مشخصة في سطوة الملك، وبفعل التحولات

[1] Rubert Dreyfus et Paul Rabinow, *Michel Foucault, un parcours philosophique*, op.cit, p270.

الاجتماعية والاقتصادية تم تعديل القوانين الجزائية التي سمحت بظهور "السلطة الانضباطية" بدل "السلطة الانتقامية"، ثم ظهر فيما بعد نمط جديد من السلطة هي "السلطة الحيوية" التي تهتم بمراقبة وإدارة الجوانب الحيوية للسكان كالأمراض والولادات.

أما "دوسارتو" فيحلل السلطة من **وجهة "نظر اجتماعية"**، فهو يضع تقابلا بين نوعين من السلط المتعارضة: **"السلطة الاستراتيجية"** وتمثلها إجراءات الاخضاع التي تنفذها المؤسسات باختلافها، و**"السّلطة التكتيكية"** تتجسد في سلوك الأفراد وفي حيلهم التي تمكنهم من الانفلات والمراوغة.

يختلف الفيلسوفان أيضا في نظرتهما **لعلاقة السلطة بالذّات،** فالذّات كما يراها فوكو ليس لها القدرة على الانعتاق والتحرر من علاقات الهيمنة، في حين أن دوسارتو يعطي للذات حقها ويمنحها القدرة على الاستقلالية والمناورة، فعلى الرغم من خضوعها لمفاعيل السلطة الاستراتيجية إلا أنها قادرة على خلق سلطة موازية هي "السلطة التكتيكية" والتي تمكنها من المراوغة والانفلات حينا، ومن اقتناص الفرص وتحقيق الغايات حينا آخر. يقول الدكتور شوقي الزين في هذا السياق « إذا كان "فوكو" يوافق "دوسارتو" في الطابع الجبروتي لتقنيات الانضباط والمعاقبة في كل مجتمع تسوده المؤسسات، فهو لا يوافقه في اختزال المجتمع في رمته إلى سجن مقلق ومراقب»[1] .

[1] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص293.

حتى وإن كان فوكو يعترف بوجود **"مقاومات"** تنشط داخل علاقات الهيمنة على شكل ردود أفعال ومناورات تحرض الصدامات وتغذي الصراعات، إلا أن **تلك** "المقاومات" لا تؤثر في **"الوضع الاستراتيجي العام" للسلطة،** بخلاف "دوسارتو" الذي يعتقد بأن "السلط التكتيكية" على الرغم من لطافتها وخفتها، فإنها قادرة على إزاحة الكيان الاستراتيجي للسلط القائمة، فتؤدي بها إلى الانهيار والزوال، وهي بدورها يمكن أن تتعاظم هيمنتها فتتحول بدورها إلى سلطة استراتيجية.

3. علاقة المعرفة بالسلطة بين فوكو ودوسارتو.

1.3 نقاط الاتفاق حول علاقة المعرفة بالسلطة:

يتفق الفيلسوفان في الإقرار بالتلازم بين المعرفة والسلطة، بحيث يشترط إحداهما وجود الطرف الآخر،« **فكل معرفة تؤول بالضرورة إلى سلطة، وكل سلطة هي حاملة لاعتقاد معين أي لحقيقة تقوم بترويجها بالعقل أو بالعنف** »[1]، إذ توجد السلطة حيثما توجد المعرفة.

ولو جاز لنا أن نتخير مثالا من فكر كلا الفيلسوفين، فسيتبين لنا أن المعرفة كما تصورها فوكو لا تبلغ عتبة معينة (العلمية) إلا إذا كانت هنالك قوى دافعة لتلك الأنشطة المعرفية، فإجراءات الاخضاع ضد الجانحين، والممارسات الطبية على المجانين قد سرّعت من تكوّن "طب الأمراض العقلية"، و"الطب النفسي"، فهي معارف نشأت على حسب ما اقتضته الحاجة السياسية إلى

[1] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص **166.**

"الانضباط". أما بالنسبة "لدوسارتو" فلا يمكن للمعرفة أن تتشكل دون أن تنخرط في حسابات سلطوية، فالمؤرخ مثلا يكون مجبرا على إخضاع مضمون خطابه للنقاش والمراجعة من طرف الجماعة العلمية بحكم انتمائه للمؤسسة كالجامعة أو المختبر، ضف إلى ذلك أن خطابه يخضع للإجراءات البيروقراطية التي قد تعيق إخراجه إن كان فيه مخالفة للعرف السياسي أو العقيدة الأيديولوجية للمجتمع الذي ينتمي إليه. وهذه الإكراهات الخارجية لها تأثير مباشر في صياغة النظريات وتكوين الخطابات.

1.1.3 السلطة العقلانية:

يتفق "فوكو" و"دوسارتو" في تشخيصهما لعصر " الحداثة" (modernité) باعتباره العصر الذي شهد تماهيا غير مسبوق بين تقنيات السلطة ونشاط المعرفة، ومن علامات هذا التلاقي بالنسبة لهما هو تنامي "سلطة العقلانية" (pouvoir de rationalité) التي تحولت إلى "سلطة معيارية" ترسم حدودا للحقيقة، وتفرض ما يجب التفكير فيه.

"السلطة العقلانية" عند فوكو هي "سلطة قمعية" على المستوى الاجتماعي، "إقصائية" على المستوى النظري لأنها تضع فصلا بين العقل وما يناقضه (الجنون)، بين العادي والمرضي وبين العلمي بلغته الصارمة واليومي بلغته الأدبية المبتذلة. وحتى نجابهها لا بد أن نتبع تفكيرا موازيا يهتم « بالمعارف

المنقوصة، والحقائق الظرفية، والكتابات المبتورة و الأرشيفات المنسية »[1] بدل الاهتمام بالأطروحات المركزية.

أما بالنسبة لدوسارتو فهي سلطة "إنارة"[*](**aufklarug**)[2]، لأنها تتعمد إنارة جوانب وتعتيم جوانب أخرى، فهي مثل الأضواء الكاشفة في المسرح توجه عيون المتفرجين أينما تريد، وتعتم جوانب المسرح فتجعلها مظلمة وغائبة عن التفكير.

2.1.3 السلطة الخطابية (نموذجا):

يتفق الفيلسوفان على وجود روابط عديدة تجعل من المعرفة متماهية بالسلطة، و أهم تلك الروابط هي: **الجسد ،المؤسسة، والخطاب**. ولو أخذنا **الخطاب** كنموذج للتحليل لقلنا أنه يتميز – في اعتقادهما- بميزة الانفلات والانتشار، فهو يُمارس من الجميع وعلى الجميع ويتنوع على حسب مضامينه ومصادره، كما لا يمكن فصله عن النسيج الاجتماعي ومحاور الصراع، وبالتالي فهو أداة من أدوات السيطرة والتحكم.

[1] زهير الخويلدي، تشريح العقل الغربي (مقابسات فلسفية في النظر والعمل)، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2013، ص 155.

[*] يزيح "دوسارتو" مصطلح "التنوير" فيحوله من **دلالته الإيجابية** (إنارة العقل للعالم) إلى دلالته السلبية (النقدية)، أي أن الأنوار هي وسيلة توجيه العقول نحو ما يجب التفكير فيه، فلا ينبغي على الفيلسوف أن يفكر في "الهوامش"، وأن لا يبلغ نظره الظلال والآفاق المعتّمة (الجنون، الجنوح بالنسبة لفوكو/ التجربة الصوفية واليومي بالنسبة لدوسارتو).

[2] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 46.

ويتفق الفيلسوفان على أن الخطاب باعتباره معرفة هو المجال الذي تنشط فيه السلطة وتتجدد وتتقوّى ، إذ يعتقد فوكو أن الخطاب يخدم السلطة عندما يتحول إلى **أداة تحريض**للأفعال والتّمثلات، وأداة استبعاد للخطابات المخالفة، لهذا نجده دئما محاط **بالمنع ومتبوعا بترتيبات وطقوس** لما يحمله من رهان سلطوي يؤدي إلى احتكار الحقيقة. أما بالنسبة لدوسارتو فإن سلطة الخطاب اتخذت في عصر الحداثة وضعا استراتيجيا ومؤسساتيا أدى إلى طغيان سلطة المكتوب وهيمنة النصوص (القانونية والسياسية والإدارية) على حساب الموروث الشفهي، فأصبح الخطاب هو الذي يحدد معالم المجتمع لأنه هو الذي يؤرخ لهويته الثقافية ومساره السياسي، وهو الذي يصوغ قوانينه العقابية ويرسمها على الأجساد.

2.3 نقاط الاختلاف حول علاقة المعرفة بالسلطة:

يطابق "فوكو" بين المعرفة والسلطة **لدرجة أنه يلفظهما بلفظ واحد** في بعض مؤلفاته ويفصلهما بعارضة صغيرة (معرفة–سلطة) للدلالة على التماهي بينهما ، لكنه تلازم له تاريخ وميكانيزمات وآليات جد منظمة ودقيقة يمكن رصدها مع بداية ظهور "السلطة الميكروفيزيائية" و"السلطة الحيوية" بحيث أصبح الفصل بين المعرفة والسلطة أمرا غير ممكنا، فصارت السلطة لا تتحقق بدون معرفة والمعرفة لا تتحقق بدون سلطة داخل الفضاءات الانضباطية، وداخل المؤسسات الجزائية والمعاهد وغيرها، فما كان يتم فرضه بالقوة أصبح يمرر بالوسائط المعرفية للخطاب وبنظام العلامات والرموز

المشفرة، وبدل أن ينكل بالجسد ويعاقب أصبح مجالا للتطبيب وللدخل النفساني ولإجراءات الاستشفاء، ونزع الاعتراف.

وبدأ التفكير –فيما بعد– في الوسائل العلمية التي تتيح السيطرة على السكان دون قمعهم، فاستحدثت حيل وترتيبات تمكن من التحكم في الأحياء بإدارة أنشطتهم البيولوجية: كالولادات والأمراض، وتصنيف الأعراق وإحصاء السكان .

لكن دوسارتو لا ينظر إلى العلاقة بهذا التماهي المفرط، فهو يعتقد أن العلاقة بين المعرفة والسلطة هي **علاقة عكسية**، فكلما زادت السلطة ظهورا انسحبت المعرفة وتوارت، فهما أشبه بكفتي ميزان إذا صعدت كفة نزلت الأخرى، فعند: "**الخبير" مثلا تختفي سلطته إذا زادت معرفته**، لكن سلطته لا تنعدم، وإنما تُغلّف وتُلفّ في قالب معرفي بحكم أن الخبير يقدم نفسه للمجتمع على أنه عارف متخصص، أما بالنسبة للأستاذ الجامعي الذي تم تعيينه كوزير في نظام سياسي فسيحدث معه العكس، **ستتعاظم سلطته وتتروى معرفته**، والمعرفة هنا لا تنعدم بل تستعمل كوسيلة داعمة للحكم واتخاذ القرارات الاستراتيجية، لأن الوزير يتوجه إلى الناس ليس باعتباره عارفا مثل الخبير، بل بوصفه حاكما ومسؤولا.

محصّلة المبحث:

لقد بينا إلى أي حد يتفق الفيلسوفان على عدم وجود تصور كوني مشترك لمفهوم المعرفة والسلطة لأنهما لا يُفهمان إلا في سياقهما التاريخي المحلي نظرا لارتباطهما بالأحداث الاجتماعية تدفع إلى تحريكهما، (لهذا فكل مجتمع سلطه الخاصة ومعارفه الخاص) وبمتغيرات اقتصادية وشروط مادية تحدد إنتاجيتهما، وبالتالي فإن المعرفة والسلطة نشاطان متلازمان تمام التلازم.

لكن يبقى الاختلاف بين الفيلسوفين في كون أن فوكو يقول بالتماهي المطلق بينهما، فأينما وجدت سلطة كانت المعرفة مُتضمنَة فيها، أما دوسارتو بيقر بوجود علاقة عكسية بينهما أي كلما زادت السلطة توارت المعرفة والعكس صحيح.

المبحث الثاني للفصل الثالث:

مقاربات نقدية لمفهوم السلطة والمعرفة عند ميشال فوكو

تمهيد:

1.نقد مفهوم المعرفة عند ميشال فوكو:

1.1 وقفة عند المنهج:

2.1 مقاربات نقدية واعتراضات حول المنهج في المعرفة:

1.2.1.نقد ميشال دوسارتو.

2.2.1 نقد فلاسفة آخرون.

2. نقد مفهوم السلطة عند ميشال فوكو:

1.2 وقفة عند منهج فوكو في السلطة:

2.2 مقاربات نقدية واعتراضات حول المنهج في السلطة:

1.2.2 نقد دوسارتو لفكرة عمومية السلطة عند فوكو:

2.2.2 انتقادات فلاسفة آخرين.

مُحصّلة المبحث.

تمهيد:

انشغل "فوكو" طوال حياته بتحليل ظاهرة السلطة، إذ حاول من خلال مؤلفاته أن يفكك ارتباطاتها ويكشف تحولاتها التاريخية وأنماط ممارساتها، وذلك من خلال فحص ثلاث تجارب محورية في الثقافة الغربية وهي: **تجربة الجنون، تجربة الجنوح، وتجربة الجنسانية.** وهي تجارب تلازمت فيها-كما بيّنا- الممارسات المعرفية والسلطوية.

لم يخفي "دوسارتو" إعجابه بما تتصف به أعمال فوكو من جدّية في البحث، وعمق في التحليل، ومهارة في توظيف المناهج والمصطلحات، لكنه في نفس الوقت اشتغل على نقد أطروحاته وفحص منهجه بعناية ، وقد خصص لذلك فصولا من مؤلفاته وقف من خلالها عند الجوانب التي تستوجب المراجعة والنقد، خصوصا ما تعلق بفكرة فوكو حول "شمولية السلطة" وعلاقتها بالأفراد والحقول المعرفية. إذن: هل يصح- في تصور دوسارتو- افتراض فوكو الذي يقضي بوصف السلطة بصفة "الشمول" للحد الذي يجعل الأفراد غير قادرين على الانعتاق من مفاعيلها؟ أليس لهؤلاء الأفراد الألاعيب والحيل اللازمة التي تمكنهم من المناورة والتلاعب بهياكل السلطة، وتحريف المقاصد والغايات المفروضة؟ ألا توحي هذه الممارسات بوجود "سلط مجهرية" ذات سمة "تكتيكية" تنشط داخل الاستراتيجيات؟ .

1. نقد مفهوم المعرفة عند ميشال فوكو :

1.1 وقفة عند منهج:

اصطنع "دوسارتو" لنفسه منهجا خاصا سماه المنهج "الأركيولوجيا"[*](**archéologie**) وقد استعمل هذا اللفظ لعنونة بعض كتبه بعناوين فرعية، مثل "ميلاد العيادة" (أركيولوجيا النظرة الطبية) سنة 1963، "الكلمات والأشياء" (أركيولوجيا العلوم الإنسانية) سنة 1966، وأخيرا "أركيولوجيا المعرفة" و هو كتاب منهجي حرره سنة 1969.

يميز "فوكو" بين منهجه الأركيولوجي ومنهج المؤرخين ; فمنهج المؤرخ « يتوجه إلى الوثائق ليفسر مضامينها ويبحث في قصدية مؤلفها، ويتوجه أيضا لدراسة الفاعل التاريخي(الشخصيات) وأثره على الوقائع والأحداث »[1] ، لكن "الأركيولوجيا" تختلف عن منهج المؤرخين في كونها **أسلوب خاص في استقصاء الأحداث ومواضيع المعرفة، تمكّن** صاحبها من **ردّ الوحدة النّسقية لمعرفة ما إلى "شتات الخطابات"** (multiplicité du discours) وأنماط الممارسات الّتي كانت دافعة لتلك المعرفة نحو **التّأسيس.** ويحصر "فوكو" سؤال "الأركيولوجيا" في كتابه "الكلمات والأشياء" فيقول:« من أي

---

* الجدير بالملاحظة أن "فوكو" لا يعير اهتماما لجذر الكلمة (arche) والتي تعني "الأصل" أو "البدايات"، وإنما يوظف المصطلح للدلالة **على الكيفية التي يُحوَّلُ فيها الخطاب إلى "أثر ميّت"** (monument)، **بحيث ندرسه وكأنه معطى بدون أصل، أي أن نجرده من أي صفة تحيله إلى ذات مُؤَسِّسَة.** وتبحث "الأركيولوجيا" عن أشكال الانقطاع بدل البحث في أشكال الاستمرارية وترصد تحولات "الإبستيمي"، كما تقوم بسرد " تواريخ صغيره" (des histoires mineures) داخل التاريخ الكبير لعصر الحداثة.

[1] Jean- François Bert et Jérôme Lamy, *Michel Foucault, un héritage critique*, CNRB EDITIONS, Paris, 2014, p 70.

منطلق صارت المعارف والنظريات ممكنة؟ وفق أي فضاء منتظم، وفي عمق أي "قبلي تاريخي" تشكلت المعرفة؟ » [1] .

كما أنها منهج يستوجب **التّجرد من كل ما له صلة بالذّات، والتّعامل مع "الخطاب" وكأنه "ذرات عبارات مبعثرة" لا أصل لها،** وأن تراكُم هذه العبارات وانتظامها يشكّل خطابا يتفاعل ويتأثّر بقوى ضغط خارجية تحدّدها مجالات غير خطابية، كالسياسة والاقتصاد والوضع الاجتماعي والمؤسسات. ومن أمثلة تطبيق فوكو للمنهج الأركيولوجي هو استقصاؤه "لتاريخ طب الأمراض العقلية" الذي تشكل بفعل تأثير خطابات سياسية وقضائية وممارسات اجتماعية تمثلت في تجربة اقصاء المجانين والجذاميين. كما يستوجب أيضا الإعراض عن السرديات الكبرى، والبحث في الخطابات الهامشية كأرشيفات السجون، وملاحظات الأطباء، والنصوص القانونية المنسيّة، مما يتيح فضح التواطؤات الخفية لسلطة المركز (العقلانية) وتعرية ما هو مسكوت عنه في سياق الثقافة الغربية[*]

[1] Michel Foucault, *Les mots et les choses*, (une archéologie des sciences humaines), éditions Gallimard 1966, Paris, p13.

[*] جاءت "الأركيولوجيا" بالنسبة لفوكو كخيار منهجي يجنبه الوقوع في "فخ الترنستندالية"، فقد أعرض منذ البداية عن الخوض في سؤال المعنى والغاية بوصفهما منطلقا لكل تفكير ميتافيزيقي، وبعد سجال نقدى اهتدى إلى كتابة تاريخ مغاير لفئات مهمشة منتقدا بذلك أوهام "التاريخ المُشيّد" الذي سعت الفلسفات العقلانية لإرسائه، لكن خصوم فوكو أبدوا استغرابهم من إغفاله للعلوم والنظريات السائدة، واشتغاله على "أشباه علوم" و"معارف ناشئة"، لكن يبدو أن القصد من الاشتغال على هذه الهوامش هو فك مركزية المعرفة السائدة، وفحص العقلانية وتفكيكها انطلاقا مما يناقضها، فالجنون والجنس والرغبة هي العوالم التي قرأ بها فوكو جذور العقلانية الحديثة.

في مواضع أخرى نلتمس تأثير منهج "إيمانويل كانط" (Emmanuel Kant) الذي اهتدى بفضله "فوكو" إلى أكبر المفارقات الفلسفية التي تتعلق بالإنسان وهي: كيف صار الإنسان موضوع تجريب وذات مُجرِّبة في الآن نفسه؟[*]، ومن خلال هذا السؤال حاول تفكيك مفهوم "الذات الكانطية" استعانة بمفاهيم "نيتشه"، وإن كان يشترك مع "كانط" في البحث عن "الإمكان القبلي للمعرفة " (l'apriori historique du savoir)، مع تعليق الأحكام المتداولة والمعارف السائدة، إلا أنه يختلف عنه في كون "كانط" يبحث عن "الإمكان القبلي" في "العقل الخالص" (raison pure)،أما فوكو فقد بحث عنه في"خارجية الفكر" (extériorité) وليس داخله، أي في "الخطابات" و"الممارسات"، لأن "الترنستندالي" (transcendantal) عند "فوكو"- كما يقول "جون ميشال"- (Johan Michel): « لا يتموضع داخل الذّات[...] وإنّما في البُنى الخفية المشكِّلة للخطاب والممارسات » [(1)] أو بمعنى أدق، يحبث "فوكو" عن المعرفة « في الخطاب ذاته بوصفه ممارسات تخضع لقواعد » [(2)] وليس في مضامين النصوص ومعانيها ومقاصد مؤلفيها.

---

[*] Le paradoxe*« **homo empirico- transcendantal** »* selon le concept kantien.

[1] Johan Michel, *La fabrique des sciences sociales d'Auguste Comte à Michel Foucault*, Presses Universitaires de France, 2018, Paris, p 160.

[2] Annie Guèdez, *Foucaul*t, Psychothèque (1972), p56.

والجدير بالملاحظة أن فوكو لا يوافق "الفينومينولوجيين" في إقرارهم بنفوذ الوعي في الظواهر، لكنه يستفيد من أطروحاتهم التي تدعوا إلى الالتفات إلى دراسة **"التجارب الحية"** و الظواهر المعيشية التي تتهيأ للفكر نقية خالصة من كل تدخل علمي، لهذا يعتبر فوكو أن: « **فينومينولوجيا ميرلوبونتي تبدو وكأنها أسلوب من أساليب الأركيولوجيا**»[1].

استفاد فوكو من الفينومينولوجيا في تحليل "الممارسات" أو ما يسميه "دولوز" "المرئيات" (visibilité)، فقد حاول أن يقرأ مختلف "العلامات" التي تنبعث من مجال "الرؤية"، "فالسجن" مثلا عند "فوكو" ليس مجرد مكان حسّي للاعتقال، بل هو فضاء معقد له تاريخه و ميكانيزماته التي تمكن من "تذويت" النفوس وإعادة إنتاج الأجساد، إنه فضاء مُثقل بالرمزية التي تتجاوز نظرة العين الحسية البسيطة، وقد أبدى إعجابه منذ كتاباته المبكرة بالنظرة "الفينومينولوجية" "للإضطرابات العقلية" (désordres psychiatrique) فهي في نظر الفينومينولوجيين « **ليست مجرد أعراض لأمراض، بل شكل من أشكال تجلي الذات في العالم** » [2].

[1] Jean- François Bert et Jérôme Lamy, *Michel Foucault un héritage critique*, op.cit, 34.
[2] Stephan Leclercq, *Abécédaire de Michel Foucaul*t, op.cit, p129.

لقد كان يطمح فوكو إلى كتابة "تاريخ نقدي للفكر" (histoire critique de pensée) يحاول من خلاله أن يفهم إلى أي حد يؤثر التاريخ في "اللحظة الراهنة" (l'actualité)، وهو يتساءل عن امتداد الماضي في الحاضر قائلا: « كل هذه الحوادث يبدو لي أننا نكررها، نكررها في راهننا[...]وأنا أحاول أن أفهم الحدث الذي يستمر أكثر في اختراقنا » [1]، وعليه فإن "الأركيولوجيا" لا تكتب تاريخا تقليديا يكرر أحداث الماضي، بقدر ما تهدف لمساءلة انتمائنا للحاضر من خلال تفكيك الماضي و الاشتغال النقدي على تاريخ أفكارنا، وفهم الصورة التي تشكلت بها خطاباتنا، مما يتيح تشخيص مشكلات الحاضر، و "الأركيولوجيا" قد تُعرّف وفق هذا الطرح على أنّها « **تشخيص امتداد التاريخ لحاضرنا** » [2].

إن الفيلسوف وفق ما يرجحه فوكو يؤدي مهمة "الأركيولوجي" الذي يحفر في الأنساق المعرفية ليبلغ شروط إمكانها، وهو "**مُشخِّص**" (**diagnosticien**) لمشكلات الحاضر، لينتهي في الأخير إلى تبيان إلى أي مدى يخضع تاريخ أفكارنا **إلى مبدأي التباين والاختلاف** ، إنه تاريخ زاخر بالتصدعات والانزلاقات والصدف والتحولات.

[1] Michel Foucault, *Dits et écrits*, Gallimard, 1994, vol3 texte n 233.
[2] Judith Revel, *vocabulaire de Michel Foucault*, op.cit, p5.

إن تاريخ المعرفة عند "فوكو" هو تاريخ إعادة رسم مسارات الذات فيخضم صراعات السلطة، إنه تاريخ يشخّص إلى أي مدى قامت معارفنا على أنقاض تطويع النفوس وترويض الأجساد، وهو تاريخ يطلق عليه فوكو مصطلح "التذويت" (subjectivité): يعني أن "الذات" تتشكل وقف ممارساتها وتتغير كلما تغيرت الممارسات من حولها [*]، ويستشهد بالإغريق القدماء في أحدى محاضراته في "كوليج دو فرانس"[1] ليبين أن "الجنسانية" عند الإغريق لم تكن بالنسبة لهم مفهوما مجردا، وإنما كانت شكلا من أشكال ممارسة المتع (aphrodisia) .

2.1 مقاربات نقدية واعتراضات حول منهج فوكو في المعرفة :

1.2.1 نقد ميشال دوسارتو:

يناقش "دوسارتو" منهج "فوكو" من منطلق ثابت مفاده أن كل نظرية ترتد في أصلها إلى ممارسات، وعليه يستحيل أن نفصل بين النظري والعملي في أي نشاط معرفي، وانتهى به الأمر بالتساؤل عن : الكيفية التي مكنت فوكو من تكوين نظرية حول الممارسات؟

[*] « au cours de leur histoire, **les hommes n'ont jamais cessé de se construire eux-mêmes**, c'est à dire de **déplacer continuellement leur subjectivité**, de se constituer dans une série infinie et multiple de subjectivités différentes et qui n'auront jamais de fin et nous placerons jamais face à quelque chose qui serait l'homme » Judith Revel, *vocabulaire de Michel Foucault*, op.cit, p 63.

[1] Michel Foucault ,*Subjectivité et vérité. Cours au Collège de France.1981-1980.*

يتميز منهج فوكو -وفق قراءة دوسارتو- بإجراءين أو أسلوبين : الأول هو أسلوب "**التقسيم**": (découper) وهو أن يختار المفكر أو الباحث عينة بغرض دراستها تمثل مجالا محصورا من الممارسات، لكنها ممارسات تقع في هوامش الأطروحات المركزية التي تسود الثقافة الغربية، والمفكر هو من يخرجها من الظل ويسلط الأضواء عليها بغرض نقد تلك الأطروحات المركزية، « إذ لابد على الجزء أن يمثل كل الممارسات، الكل بوصفه غير المحدد » [1].

الأسلوب الثاني: هو "**الالتفاف" أو "الانقلاب**"[*] (**retourner**) ويقصد به دوسارتو أن فوكو بعد أن يحلل عينة الممارسات التي يدرسها (مجانين، جانحين)، يقوم باستعمال تلك الدراسة لنقد المجتمع المعاصر والأوضاع السائدة، وهو أسلوب **ينتقل فيه صاحبه من قراءة الجزء إلى نقد الكل (أي الثقافة برمتها)**، وهذا ما تجسد في كتابات فوكو، حيث سلط الضوء على الممارسات الطبية اتجاه المجانين والممارسات الانضباطية اتجاه الجانين، لينتقد ما كانت تدعيه الحضارة الغربية من رقي وتجسيد لحقوق الانسان. « بالنسبة لفوكو تصبح إجراءات المراقبة المدرسية أو العسكرية أو

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 135.

[*] هو المصطلح الذي يشير به دوسارتو إلى المنهج المرآوي لفوكو الذي يقتضي تركيز البحث على عينه هامشية (مجانين ، جانحين..) ثم التمعن في تمثلات المجتمع اتجاهها (قبولها، رفضها، اقصاؤها...) وبعدها تُعكس القراءة كما تعكس المرآة الصور ، فيصبح فوكو قارئا للمجتمع ناقدا له من خلال تلك العينة التي درسها، فهو يشكل خطابا حول المجتمع انطلاقا من الهوامش التي يقصيها والفئات التي يضطهدها.

الاستشفائية [...] الباعث الذي يتضح بموجبه نسق مجتمعنا المعاصر وأيضا نموذج العلوم الانسانية»[1] .

يتصور "دوسارتو" أن فوكو قد مارس نوعا من **"التعتيم المنهجي" على قرائه،** فهو في اللحظة التي يعالج فيها موضوعاته يتعمد إخفاء مرجعياته الفكرية ومقولاته لكي ينفلت من النقد، وحتى عندما كان يسأل أسئلة مباشرة حول هويته أو مسار اشتغاله، كان يجيب بطريقة لا تخول من المراوغة والانفلات، مما جعله فيلسوفا عصيا على التصنيف عند أغلب القراء، مادام هو نفسه لا يقر بأي انتماء فكري، ولا يدين بأي عقيدة فلسفية ثابتة.

وعلى هذا الأساس وصفه "دوسارتو" بالفيلسوف **"المتلون"** (تلوينات فوكو) **الذي يجيد التواري،** فهو يريد أن يكون **ناظرا غير منظور، ناقدا لقضايا المجتمع بعين متخفية،** إذ أن نصوصه وخطاباته « تنظمها نفس السياقات البانوبسية التي يسعى للكشف عنها » [2].

وجاهة النقد عند "دوسارتو" هو أن نرد نظريات فوكو إلى السياقات والممارسات المنهجية التي أنتجتها، ليتبين لنا أن فلسفته هي في حد ذاتها من طبيعة سلطوية (بانوبسية) مادام صاحبها يتعمّد إخفاء الأرضية المنهجية التي استند عليها، ويتبنى فقط « سلطة القبض على صيرورة المجتمع في لحظة

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 135.
[2] ميشال دوسارتو، التاريخ والتحليل النفسي بين العلم والخيال، المصدر السابق، ص 186.

نظرية تتناسى شروط إنتاجها وحيثيات فبركتها»[1]. لهذا يبدو أن فوكو يوجه الأنظار إلى أطروحاته وكأنها قضايا مستقلة عن ذاته، في حين أن "دوسارتو" لا يضع حدودا فاصلة بين الذات العارفة وموضوع المعرفة، وعليه فإن فوكو كفيلسوف يتعمّد التّلون والتماهي بموضوعاته ليحجب منهجه وطرائق اشتغاله، لأن الذات العارفة « تمارس نوعا من الحجب عندما تخفي شروط إنتاجها لنظرية حول موضوع » [2].

لقد كان فوكو **"استراتيجيا"** في أسلوب بحثه الذي توخى فيه تقسيم الحقب التاريخية، واختيار المواضيع بعناية وتحقيق النصوص ومراجعة الخطابات، لكنه من جهة أخرى كان **"تكتيكيا"** في التلاعب بالمفاهيم الفلسفية وتوظيفها بمهارة، وفي أسلوب كتابته البلاغية التي يعيد بها تصوير الوقائع والحقائق المنسية بشكل أدبي روائي.

[1] محمد شوقي الزين، ميشال دوسارتو، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات، المرجع السابق، ص162.
[2] محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المرجع السابق، ص 348.

2.2.1 نقد فلاسفة آخرون:

بعد إخراج كتاب "الكلمات والأشياء"، وصف بعض النّقاد "ميشال فوكو" **بالفيلسوف المُقنَّعِ والمُرَاوِغ** « غير القادر على الإدلاء بأي نص أساسي مُعترف بأهميته، ولا يستشهد بأي من الفلاسفة الكبار » [1]. وقد أبدى بعضهم أيضا اعتراضهم على المنهج "الأركيولوجي" لأنه يقسم الحقب التاريخية بشكل تعسفي **ويخلو من الموضوعية العلمية**، وهو يؤدي في النهاية إلى « [...]تشويه الآثار التاريخية لعصر النهضة » [2]، فتاريخ فوكو في رأيهم **تاريخ وهمي** يقفز على الأحداث والوقائع.

ولقد اتهموه بالتعتيم المنهجي، وتعمّد اللّعب بالمفاهيم ليضع نفسه بمنأى عن أي نقد، وقد سُئل بخصوص إقصائه "للذات" وقفزه على كل ما له صلة بالإنسان فقيل له: « كيف لمشروعك أن يؤكد صلاحيته ضد هوس البحث عن الأصل واللجوء ضرورة إلى الذات المؤسسة » [3].

[1] جيل دولوز، فوكو (المعرفة والسلطة)، ترجمة: سالم يفوت،المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى 1987، بيروت(لبنان)، ص 07.

[2] *Pensées rebelles* (Foucault-Derrida-Deleuze), op.cit, p68.

[3] ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المصدر السابق، ص181.

انتقد "ريتشارد روتي" (Richard Rorty 1931-2007) تهميش فوكو "للابستيملويوجيا"، لأن "الأركيولوجيا" في رأيه « حاولت بشكل خاطئ أن تعوض الأبستمولوجيا وتحتل مكانها » [1].كما أنكر عليه وجود أي نظرية معرفية تتضمنها فلسفته، لأنّ كل ما أبانه في رأي "روتي" « لا يزيد عن تكرار "لوصفيات لماعة للماضي" (descriptions brillantes du passée)، وصفيات ثرية بالنصائح حول كيفية تجنّب الوقوع في أفخاخ المبادئ القديمة لسرديات التاريخ » [2]. إن ما قدمه "فوكو" في مجال المعرفة في رأي "روتي" هي مجرد محاذير و « مبادئ في غاية السّلبية، لا تشكل أيّ منهج، ولا ترتكز على أيّ نظرية » [3].

ويعتقد "دافيد كوزان هوي" (David Couzens Hoy) صاحب مقدمة كتاب "فوكو دراسات نقدية" أن "روتي" يعتبر أن مبادئ "الجينيالوجيا و "الأركيولوجيا" التي وظّفها "فوكو" في قراءته لمفهوم المعرفة تطرح **مقاربات هدّامة** تستكين إلى السّلبية و تخلو من أي بديل، فهي مناهج بقدر ما انتقدت "دوغمائية المؤرخين" بقدر ما وقعت هي الأخرى في ممارسة الدوغمائية، **فهي تفرض على المؤرخين عدم النظر في المسار الخطي للتاريخ، وتدعوا بشكل راديكالي لرفض كل أشكال العقلانية**، ضف إلى ذلك أن "الأركيولوجيا" تنفي حرية "الذات" وتورّطها في معادلات البنية، وتنفي عنها أي إمكانية

[1] David Couzens Hoy, *Michel Foucault (lectures critiques)* collection dirigée par : Daniel Giovannan geli, traduit de L'anglais : Jacques Colson, Edition le points philosophique, (introduction : David Couzens Hoy), Bruxelles, 1989, p14.
[2] ibid, p62.
[3] Ibid.

للانعتاق. ويعتقد "دافيد كوزان" أيضا أن "الأركيولوجيا": « أنتجت لنا خطابا صالحا لفترة محددة لكن اتضح أنها تنفي وجود أي حقيقة أصيلة » [1]. ويتفق كل من "روتي" و"هايكنغ"و "تايلور" (taylor) على تثمين مجهودات "فوكو" في محاولة طرح نظرية للمعرفة إلاّ أنه « لم ينجح – في اعتقادهم- في حسم مفارقة مفهومه للحقيقة » [2]، وقد انحصر اهتمام "الأركيولوجيا" في الحاضر فقط، لذا فهي« تفتقر إلى تحليل نماذج الفكر المستقبلية والكيفية التي تمكننا من فهمها » [3].

كما وصف "يورغن هبرماس" (Jürgen Habermas 1929) أيضا موقف "فوكو" من "الحداثة" **بالموقف "العدمي"**، لأن قراءته افتقرت إلى التبصّر والتأني، وفكره لم يتحرر من التأثير الإيديولوجي.

وقد تساءل حول ما إذا كانت أبحاثه تنتمي إلى دراسات "ما بعد الحداثة" (postmodernité) أو لدراسات "ما قبل الحداثة" (prémodernité) ليخلص في الأخير إلى تصنيف "فوكو" ضمن "المناهضين للحداثة" (Antimoderniste): « **لأن أفكاره المتطرفة تحتوي على أثار رجعية** » [4]. وانتهى "هبرمارس" إلى القول بأن مشروع نقد فوكو للحداثة «كان مشروعا فاشلا، فقد وقع في التيهان كونه "معياري متخفي" (crypto-normativiste) ولاعقلاني (irrationaliste) » [5].

---

[1] David Couzens Hoy, *Michel Foucault (lectures critiques)*, op.cit, p18.
[2] ibid,18.
[3] ibid.
[4] Ibid,p20.
[5] Ibid, p19.

2. نقد مفهوم السلطة عند ميشال فوكو

1.2 وقفة عند منهج فوكو في السلطة:

لا ينكر ناكر أن فوكو حلل السلطة تحليلا متقنا وجادّا قلما نجد له نظيرا في الأوساط الفلسفية ووجه الجدية يكمن في كونه قضى حياته بأكملها يفك شباك السلطة، ويتتبع خيوطها، ويبحث في منابعها.

ومن مخرجات قراءاته تقويضه لتصور "النزعة الانسانية" الذي يدعوا لقيام مجتمع متماسك يتحقق فيه السلام ويخضع فيه الناس لقيم المواطنة والقانون، في حين أن المجتمع كما يراه فوكو هو ساحة صراع لأنه يحتوى على كل أشكال الإقصاء والقمع والإبادة، ولا يمكن لمجتمع أن يحيا إلا إذا تخللته النزاعات وليس الحديث هنا حصرا على صراع القوى السياسية أو الاجتماعية.

ليس "لميشال فوكو" منهج واضح وصريح في تحليلاته لمفهوم السلطة، **فهو يستند أساسا على مرجعيات منهجية متعددة ومتنوعة لفلاسفة مختلفين**، ثم يدمج تلك المناهج ويستعملها استعمالا متباينا على حسب سياقات تحليلاته.

يسهل على القارئ أن يلاحظ أثر "المرجعية النيتشوية" في كتابات فوكو حول السلطة، خصوصا في استعماله لمصطلح "الجينالوجيا" [*] (généalogie) الذي يعني: بأن البحث عن طبيعة الأخلاق والقيم لا يتم من خلال ردها لحقائق مثالية (أفلاطون)، بل لابد أن تبرر بردها "للوقائع الحية المعاشة"، و لابد من البحث عن أصول تلك القيم في "الصراعات الحادة" (luttes fielleuses)، وفي "الخصومات الصغيرة" (brutalités mineurs)، و"الإرادات المتنازعة" على شكل معارك غير منتهية.

إن مهمة "فوكو" بوصفه "جينيالوجيا" هي « هدم الأخذ بالأصول والحقائق الراسخة، وتحطيم المذاهب التي تتبنى فكرة البحث في الغايات وتطور الفكر » [1]، وبمجرد أن تتحطم أصنام الفكر النسقي المثالي يتبدى كل شيء جليا في نظر "الجينيالوجي"، **فلن يرى بعد ذلك إلا الواقع الحي وهو مفعم بأشكال السيطرة والخضوع والصراع، وسيتوقف عن البحث في الأسئلة المعيارية لينخرط في تحليل استراتيجيات الهيمنة.**

---

*الجينيالوجيا: كما يصورها نيتشه: هي أسلوب تفكير لا يخوض في البحث في بواطن النصوص (التأويل)، ولا يجيب عن أسئلة المعنى والقيمة، ولا يطرح هاجس النظر في الغايات البعيدة، وإنما يختص في البحث في **الأحداث المعزولة والظاهرة،والانقاطاعات المفاجئة لأنظمة الفكر، ويولي عناية خاصة للتفاصيل الصغيرة، والتحولات المفاجئة، ويرصد الحدود والهوامش المغيبة**، فهو المنهج الذي يكشف لصاحبه تاريخ الأوهام (erreurs) والأكاذيب (mensonges) والإكراهات (arbitraire)، وقد استعار فوكو من نيتشه ضرورة توجيه اشتغال المؤرخ نحو "تاريخ النوادر" (la rareté des évènements)، وهو ما جسده في سرد تاريخ الجنون، والجسد، والسلطة و الجنسانية. لقد قال "نيتشه" أن: **الفلاسفة يفتقرون للحس التاريخي (الجينيالوجيا)**، وهو ما استوعبه "فوكو" وعمل على تطبيقه، **إنه الحس التاريخي الذي يمكّن الفيلسوف من التغلغل في التفاصيل الدقيقة للتاريخ، والتفكير في تناقضاته وصراعاته وانقلاباته دون ردها لوحدة كلية أو بنية متناسقة.**

[1] Hubert Dreyfus et Paul Rabinow, *Michel Foucault un parcours philosophique*, op.cit, p161 .

لا يبحث " الجينيالوجي" في السلطة بوصفها سلطة (بالمنظور السياسي)، بل يبحث فيها بوصفها منتوجا أو أثرا يترتب عن صراع قوى، وأشكال هيمنة تطفوا على سطح الأحداث التاريخية في حقب يتم رصدها بعناية.

نلاحظ أيضا حضورا لافتا للمنهج الماركسي، فلن تجد فقرة يتحدث فيها فوكو عن السلطة إلا وكانت المفاهيم الماركسية حاضرة إما بشكل ضمني أو صريح، ومن دلائل حضور النزعة الماركسية هو **تفسيره لتغير علاقات القوى بردها لتغيرات الأوضاع المادية و الاقتصادية والسياسية،** والعلاقة هنا **بين الأوضاع المادية والسلطة** ليست علاقة سبب بنتيجة وإنما– وهو ما يحيلنا إلى المنهج الثالث– **علاقة بنى، يعني أن بنية السلطة مرهونة ببنية اقتصادية ومادية، وهو ما يثبت أثر "المنهج البنيوي"** (structuralisme) **في تفكير ميشال فوكو.**

أما المنهج الرابع فهو المنهج **"السيميولوجي"** (sémiologie) الذي كثف فوكو من استعماله في كتابه "المراقبة والعقاب"، إذ بيّن من خلاله الحالة التي انسحبت فيها السلطة من طابعها المشخص والمرئي (كالانتقام السياسي في ساحات الإعدام بحضور الجماهير) إلى طابعها الرمزي المشفّر، حيث تحولت السلطة لنظام خطاب وإشارات يستهدف التّمثلات أكثر من استهدافها التنكيل بالأجساد.

2.2 مقاربات نقدية واعتراضات على المنهج في السلطة:

1.2.2 نقد دوسارتو لفكرة عمومية السلطة:

يتصور "دوسارتو" أن "فوكو" قرأ السلطة في منعرجين حاسمين: في **صورتها القمعية الكلاسيكية** ممثلة في الأجهزة العلنية (قضاء، شرطة...)، حيث كانت تعكس هيمنة الملك السياسية، وفي **صورتها المكيروفيزيائية الحديثة** حيث اتخذت شكلا انضباطيا وتأديبيا، وصارت معممة على الكيان الاجتماعي بأكمله، ومن المنعرج الثاني كشف فوكو- وفق ما يراه دوسارتو- على حيوية السلطة وديناميكيتها يقول دوسارتو: « يحاول فوكو الكشف عن حيوية السلطة المبهمة بمتابعة إنشاء "أداتية صغرى" (instrumentalité mineure)، وتكثيرها الغالب، سلطة تفتقر إلى من يملكها أو مكان مميز يحتضنها وتشتغل دون قرارات عليا أو مرؤوسين ودون قمع أو دوغمائية، **ولكنها سلطة فعالة بشكل تلقائي أو مستقل بقدرتها التكنولوجية على توزيع وتحليل وتفريد الموضوع المعالج داخل فضاء محصور** » [1].

إذا كان "دوسارتو" يتفق مع فوكو في الإقرار بالطابع الاستراتيجي للسلطة (أي شموليتها وقدرتها على الهيمنة)، إلا أنه يؤاخذه فيما **وقع فيه من تعميم لأساليب الانضباط** بلغ به حدا لا يدع أي إمكانية لانعتاق أو تحرر الأفراد، وكأن السلطة حتمية مطلقة تسري على الجميع.

كما أنه جرد السلطة من أي أثر إنساني، إذ لا صلة لها بإرادة الأفراد ومقاصدهم على الرغم أنها تحل فيهم وتخترقهم، فما تبرير هذا الاستبعاد المتطرف لكل ما له صلة بالذات ؟ .

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 109.

إن وسم السلطة "بالتقنية البحتة"(technologie pure) أوقع فوكو في مفارقة منهجية لأنه أضفى عليها-بتلك الصفة- الطابع المجرّد، فلا نعلم بالتحديد ما هو مصدرها، هل هو مصدر إنساني (الفاعل الاجتماعي) وهو المصدر الذي يرفضه فوكو؟، أم المصدر غير الإنساني (البنى والعلائق)؟. **ألا يوقعنا الخيار الثاني في مقاربة ميتافيزيقية للسلطة** ؟. إذا كانت السلطة علاقات قوى، فمن هو محركها إن لم يكن الفاعل الاجتماعي؟.

يمتلك الفاعل الاجتماعي ما يسميه "دوسارتو" **"أساليب الفعل"**(*) وهي و**"تكتيكات استعمال"** تمكنه من الانفلات والتلاعب بالهيمنة المفروضة عليه، ويتحول بموجبها من كائن خاضع للهيمنة إلى فاعل ومؤثر من خلال تحقيق المقاصد والغايات الخاصة في الجسد الاستراتيجي، حتى وإن كان التربيع والانضباط مفروضين على الأفراد فما هو جدير بالتساؤل عند "دوسارتو" هو: « البحث عن تلك الإجراءات الشعبية (المصغرة واليومية) التي تتصرف بآليات الانضباط، والتي لا تخضع لها سوى لقلبها »[(1)].

في مقابل الأمكنة السلطوية المشيدة وإجراءات الانضباط، هنالك ما قد نسميه " **التكتيكات الميكروفيزيائية"** (**tactiques microphysique**)، وهي الحيل والألاعيب النشطة التي يقوم بها

* "أساليب الفعل" يحكمها منطق عام يسميه دوسارتو "الشكلية" (formalité)، وهو منطق ينزع عن تلك الممارسات صفة العشوائية والتلقائية.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 25.

المنضبطون ليس للتحرر من إكراهات المكان وحسب، وإنما للمناورة وتحقيق الغايات الخاصة داخل الانضباط ذاته.

ويدعو "دوسارتو" علماء الاجتماع إلى ضرورة الالتفات **"للتكتيكات الميكرو–فيزيائية"** ودراستها بنفس القدر الذي تُدرس به السلطة الاستراتيجية، لأنها الممارسات الأكثر تهميشا في الثقافة الغربية على الرغم من محاولات بعض الكتاب تسليط الضوء عليها أمثال "فرويد" الذي حاول أن يكون لها الوريث الشرعي في اكتشافه للنشاط اللاواعي. يقول دوسارتو :« يبقى التساؤل حول مصير الإجراءات المتناهية في الصغر التي لم يكن لها الامتياز أو الأولية في التاريخ[...] إنها التكتيكات التي افترضت أنها تمنح السمة الصورية للممارسات العادية في الاستهلاك»[1].

ونشهد تلك الأفعال في **سلوك السجناء الذين يصنعون أسلحة بأغراض بسيطة ويبدعون أساليب الإخفاء، ويبتكرون وسائط اتصال فيما بينهم عن طريق الوشم أو كلمات مشفرة**، وقد يصل بهم الأمر **لتمرير المخذرات ورشوة الحراس واتخاذهم كعملاء ومخبرين**، ولو قسنا ذلك على المجتمع لوجدنا أن الدولة – مثل إدراة السجن–تمثل الجانب الاستراتيجي بما تملكه من ترسانة القانونية والأمنية فهي تسير الشأن العام، لكن في المقابل يوجد ما يسمى في العرف السياسي " **بالدولة العميقة"** التي تمثلها العلاقات الاجتماعية السفلى: **كالجمعيات والنقابات والأحزاب والأوليغارشيات**، وتشمل "**الدولة العميق"ة** أيضا **التحالفات الخفية، والصفقات غير الرسمية** التي تؤثر بشكل متوار وغير مباشر

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص ص113-114.

في القرارات السياسية الرسمية، وبالتالي **فحركية الدولة العميقة هي بمثابة تكتيكات تؤثر في الصرح الاستراتيجي للدولة الرسمية.**

2.2.2انتقادات فلاسفة آخرون

إن مقاربة فوكو للسلطة – في رأي بعض النقاد – ساقته إلى حالة من **"الانسداد النظري"** (**impasse théorique**)[1]،لأنه انتهى في الأخير إلى تصوير السلطة ككيان مجرد وكهيمنة شاملة. لهذا يتساءل "إيدوارد سعيد" لماذا يصوّر لنا "ميشال فوكو" السلطة وكأنها **قوة منفلتة وجامحة**[2]خارجة عن طاقتنا ومجال تحكمنا، وكأننا غير قادرين –**كمثقفين**– على مقاومتها أو حتى امتلاكها واستعمالها كقوة مضادة للتيارات الاستبدادية؟، لماذا ينكر الذات كوعي وإرادة، ويثبتها بوصفها جسدا طيعا « ينتجه المجتمع وتنحته القوانين وممارسات الانضباط » [3] .

إن أطروحات "فوكو"– في رأي "يورغن هابرمارس"– لا تخلو من **التحيز والاجتزاء المخل بالتاريخ و إطلاق "الأحكام المعيارية"**(jugements normatifs)، فهو يوظف مقولة "الصراع" ليقيس بها وقائع التاريخ، ويعرف الحياة الاجتماعية وكأنها « حياة انضباط في فضاء مربع» [*] [4].

[1] Jean- François Bert et Jérôme Lamy, *Michel Foucault un héritage critique*, op.cit , p 107.
[2] Edward w. Saïd, (Foucault et l'image du pouvoir). David Couzens Hoy, Michel Foucault (*lectures critiques*), op.cit, p169.
[3] ibid, p 77.
[*] La vie sociale, c'est la discipline portée au carré.
[4] ibid, p 79.

كما أنه لا يدخل ميدانا ولا يلج حقلا إلا وقرأه قراءة سلطوية. لقد لاحظ "هابرمارس" وجود نزعة "فوضوية"(anarchisme) في أطروحات فوكو، فهو-كما يصفه- صاحب **فكر "هدّام"** لا يقدم بدائل جادة ومُؤسّسة للمسائل التي ينقدها، فهو ينكر مكاسب "عصر الأنوار" ويقفز عمدا على الحقائق التاريخية و يرفض الاعتراف بأي شكل من أشكال الترقّي في الحضارة الإنسانية، كالسجن مثلا ومؤسسات رعاية المسنين والتي اعتبرها بعض المؤرخين ثمرة تطور وتحسين حياة المهمشين، لكن فوكو ينظر إليها على أنها وسائل ناعمة من وسائل السيطرة والاحتواء .

لقد ضحى فوكو -حسب نقاده- بالدقة العلمية والصرامة المنهجية من أجل التكريس لإيديولوجية مناهضة للتيارات العقلانية والتنويرية، ومن أجل ارساء "**أحكام جزافية**"(arbitraire)، ففي اللحظة التي يصور فيها العصر الكلاسيكي كعصر سادت فيه موجة اضطهاد للفئات الهامشية، يعجز في المقابل عن تحديد موقف صريح وواضح اتجاه ما تحقق من منجزات ومكاسب كالحرية والعدالة والدفاع عن حقوق الإنسان وتحسين مستوى العيش. لقد جمع فوكو بشكل تعسفي« بين العقلنة والإفراط في استعمال السلطة» [1]، فالانتقال من رمزية "التعذيب" إلى "السجن" بالنسبة له ليس تقدما في تحسين العقوبات بل تشددا في إجراءات الرقابة وتضييقا على حرية الأفراد، **وبالتالي تحول المجتمع في نظره إلى ما يشبه السجن الكبير الذي لا ينجو أحد من إكراهاته.**

[1] محمد المزوغي، نيتشه ، هيدغر، فوكو (تفكيك ونقد)، دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بغداد، 2014، ص 423.

خلاصة المبحث:

لا شك أن فوكو قد أجاد في قراءته لعلاقة المعرفة والسلطة، فقد نحت مفاهيمه بعناية ووظف مناهج الفلاسفة بذكاء، و كان حذرا من الوقوع في الغلو المذهبي فابتعد عن التقليد.

لكن كل هذا الاجتهاد لم يجعله بمنأى عن النقد، فقد وصفه "دوسارتو" بالفيلسوف **المتلون،** لأنه يريد أن يكون ناظرا غير منظور وصاحب منهج متخف، لهذا كلما طُلب منه أن يستقر على رأي، أو يحدد طبيعة فكره راح يراوغ مخاطبيه بحجة أن ذاته كفيلسوف هي ذات مرتحلة تتبدل أحوالها على حسب مواضيعها، كما أنه شوه التواريخ ونسخ الحقائق وفق ما يخدم **"آراءه المعيارية"** المملوءة بالمحاكمات الأخلاقية والتأكيدات المتسرعة التي تفتقر إلى الشواهد الحية.

لقد وفق فوكو في تشخيص الممارسات السلطوية من التنكيل إلى الانضباط وانتهاء بالسلطة الحيوية، لكن دوسارتو بين كيف أن **"عقيدته الفلسفية"** كانت حاضرة في كل قراءاته، خصوصا رفضه أي شكل من أشكال السلط التي قد تصدر عن إرادة الأفراد وبالتالي كان هذا القفز على كل ما هو إنساني وذاتي بمثابة حاجز منع فوكو من التفكير في **"سلطة تكتيكية"** معاكسة للتصور الشمولي الذي طرحه هو. كما انتقده البعض بأنه **صاحب فكر هدام ورؤية عدمية،** لأنه نفى كل منجزات الحداثة والمكاسب النضالية، ولم يحل إليها وكأن لا أثر لها في التاريخ .

المبحث الثالث للفصل الثالث:

ميكروفيزياء التكتيك كإزاحة لاستراتيجيات السلطة

توطئة:

1. التأصيل الفلسفي لمصطلح التكيكيك عند دوسارتو:

2.استراتيجيات وتكتيكات:

1.2 تكتيك القراءة كإزاحة لاستراتيجية سلطة المكتوب (النص)

2.2 تكتيك السير كإزاحة لاستراتيجية سلطة المكان الحضري(المدينة)

3.2 تكتيك الاستعمال كإزاحة لاستراتيجية سلطة الاستهلاك (الإعلام والاقتصاد)

خلاصة المبحث.

تمهيد:

ارتبطت مهمة الفلسفة منذ أفلاطون باختزال الوجود برمته في مجموعة من المبادئ والأفكار التي نفهم بها العالم ونفسر بها الوقائع والأحداث، وارتبط العلم منذ نشأته بصياغة القواعد والمعادلات التي تلخص لنا طبيعة الظواهر المدروسة ، فكل من العلم والفلسفة يشترطان التعالي عن "الحياة اليومية" كشرط للتأسيس النظري ، وبالتالي لا غرابة في أن يهمل الفلاسفة لقرون طويلة التفكير في "الحياة اليومية" بحجة أن المبتذل لا يستحق أن نفكر فيه.

لكن "دوسارتو" يتجاوز هذا المنحى التقليدي، ويدعوا إلى الالتفات إلى الجوانب المجهرية للمجتمع، والتفكير في "الحياة اليومية" بوصفها ميدانا خصبا مفعما بالظواهر التي تستحق الدراسة والبحث، والتي لها امتداد وتأثير في البنيات الفوقية للمجتمع (الدولة)، وأهم تلك الظواهر ممارسات **"الانساني العادي"**، التي غالبا ما تصور على أنها أفعال استهلاكية محكومة بالانفعال، وهي سهلة الانقياد وتتأثر بما يُفرض عليها من طرف المؤسسات السياسية والاقتصادية والعلمية.

إلا أن "دوسارتو" يفترض أن "الانسان العادي" ليس بهذا الخضوع الذي تصوره بعض الدراسات، بل يمتلك من الحيل ما يمكنه من التلاعب السلط (الاستراتيجة) المفروضة عليه، فيحرفها عن مقصدها ويوظفها لخدمة أغراضه الشخصية ومنافعه الخاصية، ويسمي "دوسارتو" هذه الأنشطة **"بالتكتيكات"**. إذن ما هو "التكتيك"؟ وما هي أشكال ممارساته؟ كيف يحل التكتيكي في

الاستراتيجي ويتلاعب به ؟ هل هو ناتج عن نباهة الأفراد وذكائهم، أم أنه نابع من غرائزهم الدفينة التي تحفظ بقاءهم؟.

1.التأصيل الفلسفي لمصطلح "التكتيك"(*) عن دوساتو:

يمكن رصد بوادر تشكل مصطلح **"التكتيك"** (tactique) عند "دوسارتو" من خلال اطلاعه على أعمال "هنري لوفابر"[1](Henry Lefebvre 1901-1991)، الذي وجه اهتمامه إلى البحث في "الحياة اليومية" (la vie quotidien) بوصفها ميدانا حيويا للتفكير في **المهارات الخلاقة، وأشكال الابتكار** التي يمكن رصدها في الممارسات الاعتيادية للأفراد، **هل هي ممارسات مدفوعة بالتلقائية والرغبة في الاستهلاك، وتتحكم فيها أجهزة الإعلام والخطابات السياسية، أم أن لها منطقها الخاص (شكلية)، وقواعدها العامة التي تحركها بمعزل عن الاستراتيجيات المتحكمة؟.**

لا يتردد "دوسارتو" في دعوة علماء الاجتماع إلى تجاوز البحوث التقليدية التي تدرس الفاعل الاجتماعي بوصفه كائنا **مستهلكا** خاضعا للضوابط الاجتماعية، والالتفات إلى الظواهر التي يكون فيها الفرد **فاعلا ومؤثرا في الأطر العامة، وفي المحيط الذي ينتمي إليه**، إذ يقول: « من الممكن

*"التكنيك"(tactique) : مصطلح يرجع في أصله للمعجم العسكري ويعني المناورة التي تحدث في مجال رؤية العدو على شكل كر وفر، لكن دوسارتو أزاح المصطلح من معناه العسكري ووظفه في المجال الاجتماعي، ليشير به إلى **كل أشكال المكر والحيل التي يوظفها الإنسان العادي، إما من أجل الإفلات من هيمنة مفروضة عليه، أو من أجل تحقيق منفعة شخصية بتحريف استعمالات أشياء لغرض غير غرضها الحقيقي**. راجع: ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 94.

[1] Henry Lefebvre, *Critique de la vie quotidienne*, introduction tome 1, l'Arche, Paris, 1977.

والواجب اكتشاف الاستعمال الذي تؤديه الجماعات والأفراد، مثلا تحليل الصور المنشورة عبر التلفزة (التمثلات) والأوقات التي تقضى أمام الشاشة (السلوك)، **ينبغي أن تُكمَّل بدراسة حول ما يصنعه المستهلك الثقافي خلال هذه الساعات وما يفعله بهذه الصور، الأمر نفسه يتعلق بالمكان الحضري أو المواد المشترية في السوق أو الحكايات والقصص التي توزعها الجرائد** » [1] . الفاعل الاجتماعي بهذا المعنى **يؤثر بقدر ما يتأثر، إذ له القدرة على "الصناعة"** (fabrication)[*] لأنه يعيد قراءة ما يتلقاه من مادة إعلامية عبر التلفاز، فيعمد إلى تفسير الأخبار وتداولها بالتهكم أو السخرية أو النقد.

إذا كانت الاستراتيجية هي النماذج المفروضة على أفراد المجتمع، فإن التكتيكية هي الحيل والمناورات التي ينجزها الأفراد داخل نسق استراتيجي، بحيث يحققون أغراضهم الشخصية في زمن وجيز وفي لحظة خاطفة دون أن يغادروا ذلك المكان. ويعرف "دوسارتو" "التكتيك" فيقول أنه:

« حساب لا يمكنه التعويل على أمر خاص، ولا على جوار يميز الآخر كشمولية مرئية. ليس

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 23.

[*] يزيح دوسارتو مصطلح "الصناعة" (fabrication) من معناها المادي الاقتصادي (صناعة السلع) ليوظفها في السياق الاجتماعي، ليشير بها إلى قدرة الفرد **على الابتكار والخلق**، بغض النظر عن المعطيات التي تتوفر له جاهزة، ولعل هذا المصطلح هو أقرب في دلالته إلى اللفظة الإغريقية "بوسيس"(poiesis) والتي تعني **الابتكار العملي للأشياء استنادا على مهارة من أجل تحقيق هدف معين**، كأن نقول أن"ربة البيت" لها القدرة عل ابتكار أكلات بمزج المقادير.

للتكتيكية من محل سوى مكان الآخر، فهي تنساب فيه بشكل مجزأ دون القبض عليه بأكمله، ودون إبقائه على مسافة بعيد» [1] .

من مميزات الفعل التكتيكي هو أنه فعل زماني يحدث في لحظات خاطفة وفي ظروف عابرة على حسب الحاجة والغاية، إذ « ليس له مكان خاص سوى مكان الآخر » [2] نظرا لطابعه المرتحل، فهو قد يحدث أيضا في صورة مناورة مفاجئة تصيب هدفا معينا لكن سرعان ما تختفي وتتلاشى، إنها – بالمعنى العسكري- **حركة الكر والفر** داخل المجتمع، « ينتصر فيها الزمان على حساب المكان » [3].

لا يحافظ الفعل "التكتيكي" على ملكية خاصة (للأمكنة أو الأشياء) لأنها أغراض نستعملها على حسب السياق ، وتتغير التكتيكات بدورها على حسب طبيعة كل مجتمع، لهذا فالتكتيكات التي مورست في المجتمعات القديمة تختلف تماما على أنماط التكتيكات التي تمارس في المجتمع في صورته المعاصرة [*] . إن "التكتيكية" كما يصفها "دوسارتو" « **تشتغل بشكل مجزأ، تستفيد من الفرص ترفع ما هو خاص وتتحسب للمباغتات، ما تحوز عليه لا تحتفظ به، يتيح لها اللامكان بلا شك التنقل، لكن بالانقياد إلى مصادفات الزمن لتغتنم فرصة القبض على الإمكانات التي تتيحها**

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 32-33.
[2] المصدر نفسه، ص 94.
[3] المصدر نفسه، ص 33.
[*] كلما تطور المجتمع عبر التاريخ كلما ظهرت معه تكتيكات جديدة، انظر مثلا **لطرائق الاحتيال** التي تطورت عبر المجتمعات، فكلما زاد المجتمع في الرقابة وتشدد في منظومته الأمنية والقانونية، كلما تطورت معه طرائق الاحتيال مثل التهريب المبتكر للمخدرات وتبييض الأموال، ومازال إلى اليوم يتفنن المجرمون في إخفاء هوياتهم بتزوير الوثائق الثبوتية، وإخضاع وجوههم لعمليات جراحية بغرض التمويه.

اللحظة الآنية، فهي تستعمل بشكل حذر التصدعات التي تسببها الظروف الخاصة في مراقبة السلطة الامتلاكية »[1] .

إن "الفعل التكتيكي" بالمعنى الذي ذكرناه هو فعل "**اختلاسي**" (perruque)، يتحين فيه المرء الفرصة لإصابة هدف داخل الجسد الاستراتيجي، وأثر ذلك الفعل هو أشبه بأثر الماء الخفيف المنساب الذي – على الرغم من بساطته وخفته– يتغلغل في شقوق الصخور الضخمة ليحدث فيها انهيارا يسقطها من مكانها ولو بعد حين.

يتميز الفعل التكتيكي أيضا بما يسميه دوسارتو "**التأليف الذكي**" (synthèse intelligible) وهو« القدرة على "**إنتاج**" (emploi) **و**"**إعادة إنتاج**" (réemploi) شيء مركب من عناصر مختلفة بغض النظر عن المعطيات الاجتماعية الجاهزة »[2] ، فالطفل مثلا له القدرة على ابتكار لعبته الخاصة (سيارة) باستعمال مجموعة من الأغراض المهملة بغض النظر عن الألعاب التي تباع في المحلات والمتاجر، والأمر ينطبق أيضا على المتجول في السوق، فهو قد يؤلف بين مشترياته على حسب الحاجة والغاية، وعلى حسب السعر والذوق، وقد يتجنب المنتوج المرتفع، ويتحين وقت تخفيض الأسعار، ويقتني المنتوج المتاح والمنخفض، وقد يساوم ويفاوض البائع فيقبل على المنتوج أو يعرض عنه على حسب سياق الشراء والمبارزة في الكلام.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 95.

[2] Michael Sheringham, *traversées du quotidien des surréalistes aux postmodernes*, traduction française: Maryline heck et Jeanne-Marie, Presses Universitaires de France, Paris, 2012, p 221.

لهذا يخطئ من يعتقد أن "الاستهلاك" استراتيجية مفروضة، لأنها تقابل "بتكتيكات" من طبيعة "ميتيسية" (metis)، و"الميتيس" عند الإغريق ليس هو "الذكاء المنطقي" الذي نحل به المشكلات المعرفية والنظرية، وإنما يُفهم المصطلح فهما فلسفيا وعمليا بوصفه « **واقعة خاطفة و عابرة لا تخضع لقياس دقيق أو تدبير منطقي صارم** »[1] ، وهي **اللحظات** التي تتسلح فيها الكائنات – بما فيها الإنسان– **بحيل في الفعل ومكر في الأداء، بغرض التخفي والاختلاس والتواري والمناورة من الأعداء من أجل الحفاظ على البقاء.**

إذا أخذنا أمثلة من عالم الحيوان، **فلننظر للأسماك كيف تتنكر في المحيط لتصطاد الفرائس، والطيور التي تبيض في غير أعشاشها، والحشرات التي تمارس فن الاختباء بالتماهي مع ألوان الغابة،** ولننظر أيضا **للحيوانات التي تتوقف عن الحركة وكأنها جمادات، أو ترتمي في الأرض جاثمة وكأنها ميتة مصروعة أو تطلق روائح كريهة عندما تشعر بخطر المفترسات.**

والأعجب من ذلك أن هنالك "**حشرة طفيلية عالقة**" بحجم النحلة تسمى **"آيزوبود"** ويطلق عليها أيضا اسم **"عضة اللسان"**، إذ لها القدرة على أن تتحول من فريسة مستساغة إلى مفترسة فتاكة، لأنها تلتصق بلسان بعض السمكات المفترسة فتلتهم لسانها وتحتل مكانه، وتأخذ في مص

[1] مارسيبل ديتيين و جان بيير غرنان، حيل الذكاء (دهاء الإغريق الميتيسي)، ترجمة: مصطفى ماهر، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، 2000، القاهرة، ص 11.

الدماء حتى تضعف السمكة وتموت بشكل بطيء، وقد فُجع العلماء بذلك المشهد المخيف عندما فتحوا فم سمكة ميتة فوجدوا أن تلك الحشرة قد التهمت لسانها واتخذت من فمها مسكنا لها.

أما بالنسبة لعالم الإنسان فقد ذكر "دوسارتو" مثالا عن **"الهنود الحمر"**، الذين كانوا ينفّذون ما هو مفروض عليهم بشكل فيه من الحيلة في الاستعمال ما يكسر تلك الإكراهات، فيحرفونها عن مقاصدها ويجعلونها تخدم مصالحهم، ومن تلك الحيل **التلاعب باللّغة و تشفير الكلمات** التي يتواصلون بها فيما بينهم، **وتنفيذ الأوامر بشكل معكوس وماكر**. إن "الهنود الحمر"- كما يقول "دوسارتو"- على الرغم من خضوعهم للمستعمر « كانوا يؤدون أفعالا شعائرية أو تمثلات أو قوانين ولكن بشكل مختلف عما كان يريده الغازي منهم، إذ كانوا يخربون تلك الأعراف المفروضة ليس برفضها أو استبدالها، لكن بطريقتهم في استعمالها لغايات، وتبعا لمرجعيات غريبة عن المنظومة المفروضة التي لا مفر منها » [1].

وبالرجوع إلى الجوانب المجهرية للمجتمع نجد أن السارق مثلا يستعمل **أسلوبا في الأداء كالخفة والسرعة وتحين الفرصة** ليصيب هدفا معينا في ضرف وجيز، على الرغم من أشكال الرقابة التي تحيط به، لهذا يصف "دوسارتو" التكتيكات بأنها **"فن الضعيف"** وهو وصف استقاه من كتاب "كلوزيفيتش" (في الحرب)، لأن تلك الأفعال تمارس في الظلال والهوامش، وتحقق وجودها في اللحظة التي يضعف فيها الكيان الاستراتيجي الذي يحتل المركز.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 23.

وقد تنقلب الأدوار إذ ينسحب الاستراتيجي إلى الهوامش فيصيرا تكتيكيا، ويحتل ما كان تكتيكيا في السابق المركز ليتحول إلى استراتيجي(*).

2. تكتيكات واستراتيجيات:

1.2 "تكتيك الاستعمال" كإزاحة لاستراتيجية سلطة الاستهلاك (الإعلام والاقتصاد):

يثبت "دوسارتو" أن الإنسان داخل مجتمعه هو دائما في حالة من المواجهة والصّدام مع كيانات قاهرة، وأهم تلك الكيانات في صورتها المعاصرة هي "**الاستراتيجيات الاقتصادية**" التي تسخر شركاتها للسيطرة على الأفراد واحتوائهم باعتبارهم كائنات "مستهلكة"، ويتم ذلك من خلال الوسائط الاشهارية التي تؤثر في الرغبات والمدركات بأسلوب لا يخلو من الجاذبية والإغراء.

لكن الفاعل الاجتماعي يتسلح في مواجهة تلك "الكيانات" بما يسميه "دوسارتو" "**تكتيكات الاستعمال**"، فهو وإن كان غير قادر على مجاراة أو مواجهة تلك الإكراهات العامة، بحكم أنه الطرف الضعيف، إلا أنه يمتلك ما يسمى عند الإغريق خاصية "**الأجلوميتيس**" (agklumetes)

* أبلغ مثال على ذلك "الحركة الإسلاموية" (داعش) في بلاد الشام التي كانت تمارس نشاطها بشكل "تكتيكي" إذ احتلت هوامش المدن وسكنت الجبال وكانت تستعمل أسلوب الكر والفر في الهجوم على السلطة المركزية، لكنها تحولت إلى الوضع الاستراتيجي عندما احتلت الأرض في العراق فأصبح لها علم وجيش وقوانين فكونت "شبه دولة" سميت الدولة الإسلامية.

وهي القدرة على الالتواء والمناورة»[1]، وهي صفة المرونة التي تسمح لصاحبها باتخاذ سبل متعددة والتكيف والتلون مع الأوضاع الطارئة دون أن يغادر الكيان الاستراتيجي.

يُقال في الأثر الاغريقي أن « من يعرف الحيل يعرف كيف يكسب السباق، وإن كان يسوق خيولا ضعيفة»[2]، و جاء هذا القول تعبيرا عن " **أسطورة أنطيلوخوس**" وهو خيّال كان يتنافس في سباق بخيل ضعيفة، ولم يمكن له فرصة الفوز أمام منافسيه بخيول قوية، فلجأ إلى **حيلة بوصية من** أبيه وهو أن يقوم **بمناورة حركية** يدفع من خلالها بعربته ويثبتها في المسالك الضيقة للسباق، ليترك لمنافسيه عمدا ممرات وعرة وخطرة تجبرهم على لجم خيولهم وتبطيء سرعتها خوفا من الاصطدام بالأجراف والصخور. وقد فاز "أنطيلوخوس" بالسباق ليس لأنه يمتلك الفرس الأقوى بل بأنه الأدهى والأمكر.

إن كل فرد في مجتمعه يمكن أن يصير "أنطيلوخوس" بشكل أو بآخر، لأنه يمتلك القدرة على "استعمال"(**usage**)(*) الامكانات المتاحة لقلب الأوضاع وتعديل موازين القوى ، فمهارة الابتكار التي يتسلح بها تمكنه من اختراق الجسد الاستراتيجي والتلاعب به، ويصف "دوسارتو" هذا النمط من الأفعال الذكية « بالإنتاج المحتال، المتشظي والصامت، الذي ينساب في كل مكان ولا يكاد يُرى

[1] مارسيل ديتيين و جان بيير غرنان، حيل الذكاء (دهاء الإغريق الميتيسي)، المرجع السابق ، ص 13

[2] المرجع نفسه، ص 20.

* لا يفهم مصطلح "الاستعمال" في فلسفة "دوسارتو" بالمعنى الحرفي المعتاد، أي **استعمال قلم للكتابة** أو **استعمال الساعة لمعرفة الوقت**، بل يُفهم بمعنى ابتكار (invention) أشياء جديدة بتأليف مجموع عناصر متفرقة أو التلاعب في استعمال شيء بتغيير وظيفته أو تحريف مقاصده.

وهو لا يتميز بمنتوجات خاصة، ولكن بأساليب في استخدام المنتجات أو المواد التي يفرضها نظام اقتصادي مسيطر»[1] .

إن المتسوق –على سبيل المثال– لا يشتري في الغالب السلع والمنتجات بالأسعار التي يفرضها عليهم السوق، **بل نجدهم يتخيرون فرص الشراء بالأثمان المناسبة، ويقارنون بين الأسعار ويدخرون المستلزمات، ويستبقون المناسبات،** وعليه فالفاعل الاجتماعي – حسب دوسارتو– **يخلق لنفسه فسحة وهامش تصرف خارج النسق الاستهلاكي المفروض عليه،** لأن "تكتيك الاستعمال" –كما يقول– « يولي أهمية للزمن، أي اللحظة التي تجعله يتدخل في وضعية مواتية، بفعل الحركات التي تعدل تنظيم المكان » [2].

هذا المستعمل المتسوق قد يلجأ أيضا إلى حيلة تكتيكة أخرى هي "**الاستعمال المكرر**" (**réemploi**) للأشياء، بمعنى أنه يقضي حوائجه بإعادة استعمال أغراض قديمة أو مرمية في سلال القمامة[*] بدل شرائها من جديد، أو يبتكر أشياء بتأليف معطيات وعناصر متناثرة، مثل العناصر التي يمزجها الطباخ لصناعة المأكولات، أو الألوان التي يمزجها الرسام لتقويم اللوحة ،كذلك بالنسبة للإنسان العادي قد يعيد استعمال أشياء مرمية، يعيد بيعها أو يصنع بها أشياء جديدة .

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 23.

[2] المصدر نفسه، ص 97.

[*] هنالك بعض الفئات من المتشردين والفقراء وأصحاب الدخل المحدود خصوصا في المدن الكبرى **يلجؤون لتفتيش سلال القمامة بحثا عن بقايا طعام أو مأكولات منتهية الصلاحية أو بعض الأغراض المرمية (كالملابس) التي يعاد استعمالها أو بيعها**، كان هذا السلوك في بداية الأمر تحركه الحاجة إلى الطعام، لكن تحول فيما بعد إلى عادة الاجتماعية وإلى نمط عيش بالنسبة لتلك الفئات.

هذا بالنسبة للمتسوق، أما بالنسبة للباعة فلا يتركز عملهم فقط في "**السّوق الرسمية**" كالمحلات المرخصة والمتاجر الكبرى التي تراقب فيها الأسعار والمنتوجات، بل نجدهم أيضا يحتلون فضاءات غير رسمية كتلك التي تسمى في العرف الاقتصادي "**بالسوق الموازية" أو السوق السوداء**"[*] حيث لا تخضع معاملات البيع والشراء لقوانين السوق لأنها بعيدة عن الرقابة القانونية، وإنما تخضع للقوانين التي يفرضها السماسرة والوسطاء.

وأحيانا عندما تضعف المنظومة القانونية والرقابية للدولة، تصبح السوق السوداء هي المتحكم الرئيسي في الاقتصاد، فتتحكم في الأسعار وفي ميزان العرض والطلب، وتتم تلك المعاملات في أماكن غير محددة في الغالب كالمكاتب المخفية أو في المقاهي أو على جوانب الأرصفة والطرقات.

لا تمس "حيل الاستعمال" الاقتصاد فقط، بل قد تصيب أكثر الكيانات الاجتماعية صلابة وثباتا وهو "الدين"، الذي لا يسلم هو الآخر من التلاعب على الرغم أنه يمثل المنظومة الأخلاقية والمرجعية القيمية للمجتمع.

[*] "**السوق السوداء**" (marché noir) **:** هو مثال حي للتكتيكات الاقتصادية لأنه تمثل النشاط الاقتصادي الموازي للاقتصاد الرسمي الذي تتحكم فيه الدولة، ويضم كل المعاملات اللارسمية من بيع وشراء لسلع ومنتوجات مرخصة أو ممنوعة كالمخدرات والأسلحة.

يميز "دوسارتو" بين الدين كنسق مفروض وبين استعمالات الناس له، وهو استعمال يتيح لهم إعادة إنتاجه وفق مصالحهم، وتحريفه عن مساره وفق ظروفهم الخاصة وغاياتهم الشخصية(*).

ولو نظرنا في كل المجتمعات على اختلافها لوجدنا أن وحدة الدين مستحيلة التحقق، إذ لا بد أن تنشق عنه تيارات وطوائف، وتتفرق حوله المذاهب وتتعدد حول مضامينه التأويلات مما يشكل حالة من الصراع والتزاحم بين من يريد أن يحتل مركز الدين وبين من يحتل هوامشه. إن « الاستعمال الشعبي للدين –كما يقول دوسارتو – يغير لا محالة طريقة استعماله» [1] فلا عجب أن نجد في المسيحية المذهب الكاثوليكي والبروتستانتي والأرثودوكسي، وأن نجد في الإسلام المذهب السني والشيعي، وقس على ذلك في تفرق المذاهب الاجتماعية والسياسية، لأن الإنسان له "**سلطة استعمال**"(pouvoir d'usage) تمكنه من تغيير المبادئ وزحزحة الثوابت، من خلال استعمالها وفق سياقات تاريخية ووفق مقتضيات سياسية واجتماعية.

* قد نذكر أحد **"التكتيكات"** الشائعة في مجتمعنا **لبعض المحتالين الذين يتنكرون في أزياء عرافين ومشعوذين فينسبون لأنفسهم –باسم الدين- القدرة على شفاء المرضى وعلاج العقم وفك الرباط، ومنهم من يتنكر في أزياء متسولة و متشردين، فيدعون المسكنة والفقر ويستعطفون الناس - باسم الدين- ليتصدقوا عليهم أو يقضوا حوائجهم،** وقد ثبت في بعض التحقيقات الاعلامية والأمنية أن هؤلاء يتخذون من الاحتيال والتمويه مهنة للعيش لأن لهم وضع اجتماعي ومادي لابأس به، ويمتلكون ما يغنيهم عن طلب الحاجة أو التسول.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 67.

2.2 تكتيك السير كإزاحة لاستراتيجية سلطة المكان الحضري(المدينة):

إن تزايد السكان بشكل هائل في الفضاء العمراني ترتب عنه من جهة ضرورة التسريع من وتيرة الإنتاج الاقتصادي لتوفير ما يستهلون، ومن جهة أخرى ضرورة خلق أساليب مبتكرة في "الانضباط" تساعد على السيطرة والتحكم في سلوكياتهم تجنبا للتمرد والعصيان، ومن بين تلك الأساليب استحداث "جاهزيات" (dispositifs) تتولى تنظيم وترتيب حياة الأفراد، وإعداد البنايات (panoptiques) وتشيدها وفق ما يخدم غرض الانضباط، لكن هل يخضع الفاعل الاجتماعي لسلطة المكان الحضري ولتقنيات الانضباط دون أن يكون له هامشا للانفلات والمناورة؟.

يعتقد "دوسارتو" بأن الفاعل الاجتماعي يمكنه أن يتلاعب "بسلطة المكان" عن طريق ما يسميه **"بتكتيك السير أو العبور"**(*)، فحركته في المكان تمنحه فسحة التجوال في البنايات العمرانية المشيدة إذ يمكنه اختيار مسار مغاير أمام طرق ممنوعة، أو يغير وجهته أمام جدار عازل.

ويستشهد "دوسارتو" "بشارلي شابلين" (Charlie Chaplin) ليستدل به على ما يسميه **"بلاغة السّير" فهو يستعمل حركاته للانفلات مما تفرضه عليه الترسانة الآلية للعالم المادي.**

في مشهد هزلي يهرب "شابلين" من مطاردة الشرطة فيرتمي في صندوق مهمل على جنبات الطريق ليختبئ فيه، يطارد من جديد لكنه يتشبث بسيارة عابرة لتنقله بعيدا، ينزل منها ثم يمتطي

* يعطي "دوسارتو" لكلمة "سير" أو "عبور" (traverser)، دلالة فلسفية فهو يقرنها بنشاط "التكتيك" الذي يتم فيه إزاحة المكان بفعل الحركات المشي الظرفية و العابرة كمسار المتجولين في السوق، لأن كل استقرار في المكان يحيل إلى العزل وهو من أفعال السلطوي أو الاستراتيجي.

سلما ليعتلي السطوح، فهو يضاعف من حركاته الهزلية ويزيد من مرونة جسمه حتى ينفلت من قبضة المكان.

إن السر في **"بلاغة السير"** بالنسبة "لشابلين" ليست في جسده « وإنما في علاقة ذلك الجسد بعالم الأشياء والأشخاص»[1]، فاستعمال الحركات بذكاء وانسيابية يمكّن من التلاعب بالفضاءات المكانية [*].

لا نبالغ إن قلنا أن "الإنسان العادي" يمكن أن يتصرف بنفس ردود أفعال "شابلين" في اللحظات الطارئة، فهو يمتلك من الذكاء ما يجعله يكسر هيمنة الإكراهات من خلال « تعديل حركاته أو تغيير مساراته بشكل مفاجئ، أو قلب مقاصده حتى لا تصير مقروءة من أنداده »[2] .

إن "شابلين" هو تجسيد حي للإنسان العادي الذي يوظف سلطة الزمان على حساب المكان فكل حركة أو ردة فعل ليست إلا لحظة ظرفية أو محطة عبور خاطفة في مكان مشيد سرعان ما تغادره تلك الحركات لتجد لنفسها محطات أخرى تحقق فيها أغراضها، ولعل هذا الترحال هو ما يشير

---

[1] Henri Lefebvre, *Critique de la vie quotidienne*, introduction, Grasset, Paris, 1947, p 17.

[*] فن الهزل الحركي والإيمائي **"لشارلي شابلين"** يشبه إلى حد كبير الهزل الحركي للكوميدي البريطاني **"مستر بين"**، والصفة المشتركة بينهما هو **مضاعفتهما حركات الجسد في صورة ردود أفعال هزلية غير متوقعة تكسر الصورة النمطية للحياة اليومية، و تجعل الناظر يستمتع بقدرتهما الفائقة على التلاعب بالقوى المادية والبشرية التي تفرض عليهما .**

[2] Michael Sheringham, *traversées du quotidien des surréalistes aux postmodernes*, op.cit, p 222.

إليه "دوسارتو" بمصطلح **"الاصطياد"** (braconnage)، فالسائر في المدينة يعبر جدرانها مثلما يعبر الصياد أمواج البحر فيغير مواقعه ووضعياته ليحقق غرضه .

والمصطلح نفسه ينطبق على أشكال الحراك الشعبي والمظاهرات في الشوارع، حيث يستعمل المحتجون الطرق الضيقة ويتجمعون ويتفرقون لتكسير حصار الشرطة، لأن السير في المدن يشبه فعل "الاصطياد" و يحمل رمزية المناورة، و يحتوي على عنصر المفاجأة في زمانية متجددة، إن ملحمة السّير – فيما يقول دوسارتو– : « تناور التنظيمات المكانية مهما كانت بنيتها البانوبسية، فهي ليست غريبة عنها (لا تنقضي خارجها) ولا تتطابق معها (لا تتعين هويتها بها)، تخلق فيها العتمة والالتباس وتدس فيها مرجعياتها واقتباساتها المتعددة»[1] .

يمكن أن نستشهد بأمثلة حية في تكسير الهيمنة المكانية نرصدها في **لغة المتشردين واتصالات المساجين في الزنزانات و إشارات السائقين،** ويذكر "دوسارتو" أيضا مثال "المستأجر القبائلي" أو المغاربي الذي يعيش في باريس، **فهو يكيف المكان بديكور جديد حتى ينقل مكانه الأصلي (الثقافي) إلى المكان المفروض عليه**[*]، وقس على ذلك عند الباعة المتجولين الذين يتلاعبون بالأمكنة ويستغلون الأرصفة لبيع ما يمتلكون، لكنهم يقيمون فيها بشكل مؤقت (على غرار المستأجر)، إذ سرعان ما يرتحلون ليحتلوا أرصفة جديدة بشكل يعدل فيها على حسب رؤيتهم

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 195.

[*] يسمي "دوسارتو" هذا النوع من "التكتيك" **"فن البين بين"** وهي المهارة التي تمكن صاحبها **من خلق وضعية جديدة (ديكور) بين المكان الأصلي الذي ينتمي إليه، والمكان الذي يستقر فيه.**

وذكرياتهم وثقافتهم ومصالحهم، إن المستأجرين كما يقول "دوسارتو" « يجعلون من ملكية الآخر مكانا يعيره العابر لحظة، يقومون بتجوّل في الشقة عندما يقومون بتأثيثها بإيماءاتهم وذاكرتهم »[1].

3.2 تكتيك القراءة كإزاحة لاستراتيجية سلطة المكتوب (النص)

يذكر "دوسارتو" نوعين من السلط التي اكتسحت هي الأخرى الثقافة المعاصرة، وهي "**سلطة المرئي**" (semiocratie) و"**سلطة النص**" ; يمكن رصد "**سلطة المرئي**" في كل أشكال الاستهلاك البصري: كالبرامج المتلفزة والولع بالمودة والعلامات الاشهارية والسلع المنتجة والأنترنت.

أما "**سلطة النص**" فنرصدها –إما على وجه من الشمول– فيما يسود العصر من هيمنة الثقافة الكتابية في مقابل تراجع الثقافة الشفهية، أو –على وجه الخصوص– في نسق النص الباطني الذي تحكمه قواعد نحوية، واعتبارات بلاغية، ومضامين فكرية.

ينتقد "دوسارتو" الرأي الذي يصور فعل "**القراءة**" (**lecture**) وكأنه انفعال أو استجابة آلية لما تفرضه سلطة النص أو المرئيات، وبالتالي "فالقراءة" في أدبيات هؤلاء هي نمط من أنماط استهلاك النصوص والصور، كأن نقول بأن قارئ الجريدة يستهلك محتواها، وأن المتفرج على التلفاز يستهلك محتوى البرامج، وحتى أغلب الدراسات الاجتماعية تعاملت مع "**القراءة**" بأسلوب إحصائي وتقليدي (نسبة المقروئية، أماكن القراءة) لكنها لم تكشف لنا عن ما يتضمنه فعل القراءة من ابتكار خلاّق.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 36.

نشاط **"القراءة"**(lecture)- في نظر دوسارتو- وهو الفعل التكتيكي الذي يزيح نسق النص ويتلاعب بمضمون المرئيات ، لكن لا يؤخذ المصطلح في هذا السياق بمعناه الحرفي أي قراءة النصوص وإنما المقصود هنا **حركة الفكر والوجدان وهي تؤول النصوص المكتوبة، وتناقش الأخبار المتداولة حيث تتقاطع الأفهام والظنون،** وتمتد "القراءة" لتشمل **انفعال الجسد للنص وللمشاهد كحركات الأعين أثناء القراءة، أو تفاعل المتفرج مع الأخبار الإعلامية،** لذا يقول "دوسارتو" أن « القراء هم مسافرون » [1] يرتحلون في زمانية عابرة في النصوص دون أن يتقيدوا بماديته، فهو فعل يتضمن **"فبركة صنائعية"** تتفكك فيه عناصر النص بارتحال الأعين، ويعاد تركيبها مثل الفعل الصنائعي الذي نشهده في المصنع.

إن "القارئ" بهذا المعنى ليس مجرد متلقي للكتابات، مستهلك لمضامين الإعلام، بل له القدرة على إزاحة الموضوعات وتعديل محتواها، لأن **النص تتبدل معانيه وتتغير دلالاته وفق القراءات التي يخضع لها،** كما أنّ قوة النص وحيويته لا تقاس بغزارة مضامينه بقدر ما تقاس **بكثرة القراءات حوله.** « لا يتخذ النص دلالة- كما يقول دوسارتو- سوى بفعل قرائه، يتغير معهم وينتظم حسب قواعد في الإدراك التي تفلت منه، لا يصبح نصا سوى في علاقته بخارجية القارئ وبلعبة في التضمينات والحيل»[2] .

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 300.
[2] المصدر نفسه، ص 295-296.

لهذا يعلمنا التاريخ أن الآداب والفنون ما كان لها أن تزدهر في عصر من العصور، أو في مجتمع من المجتمعات، لولا السجالات والمناظرات القولية والتعاليق المكتوبة التي أحيطت بنصوصها، وكان عصر الأدب ينجلي كلما عزف الناس عن القراءة والمراجعة والنقد، فعلى الرغم أن « القارئ لا يستحوذ على مكان الكاتب ولا يصبح في ذاته كاتبا، لكنه يبتكر في النصوص شيئا آخر غير "القصد" الذي ينطوي عليه » [1] مما يؤدي إلى نموه وتجدده.

لقد فرضت الكنيسة في العصور الوسطى رقابة على المريدين في قراءتهم للنصوص المقدسة، على الرغم من تقديرها للنشاط الشفهي، وقد انتقل هذا الشكل من الرقابة – فيما يرى دوسارتو– إلى المجتمع المعاصر، حيث صار "**النص المكتوب**" هو المرجع الأساسي للثقافة وللحياة الاجتماعية

ونشهد ذلك في العقود والمعاملات والخطابات السياسية التي لا بد لها أن توثق حتى تكتسي المشروعية اللازمة، « لقد أصبحت الأجهزة السوسيو–سياسية للمدرسة والصحافة والتلفاز تعزل عن القراء النص الذي يستحوذ عليه المعلم أو المنتج، لكن وراء هذا الديكور المسرحي "**للأرثودوكسية الجديدة**" يختفي النشاط الصامت أو المتعدي أو المتهكم أو الشاعري للقراء »[2] .

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 293.
[2] المصدر نفسه، ص 298.

تقيد الدولة **"القراءات"** لأنها تحاول أن تفرض **"نموذجا ثقافيا"** على الشعب، من خلال المنظومة الإعلامية الموجهة التي تنشر المعتقدات والدعايات، لكن المتلقي لتلك الأخبار والدعايات يمكن أن يحدث فيها إزاحات عندما يستعمل اللغة الشعبية، فقد يحيط النموذج الثقافي والسياسي بالجدية حينا وبالسخرية حينا آخر، كتلك التي نشهدها في الرسومات الكاريكاتيرية وفي المسرحيات الساخرة، وفي الشعارات واللافتات الشعبية المتداولة في المحافل الاجتماعية اليومية(*).

ليست **"القراءة"** وحدها هي التي تزيح "نسق اللغة"، بل حتى الأساليب الساخرة في التفكير والرؤى الهزلية، **"فالنكتة"** مثلا- كما يشير دوسارتو- هي أسلوب لغوي في الحكي يحدث رجة على مستوى النمط التفكير السائد، لأنه يتلاعب بكل ما هو مألوف وجدي وصارم. إن "النكتة" كما يصفها "فرويد" غير معدومة في الوعي بل كامنة فيه، **فقد تتحين الفرصة المناسبة حتى تطفو إلى سطحه،** ومن أمثلة "النكت" **الرسومات الكاريكاتورية** التي تحمل في محتواها نقدا صامتا غير منطوق، فتشوه الشخصيات من خلال التلاعب بالشكل العام للجسم بأسلوب في الرسم، فتقوم **بتكبير آذانها و شفاهها وتصغير أنوفها** أو مناطق أخرى من الجسم للدلالة على السخط وعدم الرضى، ولعلها "تكتيكات" بقدر ما هي خفيفة وبسيطة، بقدر ما هي مؤثرة وجاذبة للأنظار.

---

* إن كل ما هو متداول بشكل شفهي في نسيج المجتمع هو بشكل أو بآخر نوع من **"القراءات" التي تزيح النسق الثقافي المفروض،**خذ مثلا حديث المقاهي والدردشات اليومية للناس، و شعارات وأغاني الجماهير في مدرجات كرة القدم، فقد تحولت كل هذه الممارسات في مضمونها إلى نوع من **المقاومة السياسية** التي جاءت كردة فعل للقرارات السياسية الرسمية، وهذا ناتج عن تداول الخطاب السياسي على المستوى الشعبي مما ينتج عنه **وعي ناقد ينتمي للفضاء العمومي.**

يثنى "دوسارتو" على أصحاب الفكر السفسطائي ويعتبرهم سادة "التكتيك" في مجال اللغة لأنهم كانوا يستعملونها كوسيلة تكتيكية للمناظرة ولنقد الثوابت وتحقيق المصالح، وليس كغاية لبلوغ الحقيقة المثالية. لقد مثلت الفلسفات النسقية (المدرسية) الجانب الاستراتيجي للفكر الإغريقي، لأنها كانت تحتل مركز الثقافة اليونانية وشيدت لها المدارس وتفرعت منها المذاهب، أما "الفلسفة السوفسطائية" فقد مثلت الجانب التكتيكي لأن روادها مارسوا الفلسفة **كمتجولين** خارج أسوار المدارس المحصنة، ولم يكن لهم محل خاص يستقرون فيه. لقد علمنا السفسطائيون أن استعمال اللغة « مرتبط بالفرص التي تؤدي إلى الإغواء، أو التحايل في قلب الوضعية اللغوية للمُخاطَب »[1] . وبالتالي فهي أداة تكتيكية نستعملها للمبارزة الكلامية وتحين الفرص لقلب القضايا والانتصار في كلام.

[1] ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، المصدر السابق، ص 98.

مُحصّلة المبحث:

لقد وسع دوسارتو من أفق فهمنا للسلطة من خلال مفاهيم نقده لتصورات وأطروحات ميشال فوكو، فقد تبين له أن السلطة لا يمكن اختزالها فقط في **"استراتيجيات الهيمنة"** الشاملة أو في صراع القوى و لا في علاقات الإخضاع والخضوع، بل هنالك سلطة من نوع آخر (قد تفطن إليها فوكو بشكل متأخر)، ليس لها صورة مادية كما هو الشأن في السجن أو المصحة (بانوبتيك)، بل تتميز باللطافة والخفة لأنها تمارس في لحظات خاطفة وفي سياقات معزولة، وتلك السلطة هي " التكتيكات" التي يمارسها الانسان العادي، لأنه يمتلك حيلا دفينة ومهارة أصيلة تمكنه من الانفلات والتلاعب باستراتيجيات الهيمنة الموجهة لإخضاعه.

لقد تبين لدوسارتو أن الإنسان العادي يمارس ثلاث أساليب من التكتيكات: **تكتيك السير للتلاعب بسلطة المكان، تكتيك الاستعمال للتلاعب بسلطة الاستهلاك وتكتيك القراءة للتلاعب بسلطة النص.**

خلاصة الفصل الثالث:

لقد بيّنا مواضع الاختلاف والاتّفاق بين فوكو ودوسارتو في سجالهما حول علاقة المعرفة بالسلطة، وقد اتّضح لنا أنّهما يتّفقان حول ثلاثة صفات أساسيّة للمعرفة: فهي **من طبيعة نسقيّة** لأنّها بنية معقّدة بالغة التّركيب يتداخل فيها الذّاتي مع الموضوعي والنّظري مع العملي، وهي **من طبيعة إنتاجية** لأنّها ما ينتج عن حركية المجتمع في كلّيّته، بمؤسساته وخطاباته وسياساته واقتصاده وهي أخيرا **من طبيعة تاريخية**، لأنّ المعارف تتغيّر على حسب سياقاتها التّاريخية التي تميّز كل مجتمع دون سواه.

أما فيما يتعلّق بالسّلطة فهما يتفقان أيضا حول بعض سماتها: فهي **من طبيعة شبكيّة** تمارس من محاور وأقطاب متفرقة، لهذا فهي غير مركزية وغير قابلة للامتلاك، كما لا يمكن فهم السلطة من حيث هي نظرية، بل من حيث **هي ممارسات** نرصدها في صورة استراتيجيات لها خطط ومرام تهدف إلى الانتاج المادي والرمزي، وليس بوصفها قوة مادية تستعمل العنف من أجل الهدم والتقييد. ويتفقان أيضا حول **الصلة الوثيقة بين السلطة والجسد** من ناحية، **وصلتها بالمؤسسات** من ناحية أخرى بوصفها الفضاء المادي الذي تحل فيه المؤسسات.

لقد اهتم فوكو ودوسارتو بالبحث **في فلسفة الهوامش**، لكنهما اختلفا في اختيار الأطروحات وحقول البحث، فقد اهتم دوسارتو بدراسة الثقافة الشعبية ومختلف الممارسات التي تصدر عن الإنسان العادي بوصفها أفعالا ابتكارية لا يعترف بها العلم، كما اهتم بالبحث في الوضعية التي آل

إليها الاعتقاد المسيحي في ظل طغيان النظام العلماني في السياسة والنظام الرأسمالي في الاقتصاد، أما فوكو فقد تناول مواضيع كالجنون والجنوح والجنسانية، وجعل من نتائج بحثه منطلقا لنقد الأسس التي قام عليها المجتمع الغربي منذ عصر الأنوار.

لا يخفي دوسارتو ما تتميز به كتابات فوكو من جدية في التحليل وعمق في نظر، إذ كان لأطروحاته حول السّلطة أثر بالغ في الفكر السياسي المعاصر، وفي الأبحاث الاجتماعية، وقد شرح د منهجه كونه **ينتقل بنظره من دراسة الهامش إلى نقد المركز**، أو **من قراءة العينات الجزئية المغيّبة (جنون/جنوج/شذوذ) إلى نقد الكل، أي النسق الثقافي العام للمجتمع الغربي المعاصر**.

لكن فوكو – في تصور دوسارتو– يمارس التعتيم المنهجي بإخفاء مرجعياته الفكرية حتى يضع نفسه بمنأى عن أي نقد، فهو يوظف المقولات الماركسية والبنيوية لكنه يرفض الانتماء لأصحابها **فهو يريد أن يكون ناظرا غير منظور وناقدا غير مُنتَقد**، لهذا وصفه "دوسارتو" **بالفيلسوف المتلون**، ونعته بعض نقاده بالفيلسوف المراوغ الذي يتلاعب بالمفاهيم، ويشوه حقب التاريخ، ويقفز على الحقائق العلمية ولا يعترف بالنصوص المؤسسة والسرديات الكبرى، كما وصفه "هبرماس" بأنه صاحب موقف عدمي من الحداثة وهو معياري متخفي ولا عقلاني.

إن تحليلات فوكو لممارسات السلطة أدى به -في اعتقاد دوسارتو- **إلى الإقرار بطابعها الشامل والمعمّم**، مما ترتب عنه القول بأن لا أحد ينفلت من مفاعيلها، وإن كانت تمارس على الجميع فهي ليست ملكا لأحد لأنها مجرّدة من أثر الذات وتخلو من أي بعد إنساني، **ولعل هذا التفكير هو ما أوقع فوكو في تصور طوباوي وميتافيزيقي للسلطة.**

لقد أهمل فوكو في نظر دوسارتو "**أساليب الفعل**" التي يتميز بها الإنسان العادي في الحياة اليومية، بوصفها مصدرا لسلطة مجهرية بالغة اللطافة والانتشار نصطلح عليها "**بالتكتيكات الميكروفيزيائية**"، وهي **حيلة الضعيف في استغلال اللحظات الزمانية الخاطفة، والتلاعب في استعمال الوسائل المتاحة من أجل تحقيق مقاصد ظرفية وأهداف خاصة تتعارض مع ما هو مفروض داخل النسق الاستراتيجي.**

يشير "دوسارتو" إلى ثلاثة أنماط من التكتيكات تمثل كل منها إزاحة وخلخلة للسلط الاستراتيجية، الأولى هي: **تكتيكات القراءة** التي تزيح النص بوصفه نسقا معرفيا، على اعتبار أن القراءة تنتج تعدد المعاني والأفهام، ونشهد ذلك فيما تحدثه القراءات من تأثير في النصوص الدينية (المقدسة) والخطابات السياسية، **وتكتيكات السير**: وهي إزاحة المكان باستعمال الحركة، وهنا نذكر مناورات المحتجين في الشوارع وأساليب استعمالهم لأروقة المدينة للانفلات من الشرطة والأمن، وأخيرا **تكتيكات الاستعمال**: كأساليب الادخار والمقاطعة والاحتكار، والشراء الاستباقي قبل المواسم الذي يكسر من خلاله الفاعل الاجتماعي أنماط الاستهلاك المفروض عليه.

خاتمة عامة:

تبين لنا من خلال أطروحات "فوكو" و"دوسارتو" مدى تنوع وثراء خلفيتهما المنهجية، لأن المنهج بالنسبة لهما لا يعني الانتماء لمذهب بعينه، أو الدفاع عن عقيدة فلسفية أو تبني موقف إيديولوجي، وإنما هو **مجموع المفاهيم والمقولات التي يستعملها الفيلسوف بدرجات مختلفة وفي مواضع متفرقة من أجل تفكيك وتحليل الموضوعات**، ولعل تنوع الخلفية المنهجية للفيلسوفين راجع للمناخ الفكري الذي تميز به القرن العشرين، لكنها صفة أجدى وأنفع للفيلسوف لأنها تمكنه من مفاتيح القراءة وتمنحه الاستقلالية والتحرر من الانزواء الإيديولوجي والتحزب السياسي، لهذا نجدهما يتوخيان الحذر من الوقوع في التفسيرات المتحيزة والأحكام المتسرعة التي تؤدي بهما إلى الانحراف عن المسار السليم للبحث المستقل.

لقد عمل كل بأسلوبه الخاص على نقد "**مركزية العقل الغربي**" باعتبارها مصدرا لكل حقيقة وأساسا لكل يقين، و تقويض تلك "**النظرة المعيارية**" التي أقامتها الحداثة الغربية والتي يتم بموجبها **تطبيع مفهوم الحقيقة**، والمعيارية تعني أن نضع معايير للحقيقة يتم فرضها على الجميع بأساليب مختلفة، وهي **معيارية ازدواجية** يتم بموجبها الفصل فيها بين الحقيقي والوهمي، بين العلمي والعادي، بين السوي والمرضي، بين العقلاني والجنوني.

لقد اشتغل الفيلسوفان على النقد الجذري للأسس والمعايير التي قام عليها المجتمع الغربي المعاصر **من خلال البحث في الهوامش للوصول إلى نقد المركز**، وتحليل "المسائل الاجتماعية الصغيرة" (micro-social) للوصول إلى فهم عميق للقضايا الاجتماعية الكبيرة (الحداثة).

يتوخى كل منهما التنقيب في **لاوعي المجتمع** من خلال إحياء خطاباته المنسية، وقضاياه المغيبة من أجل إزاحة الأطروحات المركزية، والسرديات الكبرى التي لطالما اتخذها الفلاسفة كمرجعية لكل تفكير يعبر عن روح العصر. لكن ليس بالضرورة أن نعبر عن الحقيقة بمعايير العقل، بل حتى **"العوالم الرمزية والخيالية"** نصيب في ذلك، وهذا ما يثبته فوكو ودوسارتو في مؤلفاتهما، **فقد يعبر المسرح أو الرواية على حقيقة يعجز عنها ألف عالم أو عاقل، وقد نجد في الثقافة الشعبية والحياة اليومية ما هو أحق بالتقدير من كلام أصحاب المخابر والمعاهد المتخصصة.**

يوظف الفيلسوفان بمهارة المقولات الماركسية والمنظور البنيوي (دون أن نقول عنهما أنهما بنيويين أو ماركسيين)، **وأسلوبا خاصا في الاستقصاء التاريخي والنقد الاجتماعي والسرد الروائي**، ليصلا في الأخير إلى رصد ثلاث صفات تتميز بها أي معرفة مهما كان نوعها وهي : **صفة النسقية و الإنتاجية والتاريخية.**

تُفهم المعرفة من حيث هي نسق عندما تتخذ وضعا استراتيجيا، فتتحول بموجبه إلى مشروع فكري أو نظرة شاملة للحياة تفرض نفسها على المجتمع والتاريخ، وتسخر لها المؤسسات والهيئات السياسية لتحقيقها، كما تُفهم أيضا على أنها منتوج متفرق المصادر تتلاقى فيه مؤثرات وبنى مختلفة **كالسياسة والاقتصاد والمجتمع**، هذه البنيات الثلاث لها تأثير بالغ في رسم الملامح العامة للمعرفة، لهذا لا بد من تفادي القراءات الاختزالية التي ترد هذا النشاط إلى عنصر أحادي ومركزي ، كرد المعرفة إلى وعي الأفراد دون النظر إلى النسق العام الذي تشكله عناصر متفرقة، فما يبدو لنا نظريا–بالنسبة لهما– يرتد في الأصل إلى ما هو عملي، وما يبدو لنا كونيا مشتركا هو في الأصل انعكاس لما هو محلي، وبالتالي لا بد من تحليل المعرفة انطلاقا من منابتها وسياقاتها التي شكلتها، فلو أخذنا **الاقتصاد** مثلا لوجدنا أن فوكو ودوسارتو يتفقان حول مدى تأثيره **كعامل مادي** على بنية المعرف، لكنهما يتخلفان حول مقتضى وكيفية هذا التأثير.

إنتاجية المعرفة تعني أنها محصلة إجراءات اجتماعية وترتيبات إدارية، وهي أيضا مجال تتدخل فيه السياسة والعصب المتصارعة بشكل مباشر، وكل هذه العوامل تحدد شكل المعرفة ومضمونها.

أما **الطبيعة التاريخية للمعرفة** فالمقصود بها هي أنها نسبية محلية تتغير بتغير المجتمع، وتتأثر بالممارسات أي بالحركية الاجتماعية والاقتصادية، إنها نتاج بنيات متحركة بالغة التعقيد يتداخل فيها النظري مع العملي والفردي مع المؤسساتي والتاريخي مع الواقعي (أو اليومي).

لقد ساهمت قراءات فوكو ودوسارتو في توسيع وتعميق فهمنا للسلطة، لأن أطروحاتهما تجاوزت تلك القراءات التقليدية والتبسيطية لهذا المفهوم، فالسلطة لا نشير بها حصرا للعنف المادي أو لهيمنة الدولة على الأفراد في امتداد عمودي، ولا هي قوة هدامة تسير بالمجتمع إلى الانهيار، ولا هي علاقات الهيمنة والخضوع التي تربط الأفراد بعضهم ببعض بشكل أفقي، وإن كانت السلطة جامعة لكل هذه المعاني إلا أنها تتميز بخصائص عامة يمكن حصرها في ثلاثة خصائص وهي : **الصراعية، الاستراتيجية والانتاجية، الشمول (اللامركزية).**

تتضح **الميزة الصراعية** من خلال تبني فوكو ودوسارتو لوجهة نظر فلسفية تقضي بأن **الصراع ضرورة اجتماعية،** فهو القوة الدافعة للمجتمع نحو البناء بعد الهدم، ونحو الحركة بعد الثبات. ولا تفهم السلطة إلا بوصفها مجموع الصراعات الشاملة التي تعم النسيج الاجتماعي ككل في علاقاته الأفقية والعمودية. لهذا لا ينتهي المجتمع – في اعتقادهما – إلى أي شكل من أشكال الاستقرار أو السلم، لأن القانون والسياسية لا يستطيعان إنهاء حالة الصراع أو حتى التحكم فيه على أقل تقدير، والحاصل هو العكس، القانون والسياسة يتغيران في بنيتهما بفعل تأثير الصراعات داخل أطراف المجتمع. **فالسلطة هي نموذج الحرب المستمرة والصراع الدائم داخل كل مجتمع.**

الصفة الاستراتيجية تعني أن هذا أن الصراع لا تحكمه قوة الهدّامة، بل هو استراتيجية هيمنة بالغة التنوع والتخفي، مما يجعل السلطة مستقلة عن مقاصد الأفراد **لأنها تتحرك وفق خطط وأهداف ومرام** وهو ما ينفي عنها أيضا صفة "الفوضوية" **لأنها تدبير عقلاني للقوّة وتوظيف حذق لأدوات السيطرة**

كتلك الاستراتيجيات التي نشهدها في المؤسسات العسكرية أو الصناعية أو السجنية الموجة لإخضاع الجسد وترويضه.

إنتاجية السلطة تعني أنها قوة دافعة للخطابات، محرّكة للمعارف، فهي تبني أكثر من كونها تهدم وقد أتى فوكو ودوسارتو بهذا التوصيف كخلاصة لملاحظات مطولة للأجهزة السلطوية التي يرتبط عملها بنوع من الإنتاجية، كالإنتاجية الجسدية بالنسبة لفوكو عندما نتحدث عن المؤسسات الانضباطية، أو إنتاجية المعتقد الديني بالنسبة لدوسارتو عندما نتحدث عن المؤسسة الدينية وهي الكنسية.

صفة الشمول واللامركزية نعني بها أن السلطة تتميز بملمح مزدوج: فهي من جهة **مطلقة وشاملة** لأنها موجودة في كل لحظة وفي كل مكان، فلا أحد يمتلكها لأنها تمارس من الجميع وتخترق الجميع، وهي من جهة أخرى تتميز بصفة **الحضور أو المثول العيني**، لأنها تحل في الوقائع والأحداث المعيشية، فنحن لا نرصدها فقد في الهياكل القانونية والسياسية وحسب، بل حتى في الجوانب المجهرية للعلاقات الاجتماعية، وفي البنايات المرئية والهياكل المعمارية (بنوبتيكات المدينة)

يعالج فوكو السلطة من وجهة نظرة كرونولوجية (تاريخية) بحيث لا تجد الذات إمكانية للانعتاق داخل شبكة الصراعات، أما دوسارتو فيتناول السلطة من وجهة نظر "اجتماعية–ألسنية" (socio-linguistique) لكنه يفترض إمكانية انعتاق الذات من شبكة السلطة، نظرا لما تتميز به من "تكتيكات" وحيل استعمال نرصدها في أنشطة الفاعلين الاجتماعيين سواء على مستوى الخطاب: كالرواية والحكايات الشعبية، أو

على مستوى الممارسات: كسلوك المواطنين اتجاه المواد الاستهلاكية، وهي بمثابة سلط مجهرية تمكن من تكسير هيمنة الاستراتيجي والتلاعب به.

يتفق الفيلسوفان على وجود روابط بين السلطة بالمعرفة وهي: **الجسد والمؤسسة والخطاب،** لكن يبقى الاختلاف بينهما في كون أن هذه الروابط تؤدي إلى التماهي المطلق بين المعرفة والسلطة عند فوكو وهو ما يتجسد في الشخصيات السلطوية مثل " **الشخصية الطبية أو الجنائية"**، أما بالنسبة لدوسارتو فإن العلاقة بينهما هي **علاقة عكسية،** فكلما زادت السلطة تقلصت المعرفة والعكس صحيح، ويستدل دوسارتو **"بشخصية الخبير"**.

إن المعارف في الغرب الحديث تشكلت داخل السلطة، كاستجابة لمشروع هيمنة العقلانية الغربية (التي تمثل المركز) على كل ما يقع في الأطراف والهوامش، ومن جدية ما نلمسه في أطروحاتهما هو أن عصر الحداثة كان أشد اضطهادا للأجساد من العصور الوسطى، بل تفوق عليه في خلق أساليب فعالية في الإخضاع والسيطرة والتحكم.

فقد اختصا هذين الفيلسوفين بجدارة في نقد المؤسسات و تعرية تلك الخطابات التي ادعت أنها تدافع عن قيم أنوار، وأنها تصون حقوق الإنسان وتسير به إلى التقدم، لكن فوكو كشف لنا زيف هاته الشعارات الرنانة، وأن ما يسمى "إنسان" لم يكن إلا لعبة إيديولوجية ابتدعتها خطابات لتخفي رواسبها السلطوية.

لقد تبين لهما من خلال نقد الأنظمة المعرفية مدى تورط علاقات السلطة وتأثيرها العميق في بلوة وتشكيل معارف القرن 18 و 19 **وكأن سؤال المعرفة كان في الآن نفسه رهان كشف خيوط السلطة:**

فبالنسبة لفوكو لا نستطيع أن نفصل معرفة "طب الأمراض العقلية" عن تجربة الإقصاء الاجتماعي فالسلطة على المجانين والمرضى شكلت حاضنة تكون فيها الطب العقلي والنفسي بشكل جنيني، كما لا نستطيع أن نفصل "المعرفة الجزائية" ومنظومة القوانين الحديثة عن أساليب الانضباط التي كانت آخذة في التطور، وأخيرا لا نفصل المعرفة الجنسية عن السلطة الحيوية وميلها إلى السيطرة عل السكان. أما بالنسبة لدوسارتو لا نستطيع أن نفصل بين المعارف التاريخية والمؤسسات والمعاهد التي تنتجها، ولا نستطيع فصل الاعتقادات السائدة في المسيحية عن المؤسسة الكنسية.

لقد وجه "دوسارتو" نقدا مفصلا لأطروحات "فوكو"، فقد وصفه في أسلوب خطابه بالفيلسوف **المتلون،** لأنه يريد أن يكون **ناظرا غير منظور** وصاحب **منهج متخف،** لهذا كلما طُلب منه أن يستقر على رأي أو يحدد طبيعة فكره راح يراوغ مخاطبيه بحجة أن ذاته كفيلسوف هي ذات مرتحلة تتبدل أحوالها على حسب مواضيعها وهواجسها، كما أنه شوه التواريخ ونسخ الحقائق وفق ما يخدم **"آراءه المعيارية"** المملوءة بالمحاكمات الأخلاقية والتأكيدات المتسرعة التي تفتقر إلى الشواهد الحية.

لقد وفق فوكو في تشخيص الممارسات السلطوية من التنكيل إلى الانضباط وانتهاء بالسلطة الحيوية لكن دوسارتو بين كيف أن **"عقيدته الفلسفية"** كانت حاضرة في كل قراءاته، خصوصا رفضه أي شكل من أشكال السلط التي قد تصدر عن إرادة الأفراد، وبالتالي كان هذا القفز على كل ما هو إنساني وذاتي

بمثابة حاجز منع فوكو من التفكير في **"سلطة تكتيكية"** معاكسة للتصور الشمولي الذي طرحه. كما انتقده البعض بأنه **صاحب فكر هدام ورؤية عدمية،** لأنه نفى كل منجزات الحداثة والمكاسب النضالية للثوريين والسياسيين، ولم يحل إليها وكأن لا أثر لها في التاريخ .

لقد وجدنا في مصطلح "التكتيك" عند دوسارتو حمولة فلسفية تتضمن نقدا مباشرا لفكرة "عمومية السلطة" عند فوكو، بيد أن "فوكو" تحدّث عن "المقاومة"(résistance) باعتبارها ردود أفعال للسّلطة تعمّ المجتمع، لكن "دوسارتو" تفطّن في دراسته "لليومي" (l'ordinaire) لوجود "تكتيك ميكروفيزيائي" (tactique microphysique) يسكن جسد السلطة ويتلاعب بها ويزيحها عن المركز، وهذه "التكتيكات" هي عند "دوساتو": حيل وألاعيب – متأصّلة في الوجود وحتّى في طبائع البشر–تُمكّنُ الأفراد من توظيف ذكائهم الخلاّق "لاستعمال"(l'usage) ما هو مفروض عليهم لغرض خاص غير الذي وُجد من أجله، وعليه فالأفراد مستعمِلون مُتلاعبون أكثر منهم مستهلِكون ومُنفعِلون.

لقد تطورت في حياتنا المعاصرة أشكال الهيمنة والإخضاع، وقد تطورت معها حيل الهروب والانفلات، وما علينا إلا أن ننتظر الأبحاث اللاحقة التي قد تكشف لنا شكلا جديدا من أشكال السلطة مع ما وصلت إليه من أساليب الرقابة والضبط كما هي عليه اليوم، خصوصا مع تطور تقنيات التجسس الإلكتروني.

إن السلطة في صورتها الجديدة هي "السلطة الرقمية" (pouvoir numérique) تلجأ إليها بعض الدول (مثلما يلجأ إليها أناس عاديون) من أجل اختراق الملفات الخاصة لمستخدمي الهواتف الذكية والحواسيب، ويتم ذلك في الغالب لدواعي أمنية حيث يكون من واجب الجهات الاستخباراتية أن تعرف توجهات الجماهير واهتماماتهم، وأن تكون على دراية بأنشطة الجماعات حتى يتسنى لها استباق أي عمل إجرامي يهدد أمن الدولة، وقد تكون بدافع التعطيل أو الاختلاس أو الإخضاع إذا مارسها الأفراد ضد بعضهم البعض، أو ضد أجهزة الدولة لحساب جهاد معادية. إن "الهاتف الذكي" هو بمثابة "هوية رقمية" تسجل فيها بالتفصيل بيانات الشخص واهتماماته وموقعه ونشاطه.

لكن في مقابل "السلطة الرقمية" لأجهزة الدولة، قد تشكلت أساليب جديدة للافلات والهروب، إذ أصبح المجرمون والمحتالون أكثر قدرة على المناورة لأنهم يجيدون حيل "استعمال" التقنيات الرقمية كالحواسيب والهواتف، فيتلاعبون بها على حسب ما يحقق أغراضهم الشخصية، ومن أمثلة ذلك حيل اختراق الحسابات البنكية للمتعاملين، فقد يتصل أحد المحتالين منتحلا صفة عميل بنكي بأحد المتعاملين فيطلب منه تحديث بياناته لكنه يستعملها في اختلاس المال، وقس على ذلك في أمثلة كثيرة .

إن استشراف دراسات من هذا القبيل جدير بالاهتمام والتشجيع، وستكون أبحاثنا القادمة متركزة حول **تطور أشكال السلط والتكتيكات الرقمية** التي تعرفها الساحة الاجتماعية والعلمية، وسنحاول فحص أهم أنواعها وميادين تطبيقاتها وآليات اشتغالها.

قائمة المصادر والمراجع:

1. قائمة المصادر باللغة العربية و الأجنبية:

1) ميشال دوسارتو، ابتكار الحياة اليومية، فنون الآداء العملي، ترجمة وتقديم: محمد شوقي الزين، منشوران الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر العاصمة، 2011 .

2) ميشال فوكو، المراقبة والعقاب(ولادة السجن) ترجمة: علي مقلد، مراجعة: مطاع الصفدي، مركز الإنماء القومي، بيروت،1990 .

3) ميشال فوكو، المثقفون والسلطة، ترجمة: زواوي بغورة، (مجلة الأوراق الفلسفية، العدد الثاني والثالث، القاهرة، 2001).

4) ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية، ج1 (إرادة المعرفة)، ترجمة: مطاع صفدي، جورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي،(د.ط)، بيروت، 1990.

5) ميشال فوكو، تاريخ الجنسانية ج2 (استعمال المتع)، ترجمة: محمد هشام، دار النشر إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2004.

6) ميشال فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الطبعة2 منقحة، بيروت، 1987.

7) ميشال فوكو، نظام الخطاب، ترجمة: محمد سبيلا، دار التنوير (د. س.ب) .

8) ميشال فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع (دروس ألقيت في كوليج دوفرانس سنة1976)، ترجمة وتقديم: زواوي بغورة،دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ،2003.

9) Michel de Certeau, *L'absence de l'histoire*, éditions maison MANE, Paris, 1973.

10) Michel de Certeau, *L'étranger ou l'Union dans la différence*, éditions Foi Vivante, Paris, 1969.

11) Michel de Certeau, *Faiblesse de croire*, établi et présenté par Luc Giard, éditions du Seuil, Paris.

12) Michel Foucault, *Dits et Ecrits*, **tome 2**, Edition établie sous la direction de Daniel Defert et François Ewald, Gallimard, Paris, 1994.

13) Michel Foucault, *Dits et Ecrits*, **tome** 3, Edition établie sous la direction de Daniel Defert et François Ewald, Gallimard, Paris, 1994.

14) Michel Foucault, *Dits et Ecrits*, **tome 4**, Edition établie sous la direction de *Daniel Defert* et *François Ewald*, Gallimard, Paris,1994.

15) Michel Foucault, *Histoire de la folie a l'âge classique* (1962), éditions Gallimard, Paris ,1972.

16) Michel Foucault , L*a Sexualité* (cours donné à l'Université de Clermont-Ferrand 1964) suivi le discours de la sexualité, François Eward, Gallimard, Paris, 2018.

17) Michel Foucault, *Les mots et les choses* :une archéologie des sciences humaines, éditions Gallimard, Paris, 1966.

18) Michel Foucault, *Maladie mentale et psychologie* ,(1961) Quadrige PUF, 1995.

19) Michel Foucault, *Mal faire dire vrai (fonction de l'aveu en justice)* cours de Louvain 1981, Edition établie par fabienne brion et Bernard E. Harcourt.

20) Michel Foucault, *Naissance de la clinique*. Quadrige PUF, 1963.

21) Michel Foucault, *Ordre du discours*, Gallimard NRF. Paris, 1971.

22) Michel Foucault, *Philosophie anthologie*, établît et présenté par: Arnold I Davidson et Fréderic Gros, Gallimard ,Paris , 2004.

23) Michel Foucault ,*Subjectivité et Vérité. Cours au Collège de France-1980 .1981*

24) Michel Foucault, *Surveiller et punir*, Galimard, Paris, 1975.

2. قائمة المراجع باللغة العربية و الأجنبية :

25) إيدوارد سعيد، الاستشراق (المفاهيم الغربية للشرق)، ترجمة: محمد عناني، دار بنجوين العالمية للنشر والطباعة، ط1، القاهرة، 2006.

26) إيدوارد سعيد، المثقف والسلطة، ترجمة: محمد عناني، مؤسسة هنداوي للنشر،ط1 د.ب، 2018.

27) جون–فرانسوا ليوتار، في معنى ما بعد الحداثة (نصوص في الفلسفة والفن)، ترجمة وتعليق: السيد لبيب، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، 2006.

28) جيل دولوز، فوكو (المعرفة والسلطة)، ترجمة: سالم يفوت،المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، بيروت، 1987.

29) رونيه ديكارت، مقال في المنهج، ترجمة: محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط3 ، القاهرة، 1985.

30) زهير الخويلدي، تشريح العقل الغربي (مقابسات فلسفية في النظر والعمل)، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر العاصمة، 2013.

31) زواوي بغورة، الخطاب بحث في بنيته وعلاقاته عند ميشال فوكو (دراسة ومعجم)، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، بيروت، 2015.

32) زواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، (د.ط.ب) 2000.

33) سيغموند فرويد، قلق الحضارة، ترجمة: جورج طرابشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1988.

34) كريستوفر باتلر، ما بعد الحداثة (مقدمة قصيرة جدا)، ترجمة: نيقين عبد الرؤوف، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ط1، القاهرة،2012.

35) كلوزوفيتش، في الحرب، ترجمة: أكرم ديري، الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت.

36) مارسييل ديتيين و جان بيير غرنان، حيل الذكاء (دهاء الإغريق الميتيسي)، ترجمة: مصطفى ماهر، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1 القاهرة، 2000.

37) محمد شوقي الزين، الغسق والنسق، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط1 الجزائر العاصمة، 2017.

38) محمد شوقي الزين، ميشال دوسارتو، منطق الممارسات وذكاء الاستعمالات (مدخل إلى قراءة تداولية)، ابن النديم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر العاصمة، 2013.

39) Alain Beaulieu, *Michel Foucault et le contrôle social*, Presses de l'Université, Laval, 2005.

40) Annie Guèdez, *Foucault*, Psychothèque (1972).

41) Ayman Nyenyezi Bisoka et Cécile Giraud, *Néolibéralisme et Subjectivité* (Michel Foucault et l'épreuve de la globalisation), Presses Universitaires de Louvain, 2020.

42) Bernard Vandwalle, *Michel Foucault (savoir et pouvoir de la médecin)*, L'Harmattan, Paris, 2006.

43) Christian Delacroix, François Dosse, Patrick Garcia, Michel Trebitsch, *Michel de Certeau les chemins d'histoire*, éditions complexe, Paris,2002.

44) Daveh Dastooreh, *Vers une sociologie foucaldienne* (réunir l'objectivation et la subjectivation), l'Harmattan, Paris, 2015.

45) David Couzens Hoy, *Michel Foucault (lectures critiques)*collection dirigée par :Daniel Giovannan geli, traduit de L'anglais : Jacques Colson, Edition le point philosophique ,Bruxelles, 1989.

46) Didier Eribon, *Michel Foucault*, Flammarion, « Champs Biographie »,2011.

47) Florent Kambasu Kasula, *Le pouvoir chez Michel Foucault* (une épistémologie politique), Mon Petit Edition, Paris,2015.

48) Frank Evrard, *Michel Foucault et histoire du sujet en occidents*, Bertrand -Lacoste, Paris, 1995.

49) Gilles Deleuze, *Foucault*, les éditions de Minuit, Paris, 1986.

50) Guillaume le Blanc et Jean Terral, *Foucault au collège de France*, Presses Universitaires de Bordeaux, 2003.

51) Henri Lefebvre, *Critique de la vie quotidienne*, introduction, Grasset, Paris, 1947.

52) Henry Lefebvre, *Critique de la vie quotidienne*, introduction tome 1, l'Arche, Paris, 1977

53) Jacqueline Russ, *Philosophie (savoir et pouvoir)* Tome1, Hatier, Paris, 1980.

54) Jean de Lacroix, *Marxisme, Existentialisme, Personnalisme*, Presses Universitaires de France, Paris, 1971.

55) Jean-François Bert et Jérôme Lamy, *Michel Foucault, un héritage critique*, CNRS EDITIONS, Paris, 2014.

56) Jean-François Petit, *Michel Foucault et Michel de Certeau (le dialogue inachevé),* parole et silence, Paris,2020.

57) Johan Michel, *La fabrique des sciences sociales d'Auguste Comte à Michel Foucault*, Presses Universitaires de France, Paris, 2018.

58) Johan Rajchman, *Michel Foucault (laliberté du savoir)*, Traduit de Langlais Sylvie Durastanti, Presses Universitaires de France, Paris.

59) Karl Von Clausewitz, *De la guerre*,(1832), Naville (trad),Paris, Minuit,1955.

60) Louis Althusser, *L'idéologie et l'appareil idéologiques d'état*.

61) Luce Giard, Hervé Martin, Jacques Revel, *Histoire mystique et politique (Michel de Certeau)*, éditions Jérôme Millon, Grenoble, 1991.

62) Luc ferry ,Alain Renault, *Pensée 68 (Essai sur l'antihumanisme contemporain)*, éditions Gallimard, Paris, 1988.

63) Lucio d'Alexandro, Adolfo Marino, *Michel Foucault(trajectoires au cœur du présent)*,traduit de l'Italien: Francesco Paolo. L'Harmattan, 1998.

64) Marcel Conche, *Héraclite* ***fragments***, Presses Universitaire de France, Paris,1986.

65) Michael Sheringham, *Traversées du quotidien des surréalistes aux postmodernes*, traduction française: Maryline heck et Jeanne-Marie, Presses Universitaires de France, Paris, 2012.

66) Michel Ngeuti, *Critique de structuralisme à partir de Michel Foucault* (l'homme est-il mort ?), L'Hamarttan, Paris, 2013.

67) Mohammed Chaouki Zine, *L'apriori historique et le diagnostic de l'actualité chez Michel Foucault*, Edition Madarij, Tlemcen, 2016.

68) Naima Riahi, *Michel Foucault (subjectivité- pouvoir- éthique)*, L'Hamarttan, Paris, 2011.

69) Naima Riahi, *Subjectivité, pouvoir et éthique*, L'Hamarttan, Paris, 2011.

70) Nicolas Journet, *Cinq siècles de pensée fran*çaise, Sciences humaines éditions, Auxerre ,2010.

71) Olivier Dekens, *Michel Foucault (la vérité de mes livres est dans l'avenir)*, Armand Colin, Paris, 2011.

72) Olivier Nay, *Histoire des pensées politiques* (la pensée politique occidentale de l'Antiquité à nos jours), ARMAND COLIN, (malakoff), 2016.

73) Olivier Razac, *Avec Foucault après Foucault* (disséquer la société de contrôle), L'Harmattan, Paris,2008.

74) Rubert Dreyfus et Paul Rabinow, *Michel Foucault, un parcours philosophique*, traduit de Langlais par: fabienne Durand-Bogaert, Editions Gallimard, Paris, 1984.

75) Saïd Chebili, *Foucault et la psychologie*, L' Harmattan, Paris, 2005.

76) Thomas Hobbes, *Léviathan*, Traduction originale de Philippe Folliot,2002.

77) Véronique Bedin, *Pensées rebelles* (Foucault-Derrida-Deleuze), La petite bibliothèque des sciences humaines, Auxerre, 2013.

مجلات، قواميس وموسوعات :

القواميس:

78) ابن منظور، لسان العرب (المجلد التاسع) حرف الفاء، دار صادر، بيروت (د.ط.س).

79) Denis Huisman, *Dictionnaire des philosophes* (A-J),Presses Universitaires de France, Paris, 1984.

80) EvanGobry, *Vocabulaire grec de philosophie*, Ellipses,Paris,2000.

81) Judith Revel, *Vocabulaire de Michel Foucault*, Ellipses, Paris, 2002.

82) Michel Blay, Larousse (grand dictionnaire de la philosophie) CNRS éditions, Montréal, 2005.

83) Stephan Leclercq, Abécédaire de Michel Foucault, les éditions de Sils Maria,Mons, 2004.

المجلات:

84) Ignacio martinez, *entretien avec Michel de Certeau*, **Revue:figures de la psychanalyse**, 2003/1 N8, éditions ERES.

85) Willett Laura, *Traverses, une interview avec Michel de certeau*. **Revue Paroles gelées**, 1983/1, éditions: l'Université de Californie.

86) Christian de La Croix, *à propos de Michel de Certeau***, Revue Mouvement**, 2003.

فهرس الموضوعات	الصفحات
مقدمة	أ-د
الفصل الأول جدلية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو	115-13
توطئة	17-15
المبحث الأول: المقاربة الأركيولوجية للمعرفة عند فوكو	39-17
تمهيد:	19
1.ميشال فوكو والمراجعة النقدية لمفهوم	29-20
1.1 نقد المنظور التاريخي القائم على فركة "الاتصال".	25-21
2.1 نقد مركزية الذات.	29-25
2. قراءة فوكو لمفهوم المعرفة.	38-30
1.2 مفهوم المعرفة	35-30
2.2 مصطلحاته الأساسية (العلم ، المعرفة، connaissance)	38-35
محصّلة المبحث	39
المبحث الثاني مفهوم السلطة عند فوكو.	73-40
تمهيد:	41
1. نقد التصور الكلاسيكي للسلطة.	50-42
1.1 نقد "فرضية امتلاك السلطة".	44-42
2.1 نقد "الفرضية القمعية" للسلطة	50-45
2. مستويات تحليل السلطة في كتابات ميشال فوكو.	72-51
1.2 من السلطة التقليدية إلى ميكروفيزياء السلطة.	57-51
2.2 من السلطة الانضباطية إلى السلطة على الحياة.	72-57
محصّلة المبحث	73
المبحث الثالث: علاقة المعرفة بالسلطة عند ميشال فوكو.	112-74

تمهيد:	75
1.قراءة فوكو لعلاقة السلطة بالمعرفة.	79-76
2.مستويات التداخل بين المعرفة والسلطة.	111-79
1.2 السلطوي والمعرفي على مستوى الخطاب.	87-79
2.2 المعرفة الطبية وسلطة الاخضاع الاجتماعي.	94-87
3.2 المعرفة القانونية والسلطة الانضباطية.	99-95
4.2 المعرفة الجنسية والسلطة على السكان.	108-100
3.السلطة والحقيقة وسؤال الذات.	111-108
محصّلة المبحث.	112
خلاصة الفصل الأول	115-113
الفصل الثاني: جدلية المعرفة والسلطة عند ميشال دوسارتو.	194-116
توطئة.	119-118
المبحث الأول: مفهوم المعرفة عند ميشال دوسارتو.	147-120
تمهيد:	121
1.نقد دوسارتوللأنساق المعرفية الحديثة (العلم، التاريخ، الاقتصاد)	141-122
1.1نقد المعرفة العلمية.	133-122
2.1 نقد الهيمنة الاقتصادية.	136-134
3.1 نقد المعرفة التاريخية.	141-137
2.تصور دوسارتو للمعرفة.	146-142
1.2 مفهوم المعرفة.	143-142
2.2 المعرفة ذات النزوع الاستراتيجي والمعرفة ذات النزوع التكتيكي .	-144
1.2.2 المعرفة ذات النزوع الاستراتيجي.	145-144
2.2.2 المعرفة ذات النزوع التكتيكي.	146-145
محصّلة المبحث	147

المبحث الثاني: مفهوم السلطة عند ميشال دوسارتو.	171-148
تمهيد:	149
1.تصور دوسارتو للمجتمع كمدخل لفهم نظريته في السلطة.	152-150
2.تصور دوسارتو للسلطة من خلال مصطلحاته الأساسية.	157-153
1.2 السلطة بوصفها "استراتيجية".	154-153
2.2 السمات العامة للسلطة الاستراتيجية.	157-155
3.أنماط السلط عند دوسارتو ومجالات اشتغالها.	170-158
1.3 السلطة والمكان الحضري (استراتيجية المدينة والمؤسسات).	161-158
2.3 السلطة والخطاب (استراتيجية النص).	164-161
3.3 السلطة، القانون والجسد (استراتيجية الانضباط).	166-164
4.السلطة الانضباطية وتجربة الموت.	170-167
محصّلة المبحث	171
المبحث الثالث: علاقة المعرفة بالسلطة عند ميشال دوسارتو.	191-172
تمهيد:	173
1.أي علاقة تربط المعرفة بالسلطة؟	175-174
1.1 السلطة والفضاء المكاني (التنظيمات).	177-176
2.1 السلطة والاشتغال العلمي (المخابر)	181-178
3.1 السلطة والانتاج المعرفي للنص (الخطابات).	185-182
2.قراءة دوسارتو لشخصية الخبير.	190-186
1.2 السلطة الاجتماعية للخبير.	189-187
2.2 السلطة الانضباطية للخبير.	190
محصّلة المبحث.	191
خلاصة الفصل الثاني.	194-192

الفصل الثالث: المعرفة والسلطة بين ميشال فوكو وميشال دوسارتو (دراسة مقارنة في المفهوم واستعمالاته) .	276-195
توطئة	198-197
المبحث الأول: السلطة والمعرفة بين فوكو ودوسارتو (مقارنة في المفهوم واستعمالاته)	228-199
تمهيد	200
1.مقارنة في مفهوم المعرفة.	214-201
1.1 مجالات الاتفاق.	211-201
2.1 مجالات الاختلاف	214-212
2.مقارنة في مفهوم السلطة	222-216
1.2 مجالات الاتفاق.	221-216
2.2 مجالات الاختلاف	222-221
3.علاقة المعرفة بالسلطة بين فوكو ودوسارتو.	227-223
محصّلة المبحث	228
المبحث الثاني: مقاربات نقدية لمفهوم السلطة والمعرفة عند ميشال فوكو	252-229
تمهيد	230
1.نقد مفهوم المعرفة عند ميشال فوكو.	242-231
1.1وقفة عند المنهج.	236-231
2.1مقاربات نقدية واعتراضات على المنهج في المعرفة	239-237
3.1 نقد فلاسفة آخرون.	242-240
2.نقد مفهوم السلطة عند ميشال فوكو.	251-243
1.2 وقفة عند منهج فوكو في السلطة.	245-243
2.2 مقاربات نقدية واعتراضات على المنهج.	-246

3.2 نقد دوسارتو لفكرة عمومية السلطة عند فوكو.	249-246
4.2 انتقادات لفلاسفة آخرين.	251-249
محصّلة المبحث	252
المبحث الثالث:ميكروفيزياء التكتيك كإزاحة لاستراتيجيات السلطة	274-253
تمهيد	254
1.التأصيل الفلسفي لمصطلح "التكتيك" عند دوسارتو.	260-255
2.استراتيجيات وتكتيكات.	273-261
1.2 تكتيك القراءة كإزاحة لاستراتيجية سلطة المكتوب(النص).	265-261
2.2 تكتيك السير كإزاحة لاستراتيجية سلطة المكان الحضري (المدينة).	268-266
3.2 تكتيك الاستعمال كإزاحة لاستراتيجية سلطة الاستهلاك (الاعلام والاقتصاد).	273-269
محصّلة المبحث	274
خلاصة الفصل الثالث.	276-275
خاتمة	285-277
قائمة المصادر والمراجع.	292-286
الفهرس.	300-293

الملخّص: لقد وقع اختيارنا على فيلسوفين فرنسيين لدراسة **"جدلية المعرفة والسلطة"** وهما "ميشال فوكو" (Foucault 1926–1984) و"ميشال دوسارتو" (Michel de certeau 1925–1986) وقد حاولنا من خلال مقارنة أطروحاتهما التفكير والتساؤل عن **ما هو معرفي داخل السّلطة وما هو سلطوي داخل المعرفة ، وبأي صورة تتشكل العلاقة بينهما.** يفترض "فوكو" أن المجتمع الغربي انتقل من كونه مجتمعا **"قمعيا"** (société répressive) إلى مجتمع" **انضباطي"** (société disciplinaire)، وقد صَحَبَ هذا الانتقال تحوّلا في "ممارسة السّلطة"؛ فإذا كان "المجتمع القمعي" يرتكز على "التّعذيب" المباشر للجسد، فإنّ "المجتمع الانضباطي" ينزع إلى التّأديب والمراقبة. **لكن السؤال المطروح ما هو موقع المعرفة في الممارسات السّلطوية وما هو الدور الذي لعبته في هذا الانتقال؟**. كيف يثبت فوكو افتراضه القائل بأن السّلطة ليست في علاقة خارجية (تقابليّة) مع السّلطة، وإنما تنشط داخلها ولا تتحقق إلا بها، وأن المعرفة بدورها لا تصل إلى أرضية ابستمولوجية إلا إذا كانت علاقات القوى دافعة لها. يقدم "ميشال دوسارتو" هو الآخر قراءته لجدلية المعرفة والسّلطة، فهو يرجح بأنّ السّلطة تتعدّى الأطر الاجتماعيّة لتتعيّن في مجالات أخرى **كاللّغة والتّاريخ والدّين على غرار المجتمع** ويفترض أيضا أنّ المعرفة إذا ما حللنا شروط نشأتها (المادية) بعيدا عن النظرة الابستيمولوجية المعتادة لوجدنا أنّ السّلطة تشكلّ أحد تمفصلاتها وأحد شروط إنتاجها ، **لكن بأي صورة وعلى أي هيأة يكون للسلطة حضور في نشاط المعرفة؟.**

الكلمات المفتاحية: المعرفة، السلطة، الاستراتيجية، التكتيكية، الانضباط...

Résume: Nous avons choisi deux philosophes français (Foucault et de Certeau) afin d'envisager la relation problématique entre pouvoir et savoir». Nous avons tenté, en comparant leurs thèses, de penser la présence du savoir au sein du pouvoir , et de quelle manière la relation entre eux se noue-t-elle ?.Foucault suppose que la société occidentale est passée d'une société « répressive » à une société « disciplinaire », et que cette transition s'est accompagnée d'un changement dans « l'exercice du pouvoir ». Si la « société répressive » repose sur la « torture » directe du corps, alors que la « société disciplinaire » dépend de la discipline et de la surveillance:quelle est la place du savoir dans les pratiques du pouvoir et quel rôle va-t-il joué dans cette transition ? Comment Foucault prouve-t-il son hypothèse selon laquelle le pouvoir n'est pas dans une relation externe (contraste) avec le pouvoir, mais plutôt dans une relation interne ?, et que le savoir, à son tour, ne s'établit que par des relations de pouvoir actives. En revanche Michel de Certeau suggère que le pouvoir dépasse les cadres sociaux pour être défini dans d'autres domaines, comme **le langage, l'histoire et la religion**, à l'instar de **la société**. Elle suppose aussi que si on analyse les conditions matérielles d'émergence des savoirs (en dehors de la vision épistémologique habituelle), on constate que le pouvoir constitue l'une des conditions de production des savoir, mais sous quelle forme et sous quelle forme le pouvoir présente-il dans l'activité du savoir.
Mots-clés : savoir, pouvoir, stratégie, tactique, discipline...

Abstract: We have chosen two French philosophers (Foucault and de Certeau) to consider the problematic relationship between power and knowledge. We tried, by comparing their theses, to think about the presence of knowledge within power, and in what way is the relationship between them established? Foucault supposes that Western society has moved from a "repressive" society. » to a "disciplinary" society, and that this transition was accompanied by a change in the "exercise of power". If the "repressive society" is based on the direct "torture" of the body, while the "disciplinary society" depends on discipline and surveillance: what is the place of knowledge in the practices of power and what role does it play? he played in this transition? How does Foucault prove his hypothesis that power is not in an external relationship (contrast) with power, but rather in an internal relationship?, and that knowledge, in turn, is only established through active power relations. On the other hand, Michel de Certeau suggests that power goes beyond social frameworks to be defined in other areas, such as language, history and religion, like society. It also supposes that if we analyze the material conditions of emergence of knowledge (apart from the usual epistemological vision), we note that power constitutes one of the conditions of production of knowledge, but in what form and in what form the power present in the activity of knowledge.
Keywords: knowledge, power, strategy, tactics, discipline...